مذكرات بيتر أرنيت

أشهر مراسل عسكرى في العالم

من فيتنام إلى بغداد

ترجمة

احمد هريدى

مكتبة مدبولى

مذكرات بيتر أرنيت

أشهر مراسل عسكرى فى العالم

من فيتنام إلى بغداد

الكتـــــــاب: مذكرات بيتر أرنيت
أشهر مراسل عسكرى فى العالم

الـــكـــاتـــب: بيتر أرنيت، أشهر المراسلين العسكريين
فى العالم، غطى أسرار ومؤمرات أكبر الحروب
فى القرن العشرين من فيتنام إلى بغداد

المــتــــــرجـم: عرض وترجمة أحمد هريدى

الـنـاشــــــــر: **مكتبة مدبولى** – ٦ ميدان طلعت حرب
تليفاكس: ٥٧٥٦٤٢٤ – ت: ٥٧٥٢٨٥٤

الجمع والتنفيذ
الـــفـــنـــى: **المركز العربي**
للنشر والترجمة والدعاية
ت: ٥٧٥١٨٨٤

الـطـبـــعـــة: الأولى اكتوبر ١٩٩٦

مذكرات بيتر أرنيت

أشهر مراسل عسكرى فى العالم

من فيتنام إلى بغداد

ترجمة

أحمد هريدى

مكتبة مدبولى

المحتويات

مقدمة

هو بلا جدال، أشهر مراسل عسكرى عرفه التاريخ. لم يلق بنفسه فى النيران فقط. بل عاش فى أتون أشهر معارك القرن العشرين، لينقل للعالم عبر وكالات الأنباء ومحطات التلفزة اللقطات الحية للمعارك.

عرفته فيتنام مثلما عرفته الكويت.

فى سايجون حاولوا إسكات قلمه، وتكسير عدسات كاميراته.

فى حرب التحرير نقل للعالم بأسره - ولأول مرة - الحرب على الهواء مباشرة من خلال وكالته C.N.N.

استطاع اقتناص أشهر اللقطات.

تألبت عليه قوى الشر كثيراً لكنه صمد مستنداً على شعبيته.

إنه بيتر أرنيت فى كتاب يحكى فيه تفاصيل حياته منذ ولادته حتى حرب تحرير الكويت من واقع مشاهدات حية فى تلك الحروب الساخنة.

فى تفاصيله أسرار كثيرة جُلها يدور حول المؤامرات السياسية ودهاء القيادات وكوارث الحروب والصراعات، ويحكى خلاله تفاصيل لقاءاته مع كبار القيادات فى العالم، لا سيما هؤلاء الذين صنعوا الحروب والكوارث.

الفصل الأول

جحيم فيتنام

* انتقلت إلى جحيم فيتنام بعد ٤ سنوات فى تايلاند ولاوس وإندونيسيا.
* كراسة التعليمات فى سايغون طالبتنى بالجرءة والدهاء والحيلة.
* الحصول على الأخبار مشروط بمقابلة الدبلوماسيين فى الحفلات الليلية.
* لماذا أصبحت زوجة الرئيس الفيتنامى الجنوبى المتحدثة الرسمية باسم الحكومة؟.
* البرلمان الفيتنامى يحرم الرقص فى الملاهى وينصح الأميركيين بالذهاب إلى هونغ كونغ.
* الرئيس ديم ينجو من الموت بعد فشل ٣ محاولات لاغتياله و٤ انقلابات وعصيان.

بعد أربع سنوات قضيتها فى تايلاند ولاوس واندونيسيا، أعمل صحفياً بصحف محلية هناك، ثم مراسلاً لوكالة الأنباء العالمية «اسوشيتدبرس» كان سفرى إلى سايجون فى يوم الثلاثاء ٢٦ يونيو ١٩٦٢ مستقلاً طائرة الخطوط الجوية الفيتنامية، التى هبطت أرض المطار بعد ظهر يوم هبت فيه رياح جنوب آسيا الموسمية الممطرة، ومن المطار حملنى باص قديم تابع لشركة الطيران إلى فندم كارافيللى فى ميدان «لام سون» كانت حجرتى تطل نافذتها على فندق كونتننتال، والمبنى الأبيض الأنيق لمجلس النواب الفيتنامى.

كانت أحوال المعيشة قد تغيرت كثيراً إلى الأفضل عما كانت عليه منذ أربع سنوات عندما جئت إلى سايجون لأول مرة ومعى صديقتى «ميرتل» وأنا مجرد سائح خالى الوفاض، فأنا قادم هذه المرة إلى سايجون كمراسل صحفى لوكالة أنباء عالمية، ومعى دفتر شيكات أنفق منه، لكن تلك السنوات الأربع لم تمض دون أن أسدد لها الجزية التى فرضتها علىّ. فقد أصبحت أدمن تدخين السجائر، وأصيبت معدتى باعتلال مستمر.

كل شئ أملكه حملته معى من جاكرتا فى حقيبتين، بدلة زرقاء داكنة من البوليستر، وجاكيت من القطن، وبنطلونات، وعدد من القمصان، بالإضافة إلى خنجرين إندونيسيين من النوع الذى يقوم السائح بشرائه على سبيل التذكار، ورأس كاهن بوذى من البرونز فى حجم قبضة اليد، كنت قد عثرت عليها أثناء تنقيبى فى حفريات منطقة ايوثايا، التى كانت يعيش فيها التايلانديون القدماء فى شمال بانكوك العاصمة. وسيف على نمط سيوف القبائل فى لاوس، قمت بتعليقه على جدار حجرتى بالفندق.

انطباع سيئ

لم يكن فى نيتى المكوث فترة طويلة فى سايجون. وذلك للانطباع غير الحسن

الذى كنت قد كونته عن المدينة وناسها من زيارتى الأولى لها، ومن أخبارها التى كانت تنتشر فى الصحف عن محاولات الانقلاب ضد نظام الحكم الديكتاتورى، وجماعات المتمردين، وأحداث العنف التى شاهدتها فى تايلاند ولاوس وإندونيسيا، والتى يصل فيها عدد القتلى والجرحى إلى ألف قتيل وجريح كل شهر من شهور عام ١٩٦٢.

كان هناك سبب آخر جعلنى أعتقد أن إقامتى فى فيتنام لن تستمر طويلاً، وهو أننى علمت أن «مالكوم برون» مراسل وكالة أنباء اسوشيتدبرس المقيم يدير مكتب الوكالة فى سايجون طبقاً للأوامر الصادرة له من رئيسه «ويزغالافر» فى نيويورك دون أن يرى فى الأمر ما يسىء.

وفى صباح اليوم التالى الأربعاء، غادرت حجرتى بالفندق متجهاً إلى مكتب الوكالة الذى يقع فى «روباستير» وفى طريقى إليه سيراً على الأقدام، سرت بمحاذاة شارع «تو دو» ماراً بفندق كونتننتال وبمجموعة من العسكريين الأميركيين يتناولون فناجين القهوة فى حديقة الفندق بمحاذاة الشارع، وعند البناية رقم ١٥٨ التى تتكون من ثلاثة طوابق، والقريبة من قصر «جيالونج» الذى يقطن فيه الرئيس «نجو دينه ديم» اتخذت طريقى إلى قصر الوكالة فى الطابق الأرضى.

كان مالكولم برون يكتب على آلة كاتبة، عندما دخلت عليه المكتب، فلم يلتفت إلىّ إلا بعد أن سمع اسمى وأنا أقدم نفسى إلى الفيتنامى «بيل هافان تران» مدير المكتب، عندئذ نهض واقفاً واتجه ناحيتى ومد يده ليصافحنى قائلاً: «مرحباً.. حمل صغير آخر».. قلت لنفسى، ربما هو يقول ذلك لأننى من «نيوزيلاندا»، حيث الخراف هناك أكثر عدداً من البشر، لكننى أدركت أنه لم يكن يتحدث عنى شخصياً بقدر ما كان يشير إلى ما تعتقد السلطات المحلية فى أن المراسلين الصحفيين ما هم إلا حاملى عدوى بالأمراض، ومن ثم فإنه من المفيد اجتنابهم والنأى بأنفسهم عنهم.

قذف إلىّ مالكولم بكراسة صغيرة لكى أقرأها، ثم عاد ثانية إلى آلته الكاتبة.. نظرت إلى الكراسة التى تلقفتها بيدى فوجدتها فى نحو ٢٤ صفحة وعنوانها: «المرشد المختصر للتغطية الإخبارية فى فيتنام»، وضمنها خبرته التى اكتسبها لمدة عام فى مكتب

الوكالة بالعاصمة الفيتنامية سايجون، وكان مالكولم ينسخ منها نسخاً يزود بها أفراد الوكالة الذين يزورون فيتنام.

التعليمات الأولية

جلست على كرسي و بدأت في قراءة مقدمة الكراسة التي ذكر فيها أن محتوياتها سرية: «التغطية الإخبارية في فيتنام تتطلب جرأة و دهاء وسعة حيلة، وفي بعض الأحيان تتطلب استعانة بأفراد من الاستخبارات إذا ما سدت السبل أمام الصحفي، ولا تتوقع إلا القليل من العون من قبل المصادر الرسمية، فالأخبار لا تأتي إلا ببذل الجهد، ويمكن أن تكون لك مصادرك الخاصة من بعض الفيتناميين، والذين يميلون إلى بذل العون والمساعدة، لكن من الضروري أن تحمي مصادرك، وألا تكشف عنها، خاصة إذا كانوا فيتناميين، لأن الكشف عن مصادر الأخبار في عالم السياسة له عواقب وخيمة. أيضاً من المهم عدم الكشف عن المصادر العسكرية الأميركية. والحظ السعيد لك».

لا تثق في المعلومات التي تحصل عليها من أي شخص دون التحقق من صحتها بالقدر الكافي، بما فيها المعلومات المتضمنة داخل هذه الكراسة، فسوف تكتشف سريعاً أن معظم الحقائق في فيتنام يشوبها الكثير من عدم الفهم والمغالطات المضللة.. كما يوجه «مالكولم برون» في كراسته النصح للقادمين حديثاً إلى فيتنام: اجتنب الزحام، ولا تتعجل جمع الأخبار، ولا تسارع في إصدار أحكام على غير أساس سليم من دقة الخبر ومصداقيته.

وضمّن مالكوم كراسته نصيحة تتصل بكيفية تغطية المراسل الصحفي للحرب، وبالأغراض التي عليه أن يحملها معه في الحقيبة التي يعلقها على ظهره مثل أحد جنود المشاة. مثل: شبكة واقية من البعوض، سكين، معلبات. أطعمة محفوظة، حشية من المطاط، أغطية.، غيارات، ملابس داخلية، شرابات، ورق تواليت، كشاف ضوئي صغير، أقراص إسبرين، خريطة مناسبة، نقود، أوراق هوية، مسدس جيب.

اقتناء مسدس

وأكد «مالكولم» على حاجة المراسل الصحفى الذى يرافق قوات حكومية لتغطية أخبار حرب تدخلها ضد عدو لها، إلى حمل مسدس، لأنه سيكون هدفًا لنيران العدو كأنه أحد أفراد القوات المتحاربة، الفيتكونج الذيهم هم فى العادة لا يأسرون الجرحى للصعوبة التى يواجهونها فى الحفاظ عليهم أحياء داخل الغابة، ومن ثم فإنهم يقومون بإطلاق النار على الجرحى ويصيبونهم فى مقتل.

وتنصح كراسة «المرشد المختصر للتغطية الإخبارية فى فيتنام» المراسل الحربى الذى يضطر إلى عبور نهر أو قناة أو يخوض فى أوحال طينية وتصل فيها المياه أو الأوحال إلى العنق، أن يقوم برفع أوراقه الثبوتية أو كاميرته الفوتوغرافية إلى أعلى الرأس، أو وضع أغراضه التى يخشى عليها من البلل والفساد مثل الأفلام والأوراق داخل غلاف من المطاط يتم تثبيته حول العنق أثناء العبور.

وحول المعلومات الرسمية يقول مالكولم فى كراسته: «ليست هناك حكومة لا تشوه أو تخفى المعلومات بما يخدم مصالحها، ومعظم المعلومات الرسمية التى تصدر عن حكومة سايجون وهيئاتها، وعن المصادر الأجنبية يجب ألا تؤخذ على أنها مصادر ثقة، فعلى سبيل المثال، فإن أرقام الجرحى، وكذلك التقارير التى تشير إلى حجم القوات المشاركة فى القتال تكون معرضة للتشويه، كذلك فإنه من الضرورى أن يبذل المراسل الصحفى الذى يغطى أخبار القتال جهداً من أجل التوصل إلى الأرقام الصحيحة لأعداد المتحاربين، حتى يمكنه الوصول إلى نتائج سليمة فى تقريره. وأن يحذر التصريحات المتناقضة التى تصدر عن كل من الجانبين الأميركى والفيتنامى فيما يتعلق بأعداد القتلى والجرحى، وبالجانب المنتصر أو المهزوم، خاصة وأن الحرب بين الجانبين ليست من ذلك النوع الذى ينتهى بانتصار جانب وهزيمة آخر.

وتضيف الكراسة: كما يجب الحذر من مبالغات كل من سايجون وهانوى وادعاءاتهما غير الدقيقة. كذلك توخى الحرص فيما يتصل بتشابه التقارير الرسمية الأميركية التى لا تخرج فى العادة عن تفنيدها للادعاءات الفيتنامية، والحذر أيضًا من

المصـــادر التى لا تخجل من الإدلاء بتقــارير متـضاربة ومتناقـضة تماماً من وقت لآخر، بالرغم من أن بعض هذه المصادر توجد على رأس مواقع مهمة، وبمكتب الوكالة قائمة بأسماء هذه المصادر، بالإضافة إلى ذلك يجب تذكر أن المعلومات التى تصدر عن حكومة سايجون دائماً ما يتم عمل تعديلات عليها بما يتلاءم ومطالب أجهزة الدعاية الرسمية.

كان اقتراح مالكولم برون لى أن أعتمد على نفسى فى الحصول على الأخبار المتاحة أمامى: المصادر التى تعمل فى السفارات ذات فائدة كبيرة فى الحصول منهم على الأخبار، وذلك عند لقائهم فى حفلات الكوكتيل أو خلال وقت الغداء.. وفى العادة فإن المراسل الصحفى المقيم فى سايجون تصله فى الأسبوع ما بين ثلاث إلى خمس دعوات لحضور حفلات واستقبالات، ومن المفيد للمراسل الصحفى أن يحضر على قدر ما يمكنه هذه الحفلات والاستقبالات. لأنه بالرغم من أن الوجوه هى الوجوه وموضوعات النقاش هى نفسها تتكرر من حفل لآخر، إلا أن الشخصيات التى لا يمكن إلا بصعوبة إجراء حوار معهم يكون فى الإمكان حملهم على القبول بالتحدث فى مثل هذه الحفلات.

أهمية المعلومات

وحول تقييمه لأهمية الأخبار التى يمكن الحصــول عليها من مختلف السفارات الأجنبية فى سايجون يقول مالكولم برون فى كراسته «المرشد المختصر للتغطية الإخبارية فى فيتنام» : فى السفارة الأميركية كلما ارتفع منصب الذى يدلى بالخبر، حرص على أن يبدو غامضاً وغير واضح، أما البريطانيــون فهم نادراً ما يتحدثون ويدلون بالأخبار. بالرغم من كونهم مصادر جيدة للأخبار وموثوقاً بها، وفى السفارة الفرنســية، فيما عدا السفير الذى لا يتحدث على الإطلاق، فإن الآخرين على معرفة قليلة بالأخبار. فضلاً عن أنهم شديدوا الشك فى الصحفيين.. وأعضاء السفارة الألمانية، صحبتهم طيبة. لكنهم غير ذى نفع من أى نوع فى كل ما يتصل بالتصريح بأخبار ذات قيمة، واليابانيون فى سفارتهم لديهم معلومات وأخبار جيدة مثلما لديهم الرغبة فى الإدلاء بها للمراسلين الصحفيين،

كذلك الإندونيسيون فى حوزتهم المعلومات وشديدو الرغبة فى الحديث. لكنهم فى الوقت نفسه يميلون إلى الغموض والالتباس، والفلبينيون لديهم القليل من المعلومات، وكل اهتمامهم ينصب فى تحسين علاقاتهم مع الحكومة الفيتنامية.. والبولنديون يحبون إقامة الحفلات لكن معلوماتهم قليلة.

فى اليوم نفسه الذى قدمت فيه إلى سايجون جاء أيضاً من بانكوك المصور الفوتوغرافى الألمانى «هورست فاس» الذى عملت معه فترة عام فى لاوس، وعرفت عنه جرأته الكبيرة فى تغطيته بالكاميرا لأحداث «الكونغو» و«الجزائر» وفى ذلك الوقت كانت وكالة أنباء أسوشيتد برس تهتم بتغطية الأحداث بالصور الفوتوغرافية مثل اهتمامها بالتقارير الإخبارية، وكانت الوكالة من أوائل الوكالات العالمية التى أدخلت نظام إرسال الصور الفوتوغرافية بالإشارات الكهربائية عبر أسلاك التليفون من أى مكان فى لحظة الحدث عند توفر خط تليفون دولى.

وخلال حديث دار فى مكتب الوكالة مع «كونراد فنك» مراسل مكتب «طوكيو» الذى قدم فى زيارة قصيرة إلى سايجون حول القتال الدائر فى «دلتا الميكونج» عبر «هورست فاس» عن نفاذ صبره ورغبته بالسفر إلى هناك لكى يقوم بتصوير أعمال القتال، لكن كان علينا الانتظار لأيام حتى يتم استخراج أوراقنا الثبوتية من حكوماتنا، بعدها اقترح مالكولم برون علينا زيارة المنطقة المرتفعة التى تقوم فيها وكالة الاستخبارات الأميركية سى. آى. إيه بتجنيد رجال القبائل فى الجبال ضمن قوات عسكرية محلية.

وحملتناطائرة فيتنامية إلى عاصمة الإقليم بان مى ثوت، حيث الطرق غير ممهدة، وأناس قرويون غير مبالين بما يجرى حولهم، وبعد أن وضعنا أشياءنا فى حجراتنا بالفندق المشيد من الخشب، والمكون من طابقين، أسرعنا بالتوجه إلى مقر المستشارية العسكرية الأميركية داخل كوخ للصيد تحوطه الأشجار الضخمة، كان لإمبراطور فيتنام السابق «بو داى» لكن قبل أن نصل إلى وجهتنا تقابلنا مع دينيس وارنر المراسل الصحفى الاسترالى المعروف، الذى أخبرنا بأن المستشارين الأميركيين يحتفلون بيوم الرابع من يوليو.

شباب هتلر

استقر بنا المقام داخل بار متهالك يقدم شراب البيرة، وتبادلنا أطراف الحديث، الذى بدأه هورست فاس بقصصه فى الكونغو، كذلك قصصت بدورى بعض أحداث جرت معى فى إندونيسيا، وتحدث هورست أيضاً عن عمله المبكر فى وكالة الأنباء فى ألمانيا كمصور رياضى، يقوم بقيادة سيارته بسرعات خطرة إلى مناطق نائية، لكى ينجز المهام الموكولة إليه. وعن انضمامه وهو فى سن التسع سنوات إلى حركة شباب هلتر.

كمصور فوتوغرافى إقليمى كان بإمكان هورست أن يسافر إلى أى مكان يريد، لكننى على العكس تماماً، فأنا مقيد بمطحنة الأخبار اليومية، وبكتابة قصة إخبارية أو اثنتين كل يوم، وفى الوقت الذى رحل فيه هورست بصحبة بحارة فيتناميين صوب الساحل الأوسط متوجهاً إلى وديان الفيلة، كنت أنا مستغرقاً فى قراءة النشرات الحكومية وفى إجراء مقابلات مع رجال اقتصاد فى سايجون.

عند عودة هورست بعد أن لوحته شمس دلتا الميكونج، وفى حوزته حكايات حول الأعمال الجريئة التى قام بها مستشارو جانج هو الأميركيون، لم يكن فى استطاعتى إلا أن أكتب قصصاً حول الهجمات الإرهابية ضد أسواق المدينة، وحول قضاء أمسيه فى ضواحى العاصمة بصحبة مقاتلين فيتناميين من الشباب كانوا يخافون الظلام أكثر مما كنت أخافه، وذلك لإدراكى أن حكومة نجو دينه ديم هى التى تشن الحرب وليس الفيتكونج.

الرئيس «ديم» الذى نادراً ما يضحك تولى منصبه فى عام ١٩٥٤، واستمر فيه متحدياً الذين تنبأوا بأنه لن يمكث فى السلطة أكثر من ستة أشهر، واحتفل فى ٧ يوليو بالذكرى السنوية لتقلده المنصب الرئاسى، حيث امتلأت الشوارع بالرايات الملونة باللونين الأحمر والأصفر، التى تحمل شعارات وطنية، وبالمواطنين الذين يتجولون فى الطرقات وتزدحم بهم محال الوجبات الخفيفة والأكشاك التى تبيع الآيس كريم على الجانبين، وبمجموعات من السائحين الأجانب الذين يقيمون فى فندق كارفيللى، وقد علت وجوههم الدهشة للهدوء والأمان الذى يلف المدينة الجميلة. التى كانوا يتوقعون أنها تعيش فى فوضى ودمار حرب، بالإضافة إلى ذلك كان هناك الجنود الأميركيون فى لباسهم العسكرى، وقد صدرت إليهم أوامر مشدده

بـأن يخفوا أسلحتـهم، وألا يظـهـروا للعـيان وهـم داخـل الـعـاصمة.

ولقـد توفـرت الفـرصـة لدى لأن أتحـدث لبـعض الوقت مع دبلومـاسـيين أجـانب ومجمـوعات من الأكاديميين والرياضيين الذين وجهت الدعوة إليهم للحضور إلى قصر جيا الكبير للقـاء الرئيس «ديم» الذى كان يرتدى بدلة سوداء أنيقة وبابتسامة هادئة يتقبل تهنئات الحضور فى ذكرى يوم تقلده منصب الرئاسة منذ عام ١٩٥٤، فهو بالرغم من كل الشائعات التى كانت تؤكد قرب حدوث انقلاب ضده، استطاع الإمساك بمقاليد الحكم، والنجاة من محاولات ثلاث استهدفت حياته، وإفشال أربع حركات تمرد وعصيان، والقضاء على سلسلة من المؤامرات ضد حكومته من قبل أفراد داخل فيتنام ومن خارجها.

خلف الواجهة الاحتفالية تختبئ قبضة الديكتاتور «ديم» الحديدية التى يستخدمها ضد معارضيه السياسيين، الذين يتم اعتقالهم وتجرى لهم محاكمات عسكرية فورية، تلك القبضة الحديدية التى يعتقد أنصار الرئيس الفيتنامى أنه من دونها كان قد لقى مصرعه منذ سنوات، وخلف البلاد فى دمار، وعلى العكس من هذا الرأى يرى المعارضون للرئيس أن نظامه الإرهابى لا يختلف كثيراً عن النظم الشيوعية، وكان هناك أيضاً من يعتقد أن الرئيس «ديم» البالغ من العمر فى ذلك الوقت ٦١ عاماً، قد اختير من قبل الولايات المتحدة ليقود نظاماً معادٍ للشيوعية فى الجنوب الفيتنامى.

ووضع الرئيس الفيتنامى «ديم» شقيقه الأصغر ومستشاره «نجو دينه نهو» فى موقع يؤهله لمباشرة أعمال حكومته، ولأن «ديم» كان عزباً فقد أصبحت زوجة نهو الجذابة ذات الشخصية القوية والمتحدثة اللبقة، المتحدثة الرسمية باسم الحكومة، والسيدة الأولى غير الرسمية لفيتنام الجنوبية، كما تم تعيينها أيضاً نائبة للبرلمان، بالإضافة إلى رئاستها لحركة تضامن المرأة الفيتنامية، ولجمعية حقوق المرأة فى جنوب فيتنام، وعرف عنها انتقاداتها اللاذعة للولايات المتحدة الأميركية.

ألغت مدام نهو الرقص فى النوادى الليلية بالعاصمة، بعد أن نجحت فى أن يصدر البرلمان قانونا ينص على ذلك. جاء على لسانها. إذا أراد الأميركيون الرقص فيمكنهم

الذهاب إلى «هونج كونج» والرقص هناك. وقد هددت مدم نهو بإلقاء القبض على لاعبى القمار ليس فى الأندية فقط، وانما فى المنازل أيضاً. لكن فى الوقت المحدد لحظر التجول فى الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل، كانت بعض الأندية الليلية تغلق أبوابها، وتسمح للموجودين داخلها بالرقص حتى طلوع الفجر.

الفصل الثانى
العملية الباسيفيكية

* العملية الباسفيكية كانت أول تجربة ميدانية لمتابعة القتال فى فيتنام.
* جيوش النمل الأحمر كانت أشد ضراوة فى هجومها من المقاتلين الفيتناميين.
* أمريكا أنفقت مليون دولار يوميًا لكسب الحرب دون جدوى.
* قناص فيتنامى يوجه مدفعه إلينا فترد عليه الهليكوبتر بقذائف النابالم.
* الجنرالات الأميركيون يتدفقون على فيتنام حتى أصبح هناك جنرال لكل ١٠٠٠ مستشار.
* استيقظت من النوم داخل غطاء بلاستيكى على صوت القنابل فوق معسكرنا.
* الفيتناميون اكتشفوا جميع المخططات العسكرية الأميركية رغم سريتها الشديدة.
* فى الطلعة الأولى مع القوات أدركت أن حياتى انتهت.
* بعد أن غطى الدخان أرجاء المكان.

في فجر التاسع والعشرين من أغسطس ١٩٦٢، نهضت من نومي مبكراً لكي أقوم بالتغطية الإخبارية لأول عملية قتالية في منطقة «سوك ترانج» في «دلتا الميكونج» بفيتنام، اصطفت طائرات الهليكوبتر، وإلى جانب كل طائرة جلس أفراد طاقمها وهم يرتدون زياً عسكرياً بلون الجبال والخضرة والأرض الطينية للتمويه، ويضعون فوق رؤوسهم غطاء رأس خفيفاً ذا لون كاكي، وبالقرب من جنود البحرية الأميركية هؤلاء يصطف جنود فيتناميون من سلاح المشاة في صفوف ممتدة، ومعظمهم يرتدون خوذات معدنية وملابس عسكرية من القطن الخفيف الكاكي اللون، وجميعهم مسلحون ببنادق نصف آلية، وكانوا يثرثرون في غير مبالاة ظاهرة، بالرغم من أنهم يعلمون بقرب طيرانهم إلى القتال.

وبمروري بمحاذاة الجنود نظروا إليّ في دهشة وأنا أرتدي غطاء رأس استراليا من ذلك النوع الذي كان يستخدم في الحرب العالمية الثانية، وبنطلوناً قاتم اللون كنت قد اشتريته من «سايجون» وقميصاً كاكي اللون، وزوج أحذية جديد من الجلد عالي الساق، وعلى ظهري الحقيبة التي وضعت فيها احتياجاتي من الأشياء التي ذكرها «مالكولم برون» في كراسته الموجزة، ما عدا المسدس الذي كنت أشك في إمكان استعماله مهما كانت الظروف.

ولكي أشغل الوقت قرأت بعض الملاحظات حول حرب العصابات التي أوردها «مالكولم برون في كراسته» في بعض الأحيان، ستجد نفسك في مواقف و ظروف قتال، وعليك أن تتصرف إزاءها كما لو كنت جندياً، وأن تبذل كل ما في وسعك لكي تبقى على نفسك حياً، ودون أن تصاب بجراح، ويلزم لذلك أن تحتفظ بجسدك في حالة صحية جيدة، حتى يمكنك السير أو الجري لمسافات معقولة إذا اضطرتك ظروف المعارك لعمل ذلك حتى تنجو بنفسك، كذلك عليك أن تجيد السباحة. فربما كان الموقف يحتاج إلى أن تعبر نهراً أو مصرفاً، وإذا حدث واستمعت إلى طلق ناري، واعتقدت إنه ليس من

ذلك الجانب الذى تقف معه، فلا تنهض من وضع الانبطاح أرضاً الذى أنت عليه لكى تتطلع حولك وترى من أى اتجاه جاء الطلق النارى، فربما الطلقة الثانية تكون أنت هدفها.

الانبطاح أرضاً

وعند سماعك الطلقات النارية انبطح على الأرض حتى لتتجنب مجال الضرب، وتحرك بالزحف على البطن، وابحث عن غطاء يحميك وتوجه صوبه، وعند تحركك مع القوات العسكرية لا تمكث بالقرب من رأس الطابور أو الصف فى التشكيل العسكرى، فالجنود المحترفون يحرصون على فعل ذلك، ولا تقف أو تسير إلى جانب جندى الإشارة أو جندى التموين بالذخيرة. لأنهما من الأهداف الرئيسية لنيران العدو، والزم جوار قائد التشكيل. لأنه بشكل عام يكون فى الموقع الأكثر أماناً وسوف تتعلم كثيراً منه على أية حال.

الفكرة الأساسية من القيام بالتغطية الإخبارية لعملية قتالية هى أن تحصل على أخبار وصور، وتبعث بها إلى الخلف، وليس أن تلعب دور الجندى، وعند تحركك على أرض العدو راقب جيداً قدمك، فالألغام والأسلام الشائكة والحفر على هيئة شراك خداعية، والشراك المفخخة فى كل مكان، وكلما أمكن تتبع خطى الجندى الذى يسير أمامك، فإذا هو لم يتعرض لانفجار، فأنت بالتالى لن تتعرض له، وإذا ما أجبرتك نيران قذائف المورتر، أو إحدى الغارات الجوية على عدم التحرك، فإن أفضل مكان تتوجه إليه هو الاختباء تحت الأراض داخل خندق أو نفق أو قبو من تلك الأقبية التى تتواجد فى أكواخ الفيتناميين.

استرعى انتباهى بدء دوران مراوح بعض الطائرات التى قفز داخلها الفيتناميون، ولم يمر وقت طويل حتى جاء دورى للقفز داخل طائرة يقودها الكاثوليكى «تشابلين» الذى يرتدى خوذة من الصلب نقش عليها صليب باللون الأبيض فى مقدمتها، وملابس عسكرية ذات لون كاكى، وعلى ياقته نقش بالقطن على هيئة صليب، وكان يحمل معه مسدساً، حادثنى قائلاً: «أنا لن أقدم على استعمال هذا المسدس

إلا إذا اضطررت إلى ذلك».

كنت أعلم أن المستشارين الأميركيين في فيتنام في غالب الأحيان لا يتعرضون للطلقات النارية من قبل قوات الفيتكونج، لأن هذه القوات على علم بالأوامر الصادرة إلى المستشارين الأميركيين بألا يستعملوا أسلحتهم إلا في حالة الرد على إطلاق النار.

أثارت مراوح الطائرة عند دورانها سحب الغبار من حولنا، وعلا صوت المحركات، واتخذت طريقها صوب «كامو» مركز المعارك في مقاطعة «اكساين» وهى عبارة عن قرية صغيرة محاطة بحوائط عالية من أكياس الرمل، وبأسلاك شائكة وأبراج مراقبة.

داخل مركز القيادة تبادلت التحية مع الكولرنيل «فام ڤان دونج» قائد فرقة الجيش الثالث الفيتنامى، الذى يعد واسطة اتصالنا الوحيدة بالقيادة العامة للجيش الفيتنامى. التى لا ترغب في التعامل مع الصحافة والصحفيين. وكان يستقبلنا في مكتبه مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، وحول فناجين الشاى الأخضر كان يزودنا ببعض الأخبار المتعلقة بمجريات الحرب وببعض الإحصائيات.

الباسيفيكية الكبرى

كانت العملية القتالية التى تم توجيه الدعوة لنا لحضورها تجرى منذ أسبوعين. وهى العملية التى تجرى تحت قيادة الكولونيل فام ڤان دونج، وحجم القوات الفيتنامية المشتركة فيها يقدر بأربعة آلاف جندى فيتنامى، وأطلق على هذه العملية اسم العملية الباسيفيكية الكبرى.

لكن الفرصة في مشاهدة قتال حقيقى كانت ضئيلة ونادرة أمامى وأمام آخرين من الصحفيين الذين قدموا لهذا الغرض. من بينهم «مايكل رينارد» البلجيكى الذى يعمل كمصور صحفى حر، وذو الطبيعة الساخرة والمشاكسة، وكان يرتدى زياً عسكرياً، ويتدلى من حذائه سكين، ومعه مجموعة أفلام فوتوغرافية، وقد ساعدته معرفته باللغة الفرنسية في التحدث مع الجنود الفيتناميين وتبادل الدعابات معهم.

كان «رينارد» يمتعنا بقصصه وبمغامراته الأخيرة التى اشتملت مرافقته لمجموعة من القوات الفيتنامية فى عملية قتالية ضد قوات الڤيتكونج فى قرية الطريق إليها يمتلئ بالأوحال والمستنقعات والأحراش. وبعد أن خاض الجنود الفيتناميون فى الوحل وهم يتقدمون صوب القرية، أطلقت عليهم النيران، ولم يكن أمامهم إلا توجيه نداء للقوات الجوية لكى تسهل عليهم مهمتهم، وذلك بشن غارة جوية على القرية.

فى تلك الأثناء شاهد «رينارد» فتاة صغيرة تصرخ بصورة هستيرية ويداها تضعهما فى أذنيها من شدة القصف، وهى تجرى صوب مكان مرتفع بعيداً عن الوحل صائحة «تشاتشا» وكانت الكلمة تعنى «بابا» وكان الأب قد اعتلى مرتفعاً من الأرض وهو يصوب بندقيته فى اتجاه الجنود بأحد ذراعيه، وبذراعه الأخرى يحيط كتفى ابنته يقول «رينارد» ، ولقد استطعت أن التقط بكاميرتى صوراً للمشهد كله، أعتقد أن الوكالة سوف تدفع لى الكثير حتى تحصل عليه.

و«وبيتر كاليسكر» مراسل شبكة تليفزيون «سى. بى. إس» الذى كان أيضاً فى «كامو» وبصحبته المصور التليفزيونى، طلب من الكولونيل «دونج» بنفاد صبر أن يدبر وسيلة نقل سريعة لنا للسفر إلى خطوط القتال الأمامية، وبالفعل عثر الكولونيل على طائرة هليكوبتر تحمل جنوداً فيتناميين إلى موقع معركة، لكى تحملنا معهم، واعتلينا ظهر الطائرة التى أقلعت متجهة صوب مهبط طائرات تغطية الأوحال التى خضنا فيها إلى عمق يصل إلى أعلى الركبة ونحن فى سيرنا على الأقدام مسافة ميل حتى نصل القرية، وكنا نتوقف كل مائة ياردة حتى نلتقط أنفاسنا من وعورة السير وسط الأوحال والمستنقعات وأشجار البامبو.

وعند وصولنا القرية، لم تكن هناك معارضة لدخول القوات إليها، وإنما كانت هناك رايات باللون الأحمر مكتوب عليها شعارات باللغة الفيتنامية تهاجم الحكومة والقوات المسلحة الأميركية، وتحمل دعاية شيوعية مثبته فوق الأكواخ. بالإضافة إلى صور لزعيم شيوعى بلحية طويلة اسمه «هو شى منه» معلقة على الحوائط داخل إطارات مزينة بأكاليل من الزهور، ولم يظهر فى القرية من السكان سوى رجل عجوز كان مختبئاً فى

حفرة، و قد سمح له أن يذهب حيث شاء فقد كانت القرية على صورتها تلك أشبه ما يكون برسم بيانى لتمرد الفيتكونج.

كانت العمليات المصاحبة لتلك العملية العسكرية تقضى بتدمير كل ما يجدوه فى طريقهم بالقرية، وبدأ الجنود ينفذون مهمتهم بحماس زائد، فأشعلوا النيران ودمروا القرية بكاملها وغادرنا القرية فى وقت متأخر بعد الظهر تاركين خلفنا الحرائق، وبدأنا البحث عن مكان مؤقت نعسكر فيه فترة الليل. وكان أن قرر قائد العملية القتالية أن نعسكر فى أرض جافة تقع إلى جانب النهر.

لم نكد نستقر فى المكان الذى اختير لنقضى فى ليلتنا دقائق معدودة حتى وجدت نفسى ولأول مرة فى حياتى تحت وابل من الطلقات النارية، فقد فتح أحد القناصة من الفيتكونج نيران سلاحه الآلى علينا، وكان رد مجموعتنا القتالية رداً يصم الأذان، فقد فتحوا نيران أسلحتهم على الاتجاه القادم منه الطلقات النارية، ولما استمر قناص الفيتكونج فى إطلاق نيران سلاحه تجاهنا، طلب قائد المجموعة القتالية مساعدة من طائرة مقاتلة حتى تلقنه درساً، ومن هنا بدأت الطائرة فى إطلاق قذائفها بالإضافة إلى قذائف النابالم التى غطت ضفة النهر لمدة ساعة متصلة، بعدها كان المكان قد تحول لونه إلى السواد من جراء الحريق والدخان، الأمر الذى جعلنى أتصور أن لا أحد يمكن أن ينجو من هذا القصف.

وفى الساعة الرابعة والنصف صباحاً وقبل بزوغ الفجر، استيقظت من نومى المرهق على الأرض الجرداء داخل غطاء من البلاستيك، على صوت قناص الفيتكونج نفسه وهو يفتح نيران سلاحه صوب معسكرنا، لكن الجنود الفيتناميين كان الإرهاق والتعب قد نال منهم فلم يأبهوا بالرد عليه ثانية.

وعند الفجر، لم يكن هناك أى أثر لمقاتلى الفيتكونج، فقط كانت هناك جيوش من النمل الأحمر بطول نصف بوصة، فوق الأشجار، وكانت مجموعات النمل تتساقط فوقنا تلدغ أعناقنا وصدورنا وتزحف داخل ملابسنا، وبسبب النمل تجمع الجنود فى صفوف حيث كان كل جندى يطلب من الآخر مساعدته فى تخليصه من هجمات النمل.

وعندما هبطت أمام معسكرنا بعد ظهر ذلك اليوم طائرة هليكوبتر تحمل أحجار بطاريات لجهاز الاتصال بالراديو الموجودة بحوزة أفراد العمليات القتالية، كان التعب والإرهاق قد نالا منى تماماً. لذلك أفصحت عن رغبتى فى أن تقلنى الطائرة بعيداً إلى حيث مكان الوكالة.

الدروس الأولى

تعلمت الكثير من أول مجابهة مباشرة لى لأحداث حرب فيتنام، واكتشفت بعدها أن كراسة «مالكولم» لا قيمة لها، كما وجدت أيضاً أن الجنود الفيتناميين والمستشارين الأميركيين سريعاً ما تربط بينهم أواصر الصداقة فى الميدان، بالإضافة إلى اكتشافى ألا شئ يغنى عن الانغماس فى الدراما الحقيقية فى ميدان المعركة. بالرغم من أن المعركة التى شاهدتها كانت فى نطاق ضيق.

أما أفضل درس قد تعلمته من هذه المعركة فهو أننى، ودون كل الجنود، يمكننى مغادرة العملية القتالية فى الوقت الذى أرغب فيه.

مليون دولار يومياً

عندما ذهبت إلى فيتنام فى عام ١٩٦٢، كانت أمريكا فى ذلك الوقت تنفق ما يزيد على مليون دولار يومياً، فى محاولة منها لكسب حربها هناك، وكان التفاؤل يسود الأميركيين الذين كانوا يحدثون أنفسهم بأنهم سيكسبون الحرب فى نهاية عام ١٩٦٤، لكن عندما تحدثت إلى بعض العسكريين المتخصصين فى الشؤون الاستراتيجية الذين كانوا فى «سايجون» فى ذلك الوقت، وجدتهم مقتنعين بأن الحرب المكلفة التى تخوضها أمريكا فى فيتنام قد تنقلب إلى حرب على نطاق أوسع بكثير مما هى عليه.

١٠ جنرالات

وفى نهاية عام ١٩٦٢ ، وصل إلى «سايجون» أكثر من عشر جنرالات أميركيين للقيام بمهام خاصة، ومن بعدهم جاء عدد آخر من الجنرالات العسكريين الأميركيين لوضع الخطط والسياسات للقوات الجوية الفيتنامية، وفى ذلك الوقت كان هناك جنرال عسكرى أميركى لكل ألف من المستشارين الأميركيين فى فيتنام.

كان إجماع القيادات العسكرية العليا فى فيتنام أنهم سيكسبون الحرب لا محالة، فقط قد تستمر وقتاً أطول، وكانت كل التقارير بشكل عام تتفق مع وجهة النظر تلك، ولم أستمع إلى صوت واحد يشكك فى أنه لا جدوى من الحرب، كذلك كان اعتقاد «مالكولم برون» أن أمريكا ستكسب الحرب، وكانت تحليلاته الإخبارية التى يبعث بها إلى وكالة الأسوشيتد برس تعكس وجهة نظره تلك، لكنه لم يكن يتصور أن الطريق إلى كسب الحرب سهلاً، وتنبأ بأنه سيطول أمد الحرب وستتصف بالشراسة والضراوة. إلا إذا تم تصحيح مسارها الذى تيسر عليه.

وبالرغم من أن المسؤولين السياسيين الأميركيين فى عام ١٩٦٢ كانوا قد اتفقوا على صحة قرار الدخول فى حرب فيتنام، إلا أننا فى تغطياتنا الإخبارية للحرب كان علينا أن نتفهم أن إدارة الرئيس الأميركى «كنيدى» بدأت الحرب فى فيتنام الجنوبية دون الإعلان عن ذلك، فى محاولة من الحكومة الأميركية لإخفاء التصعيد فى عدد القوات والمعدات التى تسافر إلى الحرب، وللتمويه على الأعباء الثقيلة المتزايدة التى كانت على أمريكا أن تحملها على عاتقها من أجل أن يكون أداؤها على الوجه الأكمل.

والشئ الذى أدهشنى أن تلك التحركات العسكرية للقوات والمعدات الحربية الأميركية التى تحاول الإدارة الأميركية حجب المعلومات عنها، قد تعاملت معها صحافة «سايجون» على أن ليس هناك أى سبب يدعوها إلى عدم الكشف عن تفاصيلها، وفى الحقيقة فإن «مالكولم» كان مصراً على أنه من واجبنا أن نكشف عن حقائق الموقف العسكرى الأميركى فى جنوب فيتنام، وكان فى اعتقاده أن وضع التحركات العسكرية الأميركية فى نطاق من السرية أمر لا جدوى منه، فإذا نحن كان فى إمكاننا أن نلحظ

وصول شحنات السلاح وانتشار القوات، فسوف يكون فى إمكان العدو أيضاً أن يلحظها ويعلم بها.

وكان النظام الفيتنامى الذى يتصف بالقمع السياسى مؤيداً للسياسة الأميركية الرسمية فى حجبها للمعلومات التى تتعلق بالقوات الأميركية وأسلحتها، وذلك لعدم ثقة النظام الفيتنامى فى نوايا الصحافة الأجنبية عند تناولها للأوضاع فى فيتنام، ومن ثم فإن كل التقارير المتاحة أمام الصحافة الأجنبية، والتى تتصل بمجريات الحرب وتطوراتها كان مصدرها الوحيد هو نظام «ديم» بالإضافة إلى ذلك فإن السلطات الفيتنامية التى اعترضت على تغطياتنا الإخبارية للصراع الثقافى بين جموح الجنود الأميريكيون وبين الطبيعة المحافظة للسكان المحلية التى كانت تتوقع منا أن نقدم صورة مشرقة لمكان يتصاعد فيه العداء للوجود الأميركى، وتتزايد فيه الاضطرابات الاجتماعية الناتجة عن ذلك التواجد.

ومنذ أول أسبوع له فى فيتنام، فى عام ١٩٦١، لاحظ «مالكولم برون» أن حجم التدخل الأميركى فى فيتنام أكبر مما كان يتوقع، وبمواصلة تحريه عن حقيقة ذلك التدخل اكتشف وجود طيارين أميركيين يقومون بمهمات قتالية ضد مواقع الفيتكونغ، وذلك باستخدام طائرات مقاتلة زودت بها فيتنام الجنوبية باعتبارها طائرات تدريب، وبعد ذلك رفض «مالكولم» أن يستجيب إلى مطالب السفارة الأميركية وحكومة «سايجون» فيما يتعلق بالتكتم على ما لديه من معلومات، وكان أن نقل «مالكولم» عناده ذاك إلىّ.

ووكالة «الأسوشيتد برس» لم تكن وحدها فى سايجون التى كانت تبعث بتقاريرها الإخبارية، التى تتناول بشئ من التفاصيل الدقيقة ومن الانتقاد، تطورات الحرب الدائرة فى فيتنام، فقد كان هناك الكاتب الصحفى «هومر بيغارث» الحاصل على جائزة بوليتزر فى زيارة عمل مدتها ستة أشهر، خلالها آثار شكوكاً كثيرة حول التدخل الأميركى فى فيتنام، وذلك فى تقاريره الكاشفة وتحليلاته التى ضمنها انتقادات حادة، التى تم نشرها فى صحيفة نيويورك تايمز، وكان لها صدى واسع باعتباره أهم المراسلين الصحفيين فى جيله الذى قضى فى ذلك المجال ما يقرب من ٣٠ عاماً.

وكان «هومر بيغارث» على وشك إنهاء رحلة عمله فى «سايجون» التى استغرقت ستة أشهر، وأنا فى بداية قدومى إلى العاصمة الفيتنامية، وفى الحفل الذى أقيم لوداعه التقيت لأول مرة مراسل صحيفة نيوزويك الفرنسى المرح «فرنسوا سالى» الذى عاش فى فيتنام سبعة عشر عاماً، وكان أكثر معرفة وإدراكاً من أى مراسل صحفى آخر بما يجرى من أحداث هناك، وقد أوضحت تقاريره وتحليلاته الإخبارية اعتقاده بأن التصعيد فى الالتزامات الأميركية فى فيتنام بدأ يعكس ما أصاب القوات الفرنسية من فشل منذ عقد مضى.

لم تستطع السلطات أن تفهم لماذا نحن كصحفيين لم نحتفل بمجريات الحرب الدائرة فى فيتنام، مثلما فعل الصحفيون فى تقاريرهم عن الحرب العالمية الثانية وعن الحرب فى كوريا. وقد نفد صبر السلطات أولاً مع «سالى»، فرفضوا تجديد إقامته فى فيتنام، بعد أن وجهت له تهمة معاداة النظام، وغادر فيتنام إلى «هونج كونج» فى ٩ سبتمبر، وقد قمنا بوداعه إلى المطار ونحن نتساءل: من سوف يكون التالى فى إجباره على الرحيل؟

الفصل الثالث

كل أمانى الإنتصار تبخرت

* كل أمانى الانتصار فى سايغون تبخرت فى "آب باك" رغم ضراوة القتال وكثرة الإمدادات.
* ٤ ملايين فيتنامى فى ٣ آلاف مستوطنة عسكرية لحمايتهم من الشيوعية.
* قوات الفيتكونغ تلقن الأميركيين والجنوبيين درساً فى معركة "آب باك".
* طيار أميركى يمد فترة تطوعه لإنهاء مذكراته بعد ما سماها "أيامى فى الجحيم".
* وكالة المخابرات الأميركية حثت الفيتناميين على مضايقة وطرد الصحفيين من البلاد.

كانت تهمة جيم روبنسون مراسل شبكة التليفزيون الأميركية «إن. بى. سى» التى من أجلها أجبر على الرحيل لكى يلحق «بسالى» هى ملاحظة عابرة ذكرها فى حضور بعض المسؤولين، وصف فيها الأحاديث التى تجرى مع الرئيس «ديم» ب مملة، وجاء طرد روبنسون من فيتنام فى ١ نوفمبر لكى نقتنع بأن السفارة الأميركية غير مكترثة بانتهاك حرية الصحافة وغير راغبة فى التحدث إلى الحكومة فى هذا الشأن، وظللنا نمارس عملنا، ونحن نستشعر احساساً متزايداً بالعزلة، وبأننا مقيدون بمجموعة من المحظورات التى تحد من حريتنا فى تغطيتنا للأخبار وفى الوصول إلى مصادرها.

سريعاً ما علمنا أن الحملة التى استهدفت تقييد حريتنا فى إجراء تغطيتنا للأخبار، كانت تجد العون والتحريض عليها من قبل أجهزة حكومية فى واشنطن، وكانت سفارة الولايات المتحدة فى فيتنام تذعن لمطالب رؤسائها، والشئ الذى أكد لنا ذلك، هو وصول مذكرة من مكتب وكالة الأسوشيتدبرس فى واشنطن فى ١٩ سبتمبر يبلغنا من خلالها الانتقادات الشديدة للخارجية الأميركية والبنتاغون والسفارة الفيتنامية ضد ما صدر عن الصحف الغربية من تقارير إخبارية للحرب فى فيتنام، لكن إدارة الأسوشيتدبرس أكدت لنا أنها لا تقبل بما جاء فى المذكرة، وعلمنا بعد ذلك أن كاتب المذكرة كان قد تم إبلاغه بأن نائب وزير الخارجية الأميركى «افيريل هاريمان» كان قد عبر عن عدم قبوله للتغطيات الإخبارية فى صحيفة نينويورك تايمز، وأيضاً لدى وكالتى الأنباء «الأسوشيتدبرس» و«اليونيتيدبرس».

فى نهاية عام ١٩٦٢، أصبح الجهد الاجتماعى الذى كان يقوم به العسكريون الأميركيون فى فيتنام من أهم الجهود التى بذلت لإضعاف سيطرة الشيوعيين على المناطق القروية، وذلك بإغلاق المستوطنات التى تضم السكان الفيتناميين أمام أفراد قوات الفيتكونغ، وقد سبق لمثل هذه الإجراءات أن صادفت نجاحاً ضد المتمردين الشيوعيين فى ماليزيا فى الخمسينيات.

إنشاء المستوطنات

وقد تم إنفاق ملايين الدولارات من أموال المساعدات الأميركية في إنشاء المستوطنات الاستراتيجية في فيتنام، وفي خريف عام ١٩٦٢ كانت قد أنشئت ثلاثة آلاف مستوطنة، تؤوى أربعة ملايين من الفيتناميين، أكثر من ربعهم يعيشون في مناطق داخل مستوطنات تقع خلف خنادق مائية عميقة الغور، أو خلف سدود ومتاريس من الأتربة وأعمال الخرسانة، أو شراك ومصائد من أجل صد الغرباء، كذلك كانت تغلق بوابات هذه المستوطنات ابتداء من غروب الشمس وحتى طلوع الفجر، وهو الوقت الذى تكون فيه الفيتكونغ فى قمة نشاطها وفاعليتها.

ومنذ أن بدأ العسكريون الأميركيون فى مارس ١٩٦٢ مشروع بناء مستوطنات تحت اسم «مشروع شروق الشمس» فى المنطقة التى كانت تسمى أيام الحرب الفرنسية، منطقة الحرب «دى» القريبة من الحدود الكمبودية ومن ممر «هوشى منه» ذلك الممر الذى كانت تأتى منه الإمدادات للشيوعيين، أصبحت تلك المنطقة مقصد زيارات أعضاء الكونغرس الأميركيين والصحفيين، حتى يمكن البرهنة على أن أموال المساعدات الأميركية قد تم إنفاقها بحكمة وفى موقعها الصحيح.

وعند زيارتى إلى منطقة «مشروع شروق الشمس» برفقة مسؤول من وزارة الإعلام الفيتنامية وجدت أن أربع مستوطنات فقط قد تم إنشاؤها من ١٤ مستوطنة كان من المقرر إقامتها، وذلك لأن العسكريين الأميركيين وجدوا صعوبة فى جمع أعداد كافية من الفيتناميين للعيش فيها، وكان ما يقرب من ثلاثة آلاف فلاح وعائلاتهم قد تم إحضارهم على غير رغبة منهم من قراهم لكى يسكنوا المستوطنات، أيضاً فإن الغالب على هؤلاء الذين سكنوا المستوطنات كانوا من النساء، وذلك لأن الغائبين من الرجال من المفترض أنهم أفراد من قوات الفيتكونغ، ولم يقتنع أحد منهم بترك القتال والعودة إلى عائلاتهم التى انتقلت إلى المستوطنات.

كان فى اعتقاد مسؤول الإعلام الفيتنامى الذى رافقنى فى زيارتى أن ذلك المشروع الذى مولته أميركا، والذى وفر السكن المجانى والعناية الصحية والطعام لساكنى

المستوطنات قد نجح في إقناع الفيتناميين أن يظلوا تحت رعاية الحكومة. لكن بعد حديثي مع مسؤول الإعلام الفيتنامي أطلعني أحد المستشارين الأميركيين على خطاب كانت قد بعثت به امرأة فلبينية تعمل في حقول الأرز إلى زوجها الذي انضم إلى قوات الفيتكونغ تقول فيه: «لا تقلق عليّ يا عزيزي، فهم يعتنون بنا جداً. وعليك أن تجتهد في عملك».

مستوطنات الشروق

بعد عودتنا من هذه الجولة قمت بكتابة تقرير إخباري حول عملية مستوطنات شروق الشمس. التي أصبحت في اعتقادي غير ذات جدوى من حيث إن كل مستوطنة كانت تتطلب مجموعة من أفراد الجيش الفيتنامي لحماية الأمن فيها، لأن السلطات كانت تخشى إذا هي قامت بتسليح سكان المستوطنة للدفاع عن أنفسهم، فربما يستخدمون تلك الأسلحة ضدها، وضمنت تقريري الإخباري ما يفيد أن المستوطنات أصبحت في الحقيقة ليس أكثر من معسكرات اعتقال مكلفة، لكن تقريري الإخباري الذي بعثت به إلى مكتب الوكالة الرئيسي في واشنطن، لم يلق قبولاً، ربما لأنهم وجدوا فيه مجرد كتابة أخرى مولعة بالانتقادات مثلها مثل الكتابات الصحفية الأخرى.

لكن محاولات الحكومة الفيتنامية لفرض قيود على الأخبار المتدفقة على فيتنام من مصادرها الأساسية، كان مقدراً لها الفشل، لأن الأميركيين الموجودين في ميدان القتال في فيتنام لم ينظروا إلى الصحافة باعتبارها طابوراً خامساً، كما أن الجنود الأميركيين الذين التقيت بهم في الشهور الأولى كانوا شديدي الحماس والثقة بالنفس،ولم يروا أن هناك سبباً كافياً يجعلهم يخفون ما يفعلون.

ولم تدهشني آراء وأفكار هؤلاء الجنود الأميركيين، وهي الآراء والأفكار التي كنت أتوقعها منهم، فلقد شهدت سنوات طفولتي دراما الحرب العالمية الثانية، التي لعبت فيها الولايات المتحدة دوراً مهماً، وكنت في تلك السنوات أشارك الأميركيين أحلامهم في عالم أكثر أمناً للناس جميعاً، ولقد ساعدتني تلك المشاعر المبكرة التي اختزلتها ذاكرتي على التعامل مع الجنود الأميركيين في سهولة ويسر، وعلى اكتساب ثقتهم بالرغم من أنني

أنتمي إلى دولة أخرى «نيوزيلندا» ، وبالرغم من كل النزاعات مع سايغون وواشنطن التي تعرض لها الصحفيون على مدى السنوات في فيتنام، فإنه نادراً ما حدث شجار بيننا وبين الجنود والضباط الأميركيين الذين يخدمون في ميدان القتال، سواء في بدايات الحرب الفيتنامية أو في نهايتها.

مشاعر التفاؤل

كانت السنوات المبكرة بالنسبة لأفراد القوات الأميركية في فيتنام حافلة بمشاعر المغامرة والتفاؤل، وبحماس الجيش الذي انتقل إلينا، وتخلل تقاريرنا الإخبارية، التي كنا نكتبها بناء على مصاحبتنا لهم في عمليات القتال، ومشاركتنا لهم أحداث وخبرات الحرب، وكان أكثر من نال إعجابنا وتقديرنا هم أفراد طاقم الطائرات المحورية التي كانت طريقتهم الهجومية في القتال، والتي تعتمد على سرعة الانقضاض على مواقع العدو وسرعة الابتعاد عن ميدان القتال بعد انتهاء العملية الهجومية من أكثر الطرق تحقيقاً للكسب، وبأقل قدر من الخسائر.

ولقد أحببت صحبة طاقم الطائرة المحورية، فكنت أجلس وأربط حزام المقعد والريح تطير خصلات شعرى، وأنا أراقب أفراد الطاقم وهم ينحنون بأجسادهم باتجاه الجانبين المفتوحين للطائرة وعيونهم إلى أسفل ترقب ما يجرى على الأرض الذين كانوا يصوبون إليها نيران بنادقهم، وقد أخبرني «ديركسون» قائلاً: «وأنت تراهم وهم يصوبون إليك نيران بنادقهم ، ستشعر بآلام تعتصر بطنك، وأحياناً تكون الطلقات النارية قريبة منك جداً، لدرجة أنه يمكنك أن تشعر بسخونتها وحرارتها، وإنه لشئ بداخلك يجعلك تفرغ نيران أسلحتك في الاتجاه المضاد.

كان ديكرسون أحد الذين رغبوا في في التطوع لخوض الحرب جندياً في فيتنام، وقد طلب أن تمد فترة تطوعه لفترة تالية لكي ينهي ما أسماه «أيام في الجحيم» قبل أن يعود إلى الوطن، ويبدأ مرحلة جديدة في حياته، لكنه تعرض للإصابة وعاد إلى الوطن مبكراً عما كان يتوقع.

ولأن الطائرات المحورية اتخذت من سايغون قاعدة لها، فقد أتاح ذلك لأفراد أطقم الطائرات أن يزوروا المدينة. كما أتاح لنا أن نوطد علاقاتنا مع الضباط والجنود عبر موائد الطعام، وفى أماكن تناول الشراب، الأمر الذى سبب قلقاً شديداً لضابط استخبارات الجيش الفيتنامى، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً إزاء ذلك التقارب بين العسكريين ورجال الصحافة. الذى سهل لنا كثيراً الوصول إلى مناطق النزاع والقتال، كما كان هؤلاء العسكريون دليلاً يعتد به فى الحصول على معلومات عن مصادر المقاتلين.

كذلك كانت القوات الأميركية الخاصة من ذوى الباريهات الخضراء خير معين لنا فى استقاء أخبار القتال، قد أتيحت لى فرصة لقضاء عدة أيام فى رفقة الكتيبة (إيه ١١٣) التى كانت واحدة من أوائل وحدات القوات الأميركية الخاصة التى وفدت إلى منطقة القتال، واستقرت فى «بان مى توت» الواقعة فى وسط السهول المرتفعة، وبدأت أعمالها القتالية ذات الطبيعة الخاصة والسرية، تحت إشراف وكالة الاستخبارات الأميركية «سى. آى. إيه» وكانت مستقلة بشكل عام لا تتبع أى سلطات عسكرية أو مدنية أخرى فى المناطق التى تقوم فيها بعمليات قتالية.

الكتيبة إيه - ١٣٣

وصلت كتيبة «إيه - ١١٣» التى تضم أفراد القوات الأميركية الخاصة إلى منطقة «بان مى توت» على متن طائرة نقل جنود مجهولة هويتها يقودها طيارون من تايوان، وذلك بهدف تدريب أفراد قبيلة «راد» أكبر القبائل التى تسكن الجبل وأكثرهم ذكاء، وعندما كشف النقاب عن مهمة الكتيبة، تم توجيه الدعوة إلىّ لكى أكون شاهد عيان على نجاح البرنامج التدريبى.

وبالإضافة إلى قيام أفراد الكتيبة الثمانية بتدريب ثمانين فرداً من أفراد قبيلة «راد» على أعمال القتال، فقد أشرفوا على بناء تحصينات من أعواد الخيرزان وغرف حصينة تحت الأرض، فى كل موقع كانوا يقوموا فيه بالتدريب، أيضاً قام أفراد الكتيبة بتزويد المتدربين بالبنادق الآلية، بدلاً من الرماح وآلات حربية قديمة كانوا يستخدمونها فى القتال.

وقد رافقنى قائد الكتيبة الكابتن «رون شاكلتون» فى لقاءاتى بالسكان المحليين وبكبار السن من رجال القبائل ذوى اللحى الطويلة، الذين يدخنون السجائر المعبأة داخل أعواد الخيرزان المجوفة، وبشباب الميليشيات المبتسمين فى زهو وهم ممسكون بأسلحتهم الجديدة، وبنساء القرية فى ثيابهن التقليدية ذات اللونين الأسود والأحمر والتى علاها التراب، وهن يضحكن فى خجل. لكننى لم ألتق برجل وكالة الاستخبارات الأميركية الذى يشرف على عمل الكتيبة، والذى كان يمكث بعيداً عن الأنظار داخل الأكواخ.

وقد اختارت وكالة الاستخبارات الأميركية «سى. آى. إيه» قبيلة «راد» فى مشروعها العسكرى التجريبى لمقاومة التمرد والعصيان، ليس لأنهم يستقرون فى موقع استراتيجى فى سهل «أناميس» الجبلى المرتفع الذى يقع على حدود «لاوس» و«كمبوديا»، إنما وبشكل خاص لأن أفراد قبيلة «راد» قد تم إهمالهم وتجاهلهم منذ وقت طويل، وكان الفيتناميون يعاملونهم معاملة سيئة.

كان رد فعل أفراد قبيلة «راد» والقبائل الأخرى التى تقطن السهول الجبلية والتلال، هو قدر كبير من الكراهية والعداء لكل الفيتناميين مهما كانت معتقداتهم أو مذاهبهم السياسية، وكانت تلك الخصومة والعداوة التى يكنها أفراد قبيلة «راد» وغيرها للفيتناميين تعبر عن نفسها بكل وسيلة، وقد استغل الأميركيون تلك المشاعر وأطلقوا لها العنان.

وشاهدت فريق العمل الذى يرأسه الكابتن شاكلتون خلال تنفيذ مهامه، فرأيت الطبيب سيرجنت «مانفريد باير» وهو يقوم بتوزيع أدوية طبية بسيطة وفعالة لأفراد القبيلة الذين لم يسبق لهم أن حصلوا على علاج طبى، كذلك شاهدت «ال كلارك» و«جون لندوالد» وهما يقومات بصبر شديد على تدريب أفراد القبيلة على استعمال الأسلحة الآلية ، وكانا يجدان صعوبة شديدة فى عملهم التدريبى، بسبب تصلب أصابع المتدربين لاعتيادهم جذب أوتار الحراب والسهام، واستعمال آلات الحرب البدائية الأخرى، وكان أيضاً ضمن فريق العمل أميركيان يجيدان اللغة الفيتنامية، وثالث يجيد اللغة الفرنسية، وذلك للتغلب على الصعوبات التى كانت تنشأ نتيجة لاختلاف لغة التخاطب.

وعند عودتى إلى سايغون قمت بكتابة قصة خبرية مطولة حول ذلك البرنامج التدريبى مستشهداً بأقوال المسؤولين العسكريين الأميركيين التى تؤكد أن برنامج ذوى الباريهات الخضراء من أهم الأعمال التى قام بها الأميركيون من أجل القضاء على حركة الفيتكونغ واجتثاثها من جذورها. كما قمت أيضاً بكتابة قصة خبرية حول أوائل من قدموا فى العام السابق إلى منطقة السهول الجبلية من رجال وكالة الاستخبارات الأميركية، الذين قدموا أنفسهم على أنهم خبراء فى علوم الحيوان، وراحوا يتجولون فى «بان مى توت» وفى حوزتهم شباك لصيد الفراشات البرية، وقد حصلت على بعض هذه المعلومات من كابتن «شاكلتون» وأعضاء فريقه، الأمر الذى جعلنى فيما بعد أحدث نفسى ما إذا كانوا قد زودونى بمعلومات خاطئة لكى يحرجوا ضابط وكالة الاستخبارات الأميركية الذى يشرف على البرنامج التدريبى.

الباريهات الخضراء

كانت كتيبة ذوى الباريهات الخضراء مصدر زهو لإدارة الرئيس الأميركى «كنيدى» الذى قام بدعمها بالمال لقيامها بعمليات قتالية باستخدام الطائرات المحورية فى الإنزال بالمظلات، وببعض العمليات العسكرية الأخرى غير التقليدية، كما كانت أيضاً تلك الكتيبة مصدر استياء من ضباط الجيش الأميركى الذين كانوا يجبرون على اتباع طرائق وأساليب تقليدية فى حياتهم العسكرية. فى حين أن القوات الأميركية الخاصة يتمتعون بمزايا خاصة ومعاملة أفضل، الأمر الذى جعل ضباط الجيش الأميركى يصفون القوات الأميركية الخاصة بأنها السلاح الخاص لزوجة الرئيس الأميركى «جاكلين كينيدى».

وفى نهاية الصيف زار سايغون «دافيد هالبرستام» مراسل صحيفة نيويورك تايمز الذى عمل معه هورست فاس فى الكونغو، والذى وصفه بالكرم وبروحه المرحة التى تكسبه صداقة كل من حوله، وبأنه صاحب خبرة كبيرة فى المجال الصحفى، واستخدم دافيد هالبرستام مكتب الأسوشيتد برس فى سايغون كما لو كان مكتبه، ورافقنا فى رحلات صحفية إلى الريف الفيتنامى زرنا فيها «نها ترانج» و«دانانج» و«دلتا الميكونج»

وكانت تقاريره تتميز بشدة الملاحظة، والإدراك العميق لما يجرى من أحداث.

وجاء وصول «هالبرستام» إلى سايغون في وقت صعب، وبشكل خاص بالنسبة للصحفيين والمراسلين الموجودين بالعاصمة الفيتنامية، وقبل قليل من الأحداث التى وقعت فى «آب باك» ذلك المكان العادى الذى يقع بالقرب من مستنقعات وحقول أرز «دلتا الميكونج» جنوب العاصمة سايغون، وكان لوقوع هذه الأحداث أثرها فى العراقيل التى وضعت أمام عملنا الصحفي.

ولأن «آب باك» التى تتكون من مجموعة بيوت أسقفها من القش، ومساحات مزروعة بأشجار الموز، وحظائر للخنازير، كانت شديدة الشبه بالمناطق التى يقطنها الفيتكونغ، فقد تعرضت بصفة منتظمة للضرب بالقنابل وللقصف العشوائى بالمدفعية من قبل قوات الحكومة الفيتنامية، لأنها كانت تقع خارج نطاق المناطق المسماة بالمناطق الآمنة.

عملية آب باك

وفى صباح الثالث من يناير عام ١٩٦٣، قامت قوات من المشاة ومن القوات الجوية التابعة لحكومة فيتنام الجنوبية بشن عملية عسكرية هكومية ضد «آب باك» كان هدفها الاستيلاء على محطة الراديو التى فى حوزة قوات الفيتكونغ المتمركزة فى منطقة قريبة، وقد سمعنا عن ذلك الهجوم فى ظهر ذلك اليوم عندما أخبرتنا مصادرنا داخل مجموعة الطيارين الأميركيين الذى يتخذون من «تان سون نهات» قاعدة لهم، أن ثمانى طائرات مروحية قد تعرضت للإصابة و أربعة أفراد على الأقل من طاقهما قد أصيبوا بجراح.

وبعد ظهر ذلك اليوم كتب «مالكولم برون» تقريراً أشار فيه إلى أن عملية «آب باك» التى لم يتحقق فيها الفوز مثال على التكاليف الباهظة التى يتحملها الأميركيون بمساندتهم لفيتنام الجنوبية، كما أسرعت أنا و «هالبرستام» بالتوجه إلى المطار للتحدث مع قائدى الطائرات المروحية العائدين من «آب باك» وهناك علمنا أن ١٤ طائرة مروحية من بين ١٥ طائرة اشتركت فى القتال قد تعرضت لإصابة بالغة من جراء إطلاق النيران عليها من الأرض. كما لقى ثلاثة من الأميركيون حتفهم، اثنان منهم كانوا ضمن طاقم الطائرة

المروحية، والثالث ضابط من الضباط المستشارين الأميركيين الذين كانوا يلقون بتعليماتهم لقوات المشاة الفيتنامية، كما قدرت الخسائر فى أرواح القوات الفيتنامية بما يقرب من مائة قتيل وجريح.

أما الأبعاد الكاملة لكارثة «آب باك» فقد ظهرت لنا بوضوح فى اليوم التالى، عندما نجحنا بعد إلحاح فى إقناع «ستيف ستيبنز» بصحيفة «ستارز آند سترايبس» بأن يصحبنا معه إلى موقع المعركة، خاصة وأن منافسينا «نيل شيهان» بوكالة «يونيتد برس» قد سبقانا إلى مكان القتال، وقد قمنا بإقناع «ستيف بارتداء زى البحرية الأميركية. لأن السلطات الفيتنامية كانت قد قررت منع الصحفيين من التوجه إلى المنطقة الشمالية من «دلتا الميكونج» ثم توجهنا جنوبًا عبر «تشولون» وكان الطريق مزدحمًا بالسيارات والحافلات بسبب نقاط التفتيش الموجودة عند مداخل الكبارى والقرى.

وبعد أن تركنا وراءنا «تان آن» العاصمة الإقليمية استدرنا يمينًا، وقطعنا مسافة ميل تقريبًا فى طريق وعر يؤدى إلى قرية «تان هيب»، وهناك عثرنا على موقع المعركة فى حالة اضطراب وارتباك شديدين، بسبب تزاحم عربات عسكرية وناقلات وطائرات مروحية، وجنود فى انتظار الأوامر التى تذهب بهم بعيدًا، وهناك قام الكولونيل «دانييل بون بورتر» أحد المستشارين العسكريين الأميركيين بتزويدنا بمعلومات عن خسائر العملية القتالية، وقد جاء فى حديثه لنا كيف أنه ولأول مرة تصمد قوات الفيتكونغ فى أرض المعركة، وترد بالمثل على النيران المصوبة إليها، على عكس ما كانت عليه طريقتهم التى تعتمد على هجمات مباغتة يعقبها فرار سريع إلى قرى الريف الفيتنامى.

لقد استطاعت الكتيبة رقم ٥١٤ التابعة لقوات الفيتكونغ بعدد أفرادها القلائل، وبقدرتها العالية على القتال أن تقدم النموذج لوحدة قتالية قادرة على المواجهة والتصدى، من النوع الذى كان يأمل المستشارون العسكريون الأميركيون فى وجوده ضمن القوات الفيتنامية.

وعندما أقلتنا أنا ودافيد طائرة هليكوبتر استطعنا أن نشاهد جثث القتلى فى الأراضى الموحلة وفى حقول الأرز، كما شاهدنا آثار العربات العسكرية من نوع حاملات

الجنود التابعة للقوات الفيتنامية، التى كانت تتوجه إلى المستوطنات لكى تنقل تعزيزات من سكان المستوطنات للمشاركة فى القتال. الذى انتهى بمغادرة قوات الفيتكونغ ساحة المعركة تاركين خلفهم ٦٥ من جنود الحكومة الفيتنامية وقد لقوا حتفهم، بالإضافة إلى الإصابات البالغة فى الطائرات المروحية الأربع عشرة التى خلفت احساساً بالهزيمة عند المستشارين العسكريين الأميركيين.

وعند هبوط الطائرة بمهبط الطائرات فى «تان هيب» لاحظنا حرس الشرف من أفراد القوات الفيتنامية، وهو يصطف لتحية بعض القادة الكبار بمن فيهم الجنرال «هاركنز» وقد وجهنا سؤالاً إلى الجنرال حول حقيقة ما حدث على أرض المعركة فأجابنا بثقة ودون تردد قائلاً : «لقد أوقعنا بهم وفى خلال نصف ساعة سنقضى عليهم» . لكنه ذهب بعيداً دون أن يمكننا من متابعة أسئلتنا.

وسعينا فى طلب التحدث إلى «ليوتينانت كولونيل - جون بول فان» أحد كبار المستشارين العسكريين الأميركيين، وعندما التقينا به انتحى بنا جانباً ليؤكد لنا عدم صحة تقديرات جنرال «هاركنز» ويشن هجوماً عنيفاً على الأداء القتالى للجنود الفيتناميين ذاكراً أنه من العار أن تحدث هذه الكارثة بعد المجهودات الكبيرة التى بذلتها الولايات المتحدة فى إعداد وتجهيز قوات الحكومة الفيتنامية. بالإضافة إلى إيفاد المستشارين العسكريين إليها.

وفى وقت لاحق تحدث «شيهان» فى شئ من الغضب عن تعرض طائرته المروحية لنيران المدفعية الفيتنامية الحليفة عند توجهه إلى أرض المعركة، موضحاً أن الفيتناميين كانوا قد فقدوا ا لأمل فى أن يتمكن «فان» من جمع فريق المستشارين البالغ عددهم ٦٠ شخصاً بمن فيهم الطباخون والمحاسبون والدفع به للنيل من قوات الفيتكونغ التى سارعت بمغادرة ساحة القتال.

وكانت تغطيتى لما جرى من أحداث فى «آب باك» من أكبر القصص الإخبارية التى كتبتها طوال ستة أشهر قضيتها فى فيتنام، وقد تعرضت فى تلك القصة الإخبارية للضعف الفاضح فى خطوط العسكريين الأميركيين للوصول بقوات الحكومة الفيتنامية الحليفة إلى مستوى عالٍ من القدرة والكفاءة القتالية، كما أشرت أيضاً فى تقريرى

الإخبارى إلى مهارة الفيتكونغ فى تشكيل مجموعات قتالية قادرة على تنفيذ مهام محددة.

وقد توصل معظم الصحفيون المقيمين فى «سايغون» فيما يتصل بمعركة «آب باك» إلى قناعة مفادها أنه إما أن السلطات الفيتنامية كانت غير مدركة لأبعاد حركة التمرد والعصيان، أو أن تلك الأبعاد كانت خافية عنا، وتسببت قناعاتنا هذه فى توسيع الفجوة بيننا كصحفيين وبين السلطات الفيتنامية.

الفصل الرابع

تفجر الصراعات الدينية

* الصراعات الدينية تفجر فيتنام من الداخل والأميركيون يعالجون الأزمة بتغيير سفيرهم.
* المحاولة الأميركية لتجميل صورة الرئيس ديم باءت بالفشل علي يد الإعلاميين.
* تعرضت للضرب من الشرطة فبعث الصحفيون برسالة احتجاج لكنيدى.
* التظاهرات البوذية تصيب فيتنام بالشلل وعمليات الانتحار أصبحت ظاهرة خطيرة.
* التقارير الإعلامية وضعت سايغون في دائرة الاهتمام العالمي بعد ما فضحت التورط الأميركي.
* راهب بوذي يشعل النيران في نفسه متعمدًا فتتوالي عمليات الانتحار في أديرة البوذيين.
* السفير الأميركى الجديد يتأخر في الوصول إلي سايغون فيقرر شقيق الرئيس الانتقام من البوذيين
* واشنطن تجاهلت الاضطهاد الديني حتي غرقت في بحر المشاكل العرقية الفيتنامية.

أثارت معركة «آب باك» بعض الآراء حيث رأى البعض أهمية أن يتولى الضباط الأميركيون قيادة القوات الفيتنامية إذا ما أريد لجنوب فيتنام أن تحقق النصر على الفيتكونغ، وفي ذلك الوقت كنا نحن كصحفيين نقوم بكشف رغبات واشنطن في إخفاء مساندتها العسكرية المتزايدة لحكومة فيتنام الجنوبية، وفي التعتيم على دورها المتنامي هناك الذى تطلب أن يقوم الجنود الأميركيون باستخدام أسلحتهم، بعد أن كان الدور الأميركي يقتصر على التدريب والتزويد بالسلاح وتقديم المشورة فقط، لقد كانت كل من واشنطون والسلطات الفيتنامية تريدان خوض القتال في فيتنام في سرية، لكننا كصحفيين في «سايغون» لم نمكنهم من ذلك، كذلك تسببت تصريحات «جون بول فان» للصحفيين في توجيه تأنيب قاس له من قبل واشنطن ، وانتهى به الأمر إلى تقديم استقالته من الخدمة العسكرية.

الغضب من الصحافة

كان المسؤولون الأميركيون في شدة الغضب من رجال الصحافة في «سايغون» الذين انتقدوا سياسات نظام «نجوم دينه ديم» وفي حديث للسفير الأميركي «فريدريك نولتنج» في منتصف شهر فبراير قام بتوجيه لوم عنيف للصحفيين، وطلب وضع حد لانتقاداتهم، وللكتابات التي تنشر الشائعات والمزاعم التي تروجها مصادر شيوعية.

أما حكومة «سايغون» فقد كانت تشك في نشاطاتنا، وتعتقد أن المسؤولين الأميركيين يزودوننا بمعلومات أكثر مما نستحق. في الوقت الذى كانت فيه علاقاتنا مع سفارة الولايات المتحدة على غير ما يرام، وكنا نحصل على معلومات أكثر صدقا من مصادر ليست في العاصمة، وإنما في الأقاليم التي كانت تدور فيها الحرب.

سوء تفاهم

فى ذلك الوضع المتقد الذى يتسم بسوء التفاهم المربك بيننا وبين حكومة «سايغون» والمسؤولين الأميركيين، والذى ساعد على تقارب مجموعة الصحفيين المقيمين فى فيتنام.

كنت أحرز تقدماً فى عملى الصحفى، وقد أخبرنى «دون هوث» أو «ويس غالافر» قد أقر توصية بتعيينى ضمن موظفى وكالة الأسوشيتدبرس المعتمدين فى واشنطن، ومنحى بدل سكن وإجازة مدتها شهر فى كل عام، وبذلك أصبحت المهندس الأول فى سفينة الوكالة فى «سايغون» التى يقودها الربان «مالكوم برون» وكنت أجد متعة كبيرة فى العمل إلى جانب «مالكولم» والمصور «هورست فاس» وأيضاً «دافيد هالبر ستام» قبل أن يغادرنا.

العلاقات العاطفية

وسط أحداث العمل التى كانت تستغرقنا جميعاً لم ننس الجانب العاطفى فى حياتنا، فقد بدأ «مالكولم» علاقة عاطفية مع امرأة فيتنامية جميلة تعمل فى مكتب الإعلام الفيتنامى، ثم عقد قرانه عليها. أما «ديفيد هالبر ستام» وصديقه «نيل شيهات» بوكالة «يونيتدبرس» فقد ارتبطا بعلاقات غرامية قصيرة الأجل مع نساء فيتناميات، و«هورست» لحقت به فى «سايغون» خطيبته الألمانية «أورسولا» أما أنا فقد التقيت «نينا نجوين» الفتاة الفيتنامية الجميلة فى حفل غداء أقامه «فرانسوا سالى» وكانت «نينا» قد عادت مؤخراً من الولايات المتحدة بعد دراسة تخحص المكتبات الطبية من جامعة «نورث كارولينا» وقد سرنى أن عائلتها كانت قد هجرت الشيوعيين فى الشمال فى عام ١٩٥٤ إلى الجنوب ووالدها كان يعمل مديراً إدارياً بمجلس الأمة فى فيتنام الجنوبية.

فى شتاء عام ١٩٦٣ غطت حالة الطوارئ غير المتوقعة التى فرضتها حكومة فيتنام على أخبار الحرب، وكان من نتيجة ذلك أن دخل الصحفيون فى «سايغون» فى نزاع جديد مع حكومتى فيتنام فى بؤرة الاهتمام العالمى، والى تزايد التورط الأميركى فى فيتنام،

الأمر الذى أثار موجة من الجدل لم تهدأ، واستمرت لمدة ثلاثين عاماً بعد ذلك.

بدأت الأزمة فى مدينة «هو» العاصمة السابقة لإقليم «أنام» التى تقع على «نهر العطر» في وسط فيتنام، والتى سبق لى زيارتها عدة مرات لكى أستمتع بجمال المدينة التاريخية القديمة المحاطة بأسوار سميكة عالية وبخندق مائى، والتى أنشأها بناء على طلب الإمبراطور مهندس فرنسى قام بتصميمها على نمط مطابق ومصغر «للمدينة المحرمة» فى بكين، وكان أكثر ما جذبنى إلى المدينة «نهر العطر» الذى يخترقها، فكان أشبه بمدينة عائمة تحفل بالزوارق ذات المجاديف التى تبيع الطعام والشراب والأجواء الرومانسية، وبالفنادق العائمة.

كانت مدينة «هو» أيضاً موطن عائلة الرئيس «ديم» الكاثوليكى وشقيقه «نجو دينه كان» الذى يفرض سيطرته عليها بيد من حديد، وشقيقه الثانى القس «نجو دينه نوك» وقد بدأ الشقاق والخلاف يكبر بين الكاثوليك والبوذيين والكونفوشيوسيين الذين يمثلون نسبة ٨٠٪ من نسبة سكان المدينة، وذلك عندما بدأ المهاجرون الكاثوليك فى الانتقال إلى الجنوب فى منتصف الخمسينيات بعد أن خسرت القوات الفرنسية الحرب أمام «هوشى منه» وتمكنهم من الحصول على فرص تعليمية أكبر، ومراكز قيادية فى الجيش، وعلى قطع من الأرض تمنحها لهم الحكومة التى يرأسها كاثوليكى مثلهم.

أما المسؤولون الأميركيون الذين كانوا يزودون نظام «ديم» بالسلاح لكى يحاربوا به الشيوعيين، فلم يهتموا كثيراً بالوضع الدينى الداخلى، ومن ثم كانوا ينتظرون من كل المواطنين تأييدهم الكامل لذلك النضال ضد الشيوعيين، وبالمثل فلم نهتم كرجال صحافة فى «سايغون» بما يدور على الساحة الدينية، لكننا سريعاً علمنا أن الديانة البوذية كانت شديدة الانغماس فى الأوضاع السياسية الفيتنامية، وأن زعماءها يحملون كراهية لنظام «ديم» وينتظرون فرصة للتخلص منه.

فى ٨ مايو موعد الاحتفال السنوى بيوم ميلا «بوذا» فى معبد «تودام» أصدرت الحكومة أوامرها بمنع البوذيين من رفع أعلامهم وراياتهم التقليدية ذات الألوان الخمسة، فى الوقت نفسه الذى يسمح فيه للرومان الكاثوليك برفع الرايات والأعلام، مما أشعل

غضب الرهبان البوذيين الذين تحدثوا إلى الجموع الغفيرة منتقدين نظام «ديم» وقادوا مسيرة كبيرة اتجهت صوب محطة إذاعة مدينة «هو» لكى يذيعوا بيانًا يتضمن شكواهم واحتجاجهم، لكن ضابط أمن محطة الإذاعة ميجور «دانج ساى» أصدر أوامره إلى جنوده بتفريق المتظاهرين، فقاموا بإلقاء قنبلتين يدويتين عليهم ومطاردتهم بالعربات الحربية، وكانت نتيجة تلك المعركة مصرع أحد عشر شخصًا وإصابة العشرات بجروح.

كان أول تقرير عن ذلك الحادث من مصدر حكومى أفاد بأن مثيرى الشغب من الشيوعيين، قد أثاروا المتظاهرين وألقوا بالقنبلتين التى راح ضحيتهما أبرياء، لكن خلال أيام قليلة ظهرت حقيقة الأمر عندما حضر شاهد عيان إلى مكتب وكالتنا للأنباء، وذكر لنا تفاصيل الأحداث، وقد قمنا نحن فى مكتب وكالة الأسوشيتدبرس بتصوير ما حدث باعتباره قضية تمس حقوق الإنسان.

وعندما أذاعت محطات الإذاعة العالمية تقاريرنا عن الحادث، خرجت المظاهرات من جديد، وكانت أعلى صوتًا ومعاداة لنظام «ديم» وحكومته، التى أصرت على عدم الاعتراف بمسؤليتها عن الدماء التى أريقت، وعلى عدم معاقبة مرتكبى الحادث، واستمرت مظاهرات الاحتجاج ضد نظام «ديم» من الآلاف الذين يحملون أعلام الديانة البوذية ويطوفون بها فى الشوارع، بالرغم من إلقاء الشرطة القبض على البعض منهم.

المسيرة الصامتة

وأثناء مسيرة المركب الصامت الذى يتقدمه رهبان بوذيون ومن خلفهم الآلاف من حاملى أعلام الديانة البوذية بعد مغادرتهم معبد بوذى صغير متوجهين إلى شارع «فان دنه فونج» توقف الموكب أمام مقر البعثة الدبلوماسية الكمبودية، وتقدم ثلاثة رهبان بضع خطوات إلى الأمام، ثم التف حولهم الآلاف مكونين دائرة.. وبعد ذلك قام أكبر الرهبان الثلاثة سنًا «تتش كوانغ دوك» بالجلوس فوق محفة طاويًا ساقيه تحت نصف جسده الأعلى، بعد ذلك بدأ الراهبان الآخران بصب الجازولين فوق رأسه الحليق وردائه الأصفر، وبعد أن أفرغوا قنينة الجازولين، قام الراهب «تتش كوانغ» بإشعال عود ثقاب وقربه من

طيات ردائه، ثم طوى يديه على شكل زهرة اللوتس فى الوقت الذى أمسكت به النيران وغطته ألسنة اللهب.

وقد قام «مالكولم برون» على الفور بالتقاط صور فوتوغرافية للمشهد فى الوقت الذى كان راهب آخر يصيح فى الجموع الغفيرة بأعلى الصوت باللغتين الفيتنامية والإنجليزية قائلاً: «هذا هو علم بوذا الذى مات من أجله.. لقد أشعل «تتش كوانغ دوك» النار فى جسده من أجل هذا العلم.

وكان لصورة الراهب المسن وألسنة اللهب تتصاعد منه وقع الصدمة على العالم كله.

وتوالت جهود البوذيين التى قصد منها الوصول بقضيتهم إلى مسمع ومرأى من الرأى العام فى الداخل والخارج، فقد قام بعض الطلبة من الشباب البوذى بمد يد العون للرهبان البوذيين فى معبد «لوى» فى «سايغون» وذلك بالعمل على آلة نسخ المطبوعات وكراسات الدعاية السياسية والدينية، والقيام بتوزيعها على المراكز الصحفية فى العاصمة الفيتنامية ، وعلى أفراد الشعب الفيتنامى. وفى معبد «لوى» كنا نجلس إلى الراهب «تتش دوك نفيب» بمكتبه فى الطابق الأول، وكان يحدثنا فى السياسة والفلسفة الإنجليزية، ويقدم لنا ا لشاى الصينى فى أكواب صغيرة، كما كان الزعماء البوذيون يخبروننا أننا كرجال صحافة وإعلام أملهم الوحيد بأن تصل برسالتهم إلى العالم، كما كان الأفراد العاديون الذين يدينون بالديانة البوذية يقدمون لنا كل ما فى وسعهم من عون.

كان نظام «ديم» يستنكر تقاريرنا الإخبارية وتعليقاتنا على ما يجرى من أحداث يومية فى فيتنام. كذلك كانت الصحافة الفيتنامية التى تسيطر عليها الحكومة تردد وجهة نظر النظام وتؤيدها.

وبالإضافة إلى كراهية النظام لكل ما يصدر عنا كصحفيين من كتابات، فقد تعرضت لاعتداء بالضرب فى ٧ يوليو خارج معبد «تشنتا رينزاى» من قبل شرطيين سريين، أثناء تواجدى لتغطية أحداث تظاهرات ضد الحكومة، وقد قاما بتوجيه ضربات قوية بقبضات أيديهما فى وجهى، وطرحانى أرضا، وكان من الممكن أن أتعرض لما هو أكثر من

ذلك لولا إسراع «هالبرستام» بالتدخل.

أصابتني الدهشة لتعرضي لذلك الهجوم ولتحطيمهما الكاميرا التي أحملها، كما شعر «مالكولم برون» بالغضب لما حدث لي، فقام بالتقاط صورة لي والدماء تلطخ وجهي، وبعث بها لكي تنشر على نطاق واسع في صحف العالم، وعندما رفضت السفارة الأميركية في «سايغون» توجيه أي احتجاج للحكومة الفيتنامية قام مجموعة من الزملاء الصحفيين بإرسال رسالة احتجاج إلى الرئيس الأميركي «كنيدي».

ولم تكتف الشرطة بما حدث لي، بل إنها بعد أيام قليلة بعثت في طلبنا أنا ومالكولم للحضور إلى مركز الشرطة الرئيسي في «سايغون» وهناك وجهت إلينا تهمة محاولة التهجم على شرطيين سريين والاعتداء عليهما بالضرب، أثناء قيامهما بأداء عملهما بالقرب من المعبد البوذي، والغريب أنه بعد انتهاء الاستجواب الذي استمر أربع ساعات طلب منا أن نملأ صحيفة اتهام ضد الذين هاجمونا، وأن أطلب تعويضاً عن تحطيم وإتلاف كاميرتي.

سفير أمريكي جديد

ومع استمرار أحداث العنف في الشوارع التي كادت تصيب العاصمة «سايغون» بالشلل، والتي هددت بإلحاق الضرر بمجريات الحرب، أصدر الرئيس الأميركي «كنيدي» قراراً بتعيين «هنري كابوت لودج» سفيراً الولايات المتحدة الأميركية في «سايغون» بدلاً من السفير السابق «نولتنج» الذي كان في ذلك الوقت يقضي إجازة مع عائلته في اليونان، وعند عودته عقد آخر اجتماع له مع الرئيس الفيتنامي «ديم» وفي ذلك اللقاء وجه «ديم» سؤالاً للسفير الأميركي السابق «نولتنج» حول ما إذا كان تعيين سفير أميركي جديد لفيتنام يعني أي تغيير في السياسة الأميركية، فأجابه «نولتنج» مؤكداً له أن مسؤولين أميركيين كباراً قد أخبروه بأنه لا تغيير في السياسة الأميركية، لكن حقيقة الأمر أن السياسة الأميركية في فيتنام قد بدأت في التغيير الذي ساعد وشجع عليه الأزمة البوذية وتقاريرنا الصحفية عنها.

ثورة دينية أم سياسة

كان من أسباب عدم مبالاة «نولتنج» السفير الأميركى فى «سايجون» بالبوذيين اعتقاده أن الحركة البوذية حركة سياسية وليست دينية، وأن من الخطأ تصَور تلك الحركة على أنها ثورة أصحاب الديانة البوذية ضد قمع نظام رومانى كاثوليكى، كما فى اعتقاد «نولتنج» أيضاً أن البوذيين يريدون تقويض نظام «سايغون» وهو الشئ الذى يضر بمصالح الأميركيين.

وفى لقائه الأخير مع الرئيس الفيتنامى «ديم» قبل مغادرته «سايغون» قام السفير «نولتنج» بتوجيه النصح له بأنه يتعامل مع الأزمة البوذية بشئ من الدهاء، وبأن يتوصل إلى تسوية سياسية تقتضى منه أن يقدم وعداً بأنه لن يستخدم العنف ضد البوذيين.

كان فى و داع «نولتنج» بمطار «سايغون» نيابة عن الرئيس «ديم» شقيقه الأصغر «نجو دينه نهو» الذى كان «نولتنج» يتعهده بالرعاية، وكان يقضى الساعات معه فى نقاشات فلسفية، لقد لفت انتباهى أسلوب «نهو» المهذب وهو يتحدث عن السفير الأميركى، كما لاحظت وجنتيه الغائرتين، وبروز عظام الوجه، وجبينه المتغضن كثير التجاعيد، وهى علامات تدل على شخصية مزاجية، ربما يرجع إليها سبب قلة عدد أصدقائه الحميمين بعكس شقيقه الرئيس «ديم».

لم يتقلد «نهو» أياً من المناصب عن طريق الانتخاب، لكنه كان يرأس إدارات الشرطة السرية، وضرب العمل الثورى، وشبكة الاستخبارات كما يمسك بزمام منظمة عسكرية قوية تتألف من مليون فرد تسمى «حركة الشباب الجمهورى» ويشرف على البرنامج الاستراتيجى لإقامة المستوطنات، أما أكثر الأعمال التى يقوم بها «نهو» أهمية فهو عمله كمستشار سياسى لشقيقه الرئيس، وهو العمل الذى تقول الشائعات عنه إنه بواسطته يسيطر على مقدرات البلاد.

والشئ الذى لم يكن يعلمه السفير الأميركى «نولتنج» أثناء حديثه الفلسفى مع «نهو» فى أغسطس بمطار «سايغون» أن «نهو» كان يضع خطة سرية تعتمد على استغلاله الفترة ما بين رحيل السفير الأميركى «نولتنج» وبين قدوم السفير الجديد، لكى

يقوم بشن هجمات شرسة لم يسبق لها مثل على أكثر أماكن العبادة البوذية قداسة فى البلاد.

عند عودتى إلى مكتبنا فى مطار «سايغون» بعد رحيل السفير الأميركى طلب منى «مالكولم» أن أستقل الطائرة إلى «نها ترانج» لكى أقوم بتغطية آثار حادث تضحية أول راهبة بوذية بحياتها، وكنت سعيداً لتوجهى صوب المنتجع البحرى الشهير برمال شواطئه البيضاء، والبط البكينى الصغير الذى يسبح فى الماء، ولكن عند وصول طائرتنا إلى «نها ترانج» كانت المظاهرات فى الشوراع، وكذلك الدبابات الحربية والجنود الذين يحاولون تفريق المتظاهرين وفرض حظر التجول، وقد علمت أن السلطات قامت بالاستيلاء على جثمان الراهبة، وأقامت مراسم سريعة للجنازة والدفن.

وبعد انتهاء مراسم دفن الراهبة البوذية، عدت إلى حجرتى بفندق ومطعم فرانسوا المطل على شاطئ البحر، والذى يعد علامة من علامات فترة الوجود الفرنسى، وفى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى الأحد استأجرت دراجة توجهت بها إلى «ننه هوا» متخذاً طريق الشاطئ، لكن الجنود الذين يحاصرون القرية قد منعونى من دخولها، وأجبرونى على العودة ثانية إلى «نها ترانج» وقد حاولت أيضاً زيارة معبد «هوى» المحاصر، والذى يتواجد داخله رهبان يطالبون بعودة جثمان الراهبة، ومرة أخرى لم يسمح لى الجنود بالاقتراب من المعبد الذى تتجمع حوله أعداد غفيرة تحملق فى غضب باتجاه الجنود المدججين بالسلاح، بالرغم من الغازات المسيلة للدموع والخانقة التى تملأ أجواء المكان.

وعبر التليفزيون أخبرنى «مالكولم» بأن المظاهرات شملت «هوا» و«دانا نج» و«سايغون» عقب انتحار راهب آخر فى «هوا». وقد أوضحت له أن مسؤولاً حكومياً أسر فى أذنى قائلاً: «إن الحكومة أصبح فى إمكانها التعامل مع أية مظاهرات، لكن «مالكولم» علق على ذلك بألا أصدق قوله.

وكان «مالكولم» على صواب، ففى صباح يوم ٢١ أغسطس قام رهبان معبد «اكسا لوى» بالتعبير عن قلقهم بشأن تأخر وصول «لودج» السفير الأميركى الجديد إلى «سايغون» لمدة ثلاثة أيام، الأمر الذى لن يكون فى مصلحة حركتهم، وقد اطلع «تتش

دوك نفيب» «مالكولم» على مخاوفه التى تتركز فى محاولة الحكومة خداعهم، كأن تقوم بمحاولة اغتيال «لودج» ثم إلقاء اللوم على البوذيين باعتبارهم المخططين لمحاولة الاغتيال.

وفى الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم، أجرى «دوك نفيب» اتصالا هاتفيا مع «مالكولم برون» بشقته ليخبره بأنه تلقى أنباء تفيد بأن الشرطة قد تلقت أوامر بالاحتشاد، وتطويق معبد «اكسا لوى» وفى حوالى الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة بعد منتصف الليل أجرى «دوك نفيب» اتصالاً هاتفياً آخر مع «مالكولم» ليخبره قائلاً: «إن قوات الشرطة اقتربت من بوابة المعبد، أخبر السفارة الأميركية بسرعة، ثم انقطعت الحوارات عن الخط الهاتفى، وعندما سارع «مالكولم» بالذهاب إلى موقع الأحداث دون أن يستغرق ذلك أكثر من بضع دقائق، وجد مئات من القوات الخاصة التى قام الأميركيون بتدريبها. بالإضافة إلى قوات من الشرطة، ومن حرس القصر الرئاسى، قد اقتحموا بوابات المعبد الحديدية بعد أن قاموا بتفجيرها.

الفصل الخامس

اضطهاد البوذيين

* عمليات اضطهاد البوذيين تنتهى بوضع الصحفيين على رأس قائمة المطلوبين لمغادرة البلاد.
* الحكومة تعتقل ألف راهب بوذى بعد محاصرتهم فى الأديرة.
* المعدات العسكرية تملأ شوارع فيتنام استعدادًا للحرب.
* صورة الراهب والنيران تشتعل فيه أصبحت حديث البيت الأبيض الأميركي.
* الصحافة تتراجع عن هجومها ضد المراسلين الأجانب فى فيتنام بعد ما أدركت فداحة الأخطاء الأميركية فى سايغون.
* السفير الأميركى الجديد يقدم احتجاجًا رسميًا للحكومة بسبب المضايقات المفروضة على الإعلاميين.
* الرقيب العسكرى يصادر تقارير المراسلين وصورهم دون اعتبار للدور الأميركى فى فيتنام.

بدأت القوات بإخلاء المنطقة من الصحفيين حتى لا يشاهدوا الرهبان والراهبات وهم يجبرون على مغادرة المعبد داخل شاحنات تذهب بهم بعيداً، وعند الواحدة والنصف بعد منتصف الليل كان قد تم إخلاء المعبد الذى يحتوى على أكبر الرهبان البوذيين فى فيتنام من جميع ساكنيه. ولم ينج من قبضة القوات المهاجمة غير راهبين تمكنا من الهرب بعد تسلقهما الحائط الأسمنتى لمقر هيئة المعونات الأميركية المجاور للمعبد.

تكررت تلك المشاهد فى كل مكان فى فيتنام الجنوبية، وفى أكبر المعابد البوذية التى تعرضت للتفجير، بعد إلقاء القبض على رهبانها وراهباتها، وتعرضهم للضرب، وبعد إتلاف أثاث غرفهم، وقد حدث الشئ نفسه فى «نها ترانغ» ولكن منذ حالوا بينى وبين الوجود بالقرب من المعبد الرئيسى، لم يكن أمامى إلا أن أستقل الطائرة عائداً إلى «سايغون».

القبض على ١٠٠٠ راهب

بلغ عدد الرهبان والراهبات البوذيين الذين تم إلقاء القبض عليهم، ما يقرب من ألف راهب وراهبة، وأعلنت السلطات فرض قانون الطوارئ، الذى شمل كل أنحاء فيتنام الجنوبية، واستولت القوات الخاصة والشرطة وحرس القصر على المنشآت المهمة، كما تم فرض حظر التجوال، وشددت الرقابة على الصحف.

لقد أمكننى كتابة قصة إخبارية أعبر فيها عن غضب العسكريين الأميركيين الذين شاهدوا أحداث العنف، مثل الضابط برتبة كابتن فى الجيش الأميركى الذى قال لى فى «نهاترانغ»: «فى ليلة واحدة فقد الرئيس ديم كل ما بذلناه فى ثمانية عشر شهراً من جهد لتحسين صورة نظامه فى عيون الفيتناميين». وقال لى ضابط أميركى آخر فى مطعم

فرنسوا. بعد عودته من ٤٤ يوماً قضاها فى قرى السهول المرتفعة: «إذا كنا نحاول أقصى ما فى وسعنا لكسب مشاعر ود مواطنى الجبال لحكومة سايغون، فإن الحكومة بأفعالها تلك تخسر مواطنى المدن الفيتنامية.

على الصعيد الإعلامى، فقد انتابت الصحفيين الهواجس بأنهم سيكونون الهدف التالى لحكومة سايغون بعد أن ظل البوذيون وممارسات العنف التى مورست ضدهم على صدر الصفحات الأولى للصحف، وفى أول النشرات الإخبارية التى تبثها الإذاعات. الشئ الذى تسبب فى إثارة مشاعر الكراهية فى حكومة «سايغون» ضد الصحفيين.

وقد تناقشت أنا و«مالكولم» حول ما يمكن أن نتعرض له من أذى، ومن ثم قررنا أن نغادر منازلنا ونسكن فى فندق «كارافيللى» الذى يمكن أن يوفر لنا شيئاً من الأمن والأمان، كما انتقل بعض الصحفيين من السكنى فى بيوتهم إلى مشاركة بعض الدبلوماسيين الأميركيين السكن فى مقار إقامتهم، ومن بين هؤلاء الصحفى الاسترالى «دينيس وارنر» الذى انتحى بى جانباً، وهمس فى أذنى قائلاً: «بيتر.. أنت على رأس القائمة التى تتضمن أسماء الصحفيين المستهدفين من قبل حكومة «سايغون» بسبب الجولة التى قمت بها فى «نها ترانغ».

تداعيات الرقابة الصارمة

كانت من نتيجة فرض رقابة صارمة على وسائل بث الأخبار أننا وجدنا أنفسنا كصحفيين معزولين عن العالم، وبدأنا فى البحث عن طرق لكى نبعث من خلالها رسائلنا الإخبارية، إلى العالم الخارجى، وقد وعدتنا السفارة الأميركية بتقديم العون لنا فيما يتعلق بإرسال تقاريرنا الإخبارية، لكن وعدها ذلك اقتصر على مراسلى وكالة «يونيتد برس» الأمر الذى أثار ثائرة «مالكولم» وهو يتحدث إلى «وليم ترو هيرت» القائم بالأعمال فى السفارة الأميركية بسايغون.

السفير الجديد

بواصل السفير الأميركي الجديد هنرى كابوت لودج إلى سايغون تغيرت مواقف السفارة الأميركية عما كانت عليه في عهد السفير السابق نولتنغ، فقد أولى السفير الجديد اهتمامه بالمسائل التى تتعلق بحقوق الإنسان والحريات السياسية، الشئ الذى أدخل السرور على مجموعة الصحفيين بالعاصمة الفيتنامية، وأثار حماس بعض زملائنا الأميركيين الذين أخبرونا بأن السفير لودج سيعيد تنظيم السفارة الأميركية على نحو جذرى، كم أكد هالبر ستام، وشيهان ونحن فى الحافلة التى أقلتنا إلى المطار لتغطية وصول السفير الجديد، أن تعيين السفير لودج يعد تحدياً للسلطات الفيتنامية.

كان السفير لودج قد تحدث عبر جهاز الراديو - وهو على ظهر الطائرة - مؤكداً أنه ليس لديه أى تصريحات يدلى بها، لكنه وبعد هبوطه من سلم الطائرة ومشاهدته لكاميرات التليفزيون، ولأكثر من ثلاثين صحفياً يتطلعون إليه، تحدث إليهم ببعض كلمات متحمسة عن الديمقراطية الأميركية، والدور الجوهرى للصحافة، كما استرجع معهم الأيام التى عمل فيها مع صحيفة «نيوز ويك هيرالد تريبيون» وقام بأول رحلة له إلى فيتنام، فى شبابه. وفى نهاية كلماته وعد الصحفيين المتحلقين حوله بأنه سيساعدنا فى القيام بعملنا، ثم بهزة من رأسه وبتلويحة من يده غادرنا بصحبة زوجته «إميلى».

لم تتضمن كلمات لودج لنا أخباراً، وإنما تضمنت شيئاً أشبه بالمسكن الذى هدأ من قلقنا، كما أن تأكيده لنا بأنه سيقوم بمساعدتنا على أداء عملنا الصحفى، جعلنا نشعر بأن العزلة التى وجدنا أنفسنا فيها توشك أن تنتهى، خاصة، عندما سمح لنا كرجال إعلام وصحافة بأن نصحبه على متن الطائرة التى تقله من قاعدة تاتشيكاوا الجوية فى رحلة تفقدية للعاصمة الفيتنامية.

بعد بضعة أيام وجه لودج دعوة إلى مالكولم برون لتناول الغداء معه، وخلال وجودهما معاً أخبر لودج مالكولم أنه شاهد صورته الفوتوغرافية التى التقطها للراهب «تتش كوانج داك» والنار تشتعل فى جسده على مكتب الرئيس كنيدى، وفى وقت لاحق حدثنى السفير لودج حول هذه الواقعة قائلاً: «عند توجهى إلى المكتب

البيضاوى فى البيت الأبيض ومشاهدتى لصورة الراهب وهو يحرق نفسه حياً، قال لى الرئيس كنيدى: انظر إلى ما وصلت إليه الأوضاع فى فيتنام. أنا أثق بك، وأريدك أن تذهب إلى هناك، وترى إذا ما كان فى إمكاننا أن نحسن من أداء الحكومة الفيتنامية».

وإذا كنا فى ذلك الوقت نبالغ فى التزام «لودج» بالدفاع عن حقوقنا الصحفية. فإن الشئ المؤكد أنه لم يكن يحمل عداء للصحافة، وأنه قدم إلى سايغون بتوجيه من الرئيس كنيدى لكى يقوم بعمل تغيير فى نظام «ديم» على نحو جذرى، وقد كان تشجيعه لتحليلاتنا الإخبارية أحد أسلحته لفرض التغيير على نظام سايغون.

كان لودج يقضى وقتاً طويلاً خارج مكتبه، وكان دائماً يتجول فى أنحاء العاصمة الفيتنامية، ففى صباح أول يوم له فى سايغون، قاد سيارته عبر شوارع المدينة التى تبدو وكأنها تجهز لمعركة حربية، حيث الجنود المسلحون يقفون فى الميادين وحرابهم مشرعة، والدبابات والعربات الحربية فى وضع استعداد انتظاراً لعمل عسكرى، وبعض المواطنين يقفون على نواصى الشوارع يتبادلون فى قلق الشائعات، ويتساءلون عما سوف يأتى به الغد، وحيث أكثر من ألفى دراجة تقف على جانب الشارع الذى تقع فيه بنايات جامعة «سايغون» وتحت أشجار التمر الهندى كشهود صامتين على إلقاء القبض على المئات من الطلبة واستمرار احتجازهم فى السجون.

وقام السفير «لودج» بزيارة راهبين بوذيين كانا قد طلبا اللجوء السياسى داخل مقر المستشارية العسكرية الأميركية، وفى غضون الأسبوع الأول من وصوله، قدم السفير لودج أوراق اعتماده للرئيس ديم سفيراً أميركياً فى فيتنام الجنوبية، والتقى شقيقه نجو دينه نهو. وعنهما تحدث السفير لودج قائلاً إنه لم يشعر بارتياح إلى كل منهما، وإنه سيمارس ضغطاً عليهما من أجل إجراء إصلاحات.

أما الشئ الذى زاد من مشاعر الود التى نحملها للسفير «لودج» فهو جولاته التى كان يقوم بها فى المدينة برفقة زوجته ومساعد أو مساعدين له، بالإضافة إلى دعوته لخمسة عشر من الصحفيين لمشاركته القيام برحلة غير تقليدية للتعرف على معالم مدينة سايغون، وضربه عرض الحائط لتحذيرات رجال أمن السفارة، وكان يتبادل معها أطراف

حديث ممتد ومتشعب.

ويتجول فيما بيننا في مرح. مرتديا قمصيه الملون المفتوح عند الصدر.

وخلال جولتنا مع السفير لودج في أنحاء العاصمة شاهدنا الآلاف من الذين دفعت بهم حكومة سايغون للتظاهر في شوارع العاصمة والهتاف بشعارات مؤيدة للنظام الحاكم وسط ذهول الجنود المتخذين أماكنهم في الشوارع والميادين، وقد حاول صبية بيع نسخة من الصحيفة المحلية التي تصدر باللغة الإنجليزية «سايغون بوست» للسفير الأميركي، والتي تحمل هجوما وانتقادا لاذعا لوزارة خارجية الولايات المتحدة الأميركية، لكن لودج ابتسم للصبية شاكرا لهم معتذرا أنه سبق حصوله على نسخة منها، كما استوقف السفير «لودج» شابا أميركيا في التاسعة عشرة من عمره وبصحبته صديقته الأميركية ليسألهما عن أحوالهما ويتمنى لهما حظا سعيدا، وقبل أن تنتهي تلك الجولة، علق مواطن فيتنامي على وجود السفير الأميريكي في شوارع سايغون قائلا: هذه أول مرة يقوم فيها السفير الأميريكي بالسير في طريق «كاتينات» أحد الطرق الرئيسية في سايغون.

كانت تواجهنا كصحفيين ليس فقط صعوبة حصولنا على المعلومات، وإنما أيضا صعوبات لكي نبعث بما نكتبه إلى خارج سايغون، وعندما قدم السفير الأميركي احتجاجا رسميا لحكومة سايغون حول فرضها رقابة مشددة على الصحفيين، كان رد السلطات مزيدا من القيود ومن الرقابة المشددة، وذلك بفتح مكتب للرقابة في إحدى البنايات الحكومية بالقرب من السوق المركزي، ومطالبتنا بأن نقدم نسخا من تغطياتنا الصحفية والصور المصاحبة لها لرقباء عسكريين، وفي وقت لاحق نحصل على تصريح لنا بالنشر من موظفين مدنيين، وكانوا في الغالب يرفضون التصريح لنا بالنشر إذا ما وجدوا شبهة انتقاد.

مضايقات بالجملة

كان إرسالنا للصور الفوتوغرافية عن طريق الراديو تعترضه عوائق كثيرة، فعلى

سبيل المثال، بعد أن اطلع الرقباء على الصور الفوتوغرافية الخاصة بتقديم السفير الأميركى الجديد «لودج» لأوراق اعتماده إلى الرئيس «ديم» ووافقوا على نشرها تم رفضها من قبل مكتب الحاكم العسكرى، ولم يسمح لها بالبث، كذلك فقد مراسلوا محطات الإذاعة والتليفزيون اتصالهم بمقار تلك المحطات فى بلادهم، عندما تم قطع كل الخطوط الهاتفية الدولية، وحتى صحيفة «الأوبزيرفر» الرسمية الناطقة بلسان مساعد القائد العام للقوات المسلحة الأميركية فى فيتنام، قد بعثت فى طلب السماح لها بنشر تلك الصور الفوتوغرافية الخاصة بتقديم أوراق اعتماد السفير الأميركى. ولقد عبر «بيتر كاليسكر» عن القيود الرقابية المشددة فى سايغون بأنها أكثر صرامة من الرقابة التى فرضها الكرملين.

وكان علينا أن نبحث لنا عن مخرج لتغطياتنا الصحفية وصورنا الفوتوغرافية يكفل لها الوصول إلى مقار صحفنا ووكالاتنا بالخارج، فكنا نبحث عن المواطنين الأوروبيين والأميركيين الموجودين فى سايغون، والذين حجزوا مقاعد للسفر على طائرات متوجهة إلى «بانكوك» و«هونج كونج» و«مانلا» لكى نزودهم بموادنا الإخبارية ويسلموها لمكاتبنا الصحفية عن طريقهم إلى الخارج.

وبالإضافة إلى الصعوبات التى كانت تواجهنا حتى نتجنب مقص الرقيب الفيتنامى، ونبعث برسائلنا الصحفية إلى الخارج، كان هناك عدم تقدير من الصحافة الأميركية لما نبذله من جهد صحفى، فعلى سبيل المثال كتب جوزيف السوب فى زاويته الصحفية المؤثرة قائلاً: «من السهل جداً أن نرسم صورة سوداوية دون أن نكون ملمين بحقائق الأشياء». كذلك اتهمتنا الصحفية الشهيرة مرجريت هينجز التى كتبت عن الحرب الكورية والحرب العالمية الثانية، بأنا غير وطنيين، ووجهت تعليقات لاذعة لتقاريرنا الإخبارية عن الوضع السياسى والعسكرى فى فيتنام، خاصة تقارير هالبرستام الذى كتب رداً لاذعاً على كتاباتها التى أشارت فيها إلى أن الصحفيين فى سايغون شديدو الرغبة فى أن تخسر أميركا الحرب فى فيتنام، حتى يثبتوا أنهم كانوا على صواب.

كذلك كان فى اعتقاد مجلة تايم الأميركية أننا كصحفيين شباب متحمسين وقعنا فى خطأ بالغ بسبب الطريقة والأسلوب اللذين كنا نكتب بهما القصة الإخبارية، ونتيجة

لذلك قدم تشارلز موهر، مدير مكتب مجلة تايم، في منطقة جنوب شرق آسيا استقالته احتجاجاً على الانتقادات التي وجهت إليه، واستقال أيضاً ميرتون بيرى الصحفي البارز في مجلة تايم، والذى كان يكتب من سايغون، فى تلك الأوقات. لكن بعد بضعة أسابيع أعادت مجلة تايم النظر في جهود الصحفيين الموجودين فى سايغون وعدلت من موقفها تجاههم قائلة في إحدى مقالاتها: « يوم ما سوف تصدر روايات تتناول حياة وأعمال تلك المجموعة الشجاعة من المراسلين الصحفيين الأميركيين الذى يقومون بالتغطية الإخبارية لأحداث الحرب في فيتنام عام ١٩٦٣، ولكن في هذه الأيام فإنه من الصعب الكشف عن حقيقة العمل الذى يقوم به الصحفيون في سايغون. وأضاف المقال المنشور في مجلة تايم : إن المراسلين الصحفيين الأميركيين في فيتنام، طموحون وجادون فى عملهم الصحفى ولديهم إحساس قوى بالمهمة التي يقومون بها.

وبدأ المؤيدون لنا يشيدون بجهودنا في فيتنام، خاصة من أولئك المحررين في الصحف الأميركية. الذين توافدوا على سايغون لكى يتحققوا بأنفسهم من حقيقة الموقف فيتنام، الذى أثار كثيراً من الجدل حوله. ومنهم من زار مكتب وكالة الأسوشيتد برس في سايغون، وشاركنا كتابة التقارير الصحفية خلال الفترة التي مكثها معنا، والتي تعرف فيها طبيعة شبكة العلاقات التي تحكم عملنا وحياتنا.

جواسيس شيوعيون

والمشاكل التي تعرضنا لها من قبل المكتب الرئيسى لوكالة الأسوشيتد برس انتهت عندما أسفرت معركة «اب باك» عن نتائج أكدت ما جاء في تقاريرنا الإخبارية، وأضعفت من موقف واشنطن الرسمي. لا سيما التصريحات المتفائلة حول الدور الأميركي في حرب فيتنام، لكن لم تتوقف الصحافة في «سايغون» عن شن حملاتها الهجومية ضدنا التي تتضمن اتهامنا بأننا مجموعة جواسيس شيوعيين هدفنا تدمير البلاد. والتي تحتوى أيضاً على رسومات كاريكاتيرية تصور المراسلين الصحفيين الأجانب في صورة أعداء سياسيين خطرين يحملون في أعماقهم حقداً على نظام سايغون.

في ذلك الوقت كان مالكولم برون ودافيد هالبر ستام من أهم الصحفيين في سايغون الذين لا يتعبون من كتابة التقارير الجريئة، والتحليلات المثيرة للجدل، وكان مكتب وكالتنا الأسوشيتد برس في سايغون به صحفيون أكفاء. بالإضافة إلى روس أسويان، وإيد وايت اللذين كانا يأتيان إلينا من طوكيو بين وقت وآخر لمساعدتنا، وكذلك هورست مصور المكتب الذى لم يمل السفر إلى ميادين القتال فى دلتا الميكونغ والسهول المرتفعة فى وسط فيتنام وأحداث الشغب فى شوارع سايغون، لكى يأتى لنا بصور فوتوغرافية تعزز تغطياتنا الإخبارية.

وكانت تجمعنا ببعض المراسلين الصحفيين لصحف ووكالات أنباء أخرى جلسات نتبادل فيها الرأى والنقاش حول المشكلات التى تعترض عملنا وكيفية التغلب عليها، ومن بين هؤلاء بيفر لى ديب الصحفية الوحيدة التى كانت تعيش فى سايغون فى ذلك الوقت، وكانت تراسل صحيفة «نيوز ويك هيرالد تريبيون» وفرانسوا نيڤولون مراسل صحيفة «فيجارو» والذى كان يقطن فى شقة فى البناية التى بها مكتبنا، والمصور الفوتوغرافى مايكل رينارد الذى كان يعمل بنظام القطعة، وبالإضافة إلى هؤلاء كان هالبر ستام وثيق الصلة بكل من نيل شيهات وراى هيرندون من مكتب وكالة يونيتد برس، ونيك تيرنر من وكالة رويتر، وميرت بيرى،وغيرهم من الصحفيين الزائرين للعاصمة الفيتنامية سايغون.

منافسة صحفية شديدة

كانت المنافسة تحكم عملنا الصحفى فى سايغون، فإذا كان مالوكولم برون قد حقق سبقاً صحفياً لوكالة أسوشيتد برس عندما تصدرت تغطيته الصحفية لحادث إشعال الراهب البوذى تتش كوانج داك النار فى جسده الصفحات الأولى فى الصحف العالمية، كذلك تفوقت وكالة يونيتد برس علينا وعلى غيرنا من الصحف، حينما نجحت فى نشر أول تقارير صحفية حول الغارات التى شنتها حكومة سايغون على المعابد البوذية، كما تفوق أيضاً هالبر ستام على منافسيه فى مجال كتابة التحليلات السياسية والعسكرية.

بدأت السياسة الأميركية الرسمية فى العاصمة الفيتنامية سايغون تتحسن مع بداية تولى لودج منصبة كسفير أميركى، واقترن التحسن فى أداء السفارة الأميركية فى سايغون بمشاعر نفور متبادلة بين لودج و الرئيس ديم وشقيقه نجو دينه نهو، وزوجته. وفى ذلك الوقت أيضاً كان الرئيس الأميركى «كنيدى» قد تحدث فى لقاء عبر شبكة التليفزيون الأميركى «سى. بى. إس» مع المذيع الشهير «والتر كرونكايت» قائلاً: «إن نظام (ديم) » فقد تعاطف المواطنين الفيتناميين له، كما أذاعت إذاعة صوت أميركا تصريحات لمسؤولين فى واشنطن تهدد بتخفيض حجم المساعدات التى تقدمها الولايات المتحدة لسايغون، والتى تبلغ ١,٥ مليون دولار فى اليوم، إذا لم يجر الرئيس «ديم» إصلاحات فى حكومته، وتجريد شقيقه نجو دنه نهو وزوجته من سلطاتهما.

الفصل السادس

الخلاف الأمريكى - الفيتنامى

* السجون تمتلئ بالمعارضين والخلاف الأمريكى - الفيتنامى ينبئ بحدوث انقلاب وشيك.
* الرئيس ديم يقرر اعتقال ٣ الاف طالب لضرب الثورة الداخلية.
* واشنطن تراجع خطأها الفادح فى سايغون بعد فوات الأوان.
* هل تسبب تهديد جون كنيدى بسحب المستشارين الأميركيين من فيتنام فى التعجيل باغتياله.
* مكالمة مجهولة من فيتنامية للصحف لتغطية انتحار راهب بوذى فى ميدان عام.
* السفير الأميركى يتلقى تهديدات بالقتل، فيقرر الاحتفاظ بمسدسه فى غرفة النوم.
* السلطات الفيتنامية تضع هواتف المراسلين تحت المراقبة للقبض على المتعاونين مع وكالات الأنباء.
* حاولت وصف اشتعال النيران فى الراهب البوذى فلم أستطع لاهتزاز أصابعى بقوة.

تابعت حكومة سايغون اعتقالها لأكثر من ثلاثة آلاف طالب ثانوى وجامعى بما فيهم فتيات أكاديمية «مارى كورى» بسبب خروجهم فى تظاهرات احتجاج ضد نظام «ديم».

وتحت مظلة قانون الطوارئ هاجمت الشرطة السرية منازل زعماء الطلبة الذين قادوا التظاهرات والاعتصامات التى تندد بسياسة حكومة «ديم» وبممارساتها المتعسفة ضد البوذيين.

ثورة الطلبة

كتبت تقريراً إخبارياً حول ثورة الطلبة التى اشتعلت فى ١٤ سبتمبر، ضمنته أن سبب غضب جموع الطلبة واشتعال ثورتهم يرجع إلى عدم رضاء ذويهم بمظالم نظام «ديم» كما بعث روى أسويان بتحليل إخبارى يدور حول الوضع السياسى الذى كان على وشك الانفجار، وحول التساؤل الذى كان يدور فى أذهان بعض الجنود الأميركيين الموجودين فى فيتنام والبالغ عددهم ١٤ ألف جندى: «إلى متى سندعهم يجبروننا على البقاء هنا؟» وفى ذلك التحليل الإخبارى الذى كتبه «روى أسويان» تضمن رفضاً من أحد المستشارين العسكريين الأميركيين للوجود الأميركى فى فيتنام ويقول: «عندما قدمت إلى فيتنام منذ ثلاثة أشهر كانت زوجتى تعتقد أننى سأجع إليها بطلاً، لكنها الآن تكتب لى خطابات تسألنى فيها عما إذا كنت أساعد جنود الرئيس «ديم» فى إلقاء القبض على طلبة المدراس والجامعات والزج فهم فى السجون».

.. وأضاف أسويان فى مقاله: «معظم الأميركيون هنا من الجنود والضباط وسكرتارية السفارة الأميركية والدبلوماسيين، يرون أنه من الخطأ استمرار الوجود العسكرى فى فيتنام، لكن السؤال الذى يحيرهم هو كيف يمكن علاج هذا الخطأ.

ومصادر من داخل السفارة الأميركية في سايغون سربت معلومات مفادها أن السفير لودج يرى أنه لن يحدث أى تغيير في الوضع في فيتنام إلا بشئ واحد فقط، هو الإطاحة بنظام «ديم»، لكن وجهة النظر هذه لم يحدث أن أكدتها التصريحات العلنية الصادرة من السفارة، بالرغم من حضورها القوى خلال الجلسات الخاصة التي تجمع بين الأميركيين في فيتنام.

وفي وقت لاحق تحدث إليّ السفير لودج قائلاً:

عندما وضعت قدمي على أرض فيتنام كانت هناك شائعات حول قرب وقوع انقلاب، وحول تكليفي من قبل واشنطن بالقدوم لكي أقوم على تنفيذه، دون أن يكون لأي من هذه الشائعات أى نصيب من الصحة، لكن الشئ الذى استشعرته منذ أيامي الأولى في فيتنام هو أن الجنرالات الفيتناميين كانوا لا يثقون فينا كأميركيين، لأنهم يعتقدون أن الأميركيين يتحدثون كثيراً، ولا يمكنهم الاحتفاظ بسر من الأسرار» .

واستمرت العلاقات بين سفارة الولايات المتحدة الأميركية في شارع «هام نغي» وبين القصر الرئاسي المقابل لمكتبنا في شارع «باستير» تزداد سوءاً. ففي صحيفة «تايمز أوف فيتنام» التي تصدر باللغة الإنجليزية، وترأس تحريرها «آن غريغورى» الصحفية الأميركية وثيقة الصلة بالأسرة الحاكمة، وعلى صدر الصفحة الأولى أشارت الصحيفة إلى زيارة وزير الدفاع الأميركي روبرت ماكنمارا التي حدد لها يوم ٢٤ سبتمبر، وإلى ما يخطط له ماكنمارا من التمهيد لتقويض دعائم النظام.

وفي اليوم التالي أكدت السيدة غريغورى في مقال لها بالصحيفة أن وكالة الاستخبارات الأميركية «سي. آي. إيه» قد فشلت في القيام بمحاولتين انقلابيتين، وعازمة على القيام بمحاولة انقلاب ثالثة، وحقيقة هذا الأمر أنه في ٢٤ أغسطس بعثت وزارة الخارجية الأميركية بالسفير الأميركي الجديد لودج إلى فيتنام، وطلبت منه أن ينقل للجنرالات الفيتناميين قلق أميركا بشأن الوضع المتوتر في فيتنام الجنوبية، وقد فسر المسؤولون الفيتناميون فحوى الرسالة التي حملها «لودج» إليهم بأنها ضوء أخضر لانقلاب وشيك الحدوث.

تصرفات غيرمسؤولة

فى مؤتمر صحفى عقدته مدام نهو - زوجة شقيق الرئيس ديم فى روما، صرحت قائلة: «إن ضباط الجيش الأميركى الموجودين فى فيتنام يتصرفون تصرفات غير مسؤولة، وكأنهم فرسان القدر».. وعندما علم السفير الأميركى لودج بتصريح مدام نهو، قام على الفور بالتحدث إلى الصحفيين الأميركيين بقوله: «هؤلاء الضباط الشباب الذين تقصدهم مدام نهو يخاطرون بحياتهم كل يوم، والبعض منهم يلقون مصرعهم جنباً إلى جنب مع رفقائهم الفيتناميين،وإنه لشئ يدعو إلى الدهشة. كيف يمكن لأى شخص أن يتحدث بمثل هذه القسوة عن رجال من الواجب أن يقدم لهم الشكر.

حرب الكلمات

اقترنت حرب الكلمات بحرب إثارة ٤١ نجاب، وفى هذا الخصوص، أخبرنى مالكولم فى إحدى محادثاتنا، أنه علم أن لودج أصبح لا يفارق مسدسه المحشو بالأعيرة النارية، وهو جالس إلى مكتبه بالسفارة، وذلك بعد سيل من التهديدات بقتله، التى انهمرت على السفارة. وأنه أصبح يخشى على حياته من رجال الأمن الذين عينتهم حكومة سايغون من أجل حمايته وحماية أفراد البعثة الدبلوماسية.

وكانت تلك تكهنات بأن الرئيس ديم يرغب فى الاستجابة لمطالب الأميركيين من حيث إحداث تغيير فى سياسته، ويفكر جدياً فى تجريد شقيقه وزوجته من سلطاتهما، وفى تسوية نزاعاته مع البوذيين، وقد بدأت واشنطن فى تأجيل موعد تزويدها لنظام ديم بالمساعدات حتى يعجل بإحداث التغيير الذى تطلبه منه، كما أعلنت إدارة الرئيس الأميركى كنيدى فى أوائل أكتوبر أن المستشارين العسكريين الأميركيين سوف يتم سحبهم جميعاً من فيتنام فى عام ١٩٦٥، وأنه فى أعياد الكريسماس سيتم إعادة الألف الأول من المستشارين الأميركيين إلى الوطن.

وحول الإعلان الصادر من إدارة كنيدى بشأن سحب المستشارين العسكريين الأميركيين من فيتنام الجنوبية، قمت فى اليوم نفسه بكتابة تقرير بعثت به إلى وكالة

الأسوشيتد برس. قلت فيه: «يبدو أن إدارة كنيدى لا تحسب حساب مجازفتها بالتنبؤ بأن الدور الجوهرى لمهمة الولايات المتحدة العسكرية فى فيتنام الجنوبية يمكن أن يتم فى عام ١٩٦٥، فقد جاء فى تصريح لمصدر أميركى رفيع المستوى منذ أيام أن التقرير الذى سلمه وزير الدفاع الأميركى روبرت مكنمارا للرئيس كنيدى فيما يتعلق بمقدرة القوات المسلحة الفيتنامية على القضاء على المتمردين وبالمستوى المهارى لهذه القوات، مغرق فى التفاؤل إلى أبعد حد.

اغتيال كنيدى

لقد تناولت كتابات عديدة فى سنوات لاحقة قرار «كنيدى» ببدء انسحاب القوات الأميركية من فيتنام الجنوبية فى عام ١٩٦٣، بشئ من الشك والارتياب، كما زعم البعض بأن قرار كنيدى وراء حادث اغتياله الذى وقع فى الشهر التالى، من قبل عناصر محافظة شديدة التطرف كانت ترى أن سياسة كنيدى ستقود إلى تسليم فيتنام الجنوبية إلى الشيوعيين.

وقد صرحت مصادر أميركية رفيعة المستوى فى ذلك الوقت، بأن تخفيض أعداد القوات المسلحة الأميركية فى فيتنام الجنوبية كان نتيجة اعتقاد الإدارة الأمريكية بأن مهمتها قد انتهت، وأن الجيش الفيتنامى قادر على إلحاق الهزيمة بالمتمردين الذين تعرضوا لضربات مبرحة طوال العام تجعلهم غير قادرين على تنظيم صفوفهم من جديد.

ويبدو لى عندما استعيد أحداث تلك الفترة، أن الرئيس كنيدى قد اتخذ قراره ذلك بسبب ما كان يردده الرئيس الفيتنامى «نجو دينه ديم» بأنه ليس من الضرورى أن تظل قوات الولايات المتحدة الأميركية تشارك فى الحرب إلى نهايتها، وبسبب اعتقاده بقدرة القوات الفيتنامية على استكمال ما بدأه الأميركيون، بالإضافة إلى تصاعد أحداث العنف بين الحكومة الفيتنامية والبوذيين والانتقادات الكثيرة التى كانت توجه ضد حكومة «ديم» وضد الوجود الأميركى فى فيتنام.

وفى الخامس من شهر أكتوبر أجرت امرأة فيتنامية عدة مكالمات هاتفية مع

المراسلين الصحفيين فى سايغون قائلة لهم بأن شيئاً ما على جانب من الأهمية على وشك الحدوث فى السوق المركزى فى ذلك اليوم،وعلى الفور بعد أن تلقينا المكالمة الهاتفية أسرعت أنا وروى أسويان، ومعنا كاميراتنا الصغيرة التى أخفيناها داخل جيوبنا بالتوجه إلى السوق، وكانت هناك عربات الجيب التى تقل جماعات مكافحة الانتحاريين المزودين بالسلاح، وبمعدات إطفاء الحريق.

وكان بالسوق جون شاركى الصحفى بجريدة واشنطن بوست، وبعد دقائق قدم دافيد هالبر ستام وبصحبته جرانت ولفكل من شبكة تليفزيون «إن بى سى» وكان يحمل على ظهره كاميرا «بوليكس» التليفزيونية، وكان ذلك الوجود المكثف للصحفيين المقيمين فى العاصمة الفيتنامية فى منطقة السوق المركزى، كافياً لكى يسبب قلقاً لرجال الشرطة السرية، الذين كانوا يتطلعون إلى وجوهنا فى ارتياب وحذر. وبمرور بعض الوقت تراءى لنا أننا جميعاً كنا ضحية لامرأة مستهترة، وتحدثنا بشأن التوجه إلى مطعم قريب لتناول طعام الغداء. وخلال حديثنا توقفت على بعد عشرة أقدام منى سيارة أجرة صغيرة زرقاء اللون من تلك السيارات التى تروح وتجئ فى شوارع سايغون، وهبط منها رجل فى سن الشباب، حليق الرأس، يرتدى رداء من القطن بنى اللون، ويمسك بحقيبة فى يده. فى انفعال تحدث إلينا أسويان قائلاً إنه راهب بوذى، ومن المحتمل أن يقوم بإشعال النار فى جسده مثل غيره، لكنه فى البداية استبعد ذلك الاحتمال، لأنه يرتدى رداء بنياً وليس الرداءالأصفر الذى يرتديه الرهبان البوذيون عند شروعهم فى الانتحار بإشعال النار فى أجسادهم.

وفجأة، جذب الرجل حليق الرأس، الذى يرتدى الثوب البنى وعاء معدنياً من داخل الحقيبة، ثم اقتعد الأرض، وقام بسكب محتويات الوعاء المعدنى على جسده، وأخرج عود ثقاب وأشعله وقرب الشعلة من طرف الرداء فأمسكت النيران به، وقام بوضع يديه فوق ركبتيه ناظراً إلى الأمام دون أن يصدر عنه أى صوت حتى بعد أن أمسكت به النيران من كل جانب. وعندما انتقلت ألسنة اللهب لتلتهم وجهه، أمكننى رؤيته وهو يجفل ويصر على أسنانه، وكان ذلك هو التعبير الوحيد الذى صدر عنه عما يشعر به من ألم.

وأنا أراقب المشهد تذكرت وصف زوجة شقيق الرئيس مدام نهو لما يقوم به الرهبان البوذيون من إضرام النار فى أجسادهم بأنه أشبه بحفل يقدم فيه الشواء للمحتفلين، وتذكرت أيضاً كاميرتى فأسرعت بالتقاط عدة لقطات لمشهد التهام النار لجسد الراهب البوذى، لكن عندما حاولت كتابة ملاحظات حول ما يجرى أمامى، وجدت أصابع يدى ترتعش من رهبة المشهد.

إلى جوارى كان أسويان، الذى كان وجهه شاحباً شحوب الموتى، ومن جوف الزحام الذى اتخذ شكل دائرة تحيط بالمشهد الرهيب، تصاعدت أصوات عويل ونواح خافتة ومتشنجة، وصوت امرأة تضحك فى هيستريا، وبكاء طفل بين ذراعى امرأة أخرى كانت عيناها مثبتتين على الراهب الذى تلتهمه النيران.

ورجل شاب من وسط الزحام اندفع فى اتجاه أسويان خاطبه قائلاً: اكتب والتقط صوراً، وأخبر السيد كنيدى عما يجرى فى هذه البلاد. وامرأة أمسكت بى من قميصى، والدموع تنهمر من عينيها محاولة أن تقول لى شيئاً. لكن الكلمات وقفت فى حلقها غير قادرة على النطق بها، وهى مستمرة فى الإمساك بى مشيرة بيدها الأخرى إلى الراهب الذى تأكله النار.

ورجل بوليس قام بانتزاع قبعة من القش من فوق رأس بائعة فيتنامية واتخذ طريقه خلال الزحام فى محاولة منه لإطفاء النار الممسكة بالراهب، لكن محاولته زادت النار اشتعالاً، وارتفعت همهمات صادرة من الجموع الغفيرة، فى مكان الحادث، يخترقها بين وقت وآخر بكاء وعويل وأنين.

وتقدم رجل يرتدى زياً عسكرياً، وألقى بساطاً سميكاً من القش فوق الجسد المحترق، وبدأ رجال الإطفاء فى إخماء ألسنة اللهب، ثم قام آخرون بإحضار غطاء أحاطوا به الجسد وحملوه إلى سيارة إسعاف - كانت فى الانتظار- أسرعت به بعيداً عن المكان الذى كان يتصاعد فيه دخان الحريق، ورائحة السائل الرغوى الذى استخدمه رجال الإطفاء فى إخماد اللهب.

وإذا كانت فرق مكافحة الانتحاريين قد فشلت فى منع الراهب البوذى من تنفيذ

عمليته الانتحارية تلك، فإن رجال الشرطة السرية استطاعوا - بعد أقل من دقيقة من قيام إشعال الراهب لعود الثقاب - مهاجمة المصورين الفوتوغرافيين ومنع حاملى الكاميرات من التقاط الصور، وأول من تعرض للهجوم من قبل أفراد الشرطة السرية هو «جرانت وولفكل» الذى كان يحمل كاميرته التليفزيونية.

وقام السفير الأميركى لودج بتقديم احتجاج شديد اللهجة للحكومة الفيتنامية للعنف الذى استخدمته الشرطة السرية الفيتنامية مع الصحفيين والمصورين فى منطقة السوق التجارى، الذى شهد انتحار الراهب البوذى، هذا الحادث الذى صعد من جديد شقة الخلاف بين الحكومة الأمريكية وبين نظام ديم، وعلى أثره توالت عمليات انتحارية من رهبان بوذيين آخرين، وخرجت تظاهرات الاحتجاج والغضب ضد نظام سايغون، تلك التظاهرات التى اعتقد ديم أنها قد انتهت بعد الغارات التى شنتها حكومته ضد المعابد البوذية منذ ستة أسابيع خلت.

اهتزاز الشمس

احتشدت الجموع الغفيرة فى شوارع وميادين «سايغون» لمدة خمسة أيام متصلة، وهى رافعة رؤوسها إلى السماء فى انتظار مشاهدتهم لاهتزاز الشمس وتحركها من مكانها، وهى المعجزة البوذية التى تنبأ بحدوثها عراف من الرهبان البوذيين: يقول أحد المحتشدين الناظرين إلى الشمس: السماء أيضاً ستعلن احتجاجها على المصير المزرى والبائس الذى ينتظر البوذيين الفيتناميين.

والجنود لا يكفون عن محاولات تفريق الجموع المحتشدة التى كانت تتجمع من جديد فى إصرار يفوق إصرارالأوامرالصارمة الصادرة إلى الجنود، ورجال الشرطة السرية الذين كانوا هم أيضاً يتطلعون بين الحين والآخر إلى السماء فى انتظار إعجاز من الخالق، قد يتبدى فى اهتزاز قرص الشمس، وتحوله إلى دوائر شمسية صغيرة. وعائلة «نجو» التى تمسك فى يدها بمقاليد البلاد، لم تبد اهتماماً بما قرأت عنه فى كتب القدماء عن المعجزات الإلهية، وعن القوى الخفية والأساطير والخرافات التى تلقى بظلالها السوداء

على فيتنام، وإنما كان كل اهتمامها ينصب على مقدرة قواتها المسلحة فى التصدى للتمرد البوذى.

كان الوضع فى فيتنام يشى بتغيير وشيك الحدوث ، فالكتابات المناهضة لنظام «ديم» تملأ الجدران وواجهات المبانى، وإذاعة صوت أمريكا لا تكف عن انتقاداتها الشديدة للحكومة الفيتنامية، والسفير الأميركى لودج قطع علاقته بحكومة «ديم» وصدرت تهديدات من واشنطن بإلغاء برنامج المساعدات التى تقدمها الولايات المتحدة لحكومة فيتنام الجنوبية، وبالإضافة إلى كل هذه الشواهد التى تشير إلى قرب حدوث تغيير على المستوى السياسى، كان نظام «ديم» يتصرف تصرفات تشير إلى نزعة الشك والارتياب التى تسلطت عليه، وتحكمت فى نظرته إلى الأمور، وفى تقديراته للمواقف.

فى ٣٠ اكتوبر كانت الآنسة لى تى لين تقود دراجتها، بالقرب فندق كارافيللى فى قلب الحى التجارى بالعاصمة سايغون، وهى مرتدية ثوبها الأبيض، عندما استوقفها مصور مجلة «نيوزويك» الأميركية لكى يلتقط لها صورة لها مع السفير الأميركى فى فيتنام هنرى كابوت لودج، استجابت الفتاة الطالبة فى المرحلة الثانوية، التى كانت فى طريقها إلى دار للأيتام الكاثوليكيين تقطن فيه مع والدتها، إلى طلب المصور الصحفى،الذى قام بالتقاط صورة لها خلال حديثها القصير مع السفير الأميركى.

واصلت الفتاة لى قيادتها لدراجتها. لكن بعد أمتار قليلة استوقفها شرطى سرى، وألقى القبض عليها، واقتادها إلى حيث يتم استجوابها بشأن ما تحدثت به إلى السفير الأميركى، الأمر الذى أثار سخط المسؤولين فى السفارة الأميركية، الذين أجروا على الفور اتصالات بوزارة الخارجية الفيتنامية. انتهت بإطلاق سراح الفتاة فى اليوم التالى، وتمكينها من العودة إلى أمها.

وبدأت حكومة ديم تفرض رقابة مشددة على الصحفيين الغربيين فى سايغون، فقد لاحظ مالكولم أن مكتبنا وشقته كانا تحت المراقبة المستمرة،من قبل أفراد الشرطة السرية،وخوفاً من حدوث حالة سطو رسمية على مكتبنا، قام مالكولم بإرسال حقيبة تحتوى على ملفات خاصة إلى سفارةالولايات المتحدة بغرض الاحتفاظ بها هناك. حيث

يتوافر لها الحماية والأمن، وبعد أن تأكد لنا أن تليفونات مكتبنا تم وضعها تحت المراقبة، وأن بعض الأشخاص الذين أجروا معنا اتصالات هاتفية تم إلقاءالقبض عليهم، حرصنا على إخبار كل من يجرى معنا مكالمة هاتفية بأن هاتفنا مراقب. كذلك تم إلقاء القبض على خمسة سائقين كانوا يعملون لدى صحفيين أجانب لاستجوابهم، كما تلقى موظفو الاستقبال فى فندقى كارافيللى وماجستيك - مقر إقامة العديد من الصحفيين الزائرين - تعليمات تقضى بأن يزودوا الصحفيين بسيارات يقودها سائقون حكوميون.

فى يوم الجمعة ١ نوفمبر كانت مدينة سايغون خالية وصامتة بسبب احتفال دينى تقليدى تجرى مراسمه خلال قيلولة بعد ظهر ذلك اليوم، وكان السفير الأميركى لودج فى لقاء مع الرئيس الفيتنامى نجو دينه ديم قبل سفر السفير إلى واشنطن بعد يومين من أجل إجراء مشاورات هناك، وفى الوقت الذى كان فيه السفير يودع ديم، كنت أنا فى لاوس فى مهمة لمدة ثلاثة أسابيع، وعلى وشك أن أستقل طائرة العودة إلى سايغون التى كنت شديد الاهتمام بأخبارها. لكن لم يكن لدى أقل معرفة بأن هناك انقلابا وشيك الحدوث.

الفصل السابع

الأنقلاب الذى أزاح الحكومة

* وانتهت الثورة الداخلية للشعب الفيتنامي بانقلاب أزاح الحكومة الديكتاتورية.
* ضابط فيتنامي باع صورة لجثتي الرئيس "ديم" وشقيقه "نهو" بألفي دولار.
* أمريكا كانت علي علم بالانقلاب العسكري برغم نفي سفيرها بسايغون.
* كدت أحرم من تغطية أهم حدث بفيتنام لولا إلحاحي علي قائد الطائرة للهبوط في العاصمة
* الرئيس ديم توقع الإنقلاب قبل وقوعه وحث الأميركيين علي التدخل، ولكن دون جدوى.
* الفيتناميون والأميركيون يصابون بصدمة شديدة إثر مصرع كنيدى.

بعد سنوات من اللقاء الذى جمع بين السفير الأميركي لودج والرئيس الفيتنامى ديم قبل سفر لودج إلى واشنطن لإجراء مشاورات، تذكر لودج ما أخبره به ديم فى ذلك اللقاء: «فى كل وقت يذهب فيه السفير الأميركى بعيداً، يكون هناك شخص ما يقوم بانقلاب».. وأضاف لودج قائلاً: «قال لى ديم إنه يعلم بأن هناك انقلاباً سيقع، ولكنه لا يعلم من سيقوده، وقال أيضاً إن مخططى هذا الانقلاب أكثر مهارة من مديرى كل الانقلابات السابقة».

الانقلاب الوشيك

قبل ساعة من الانقلاب، وصل إلى علم مالكولم أن هناك تحركات عسكرية غير عادية حول المقر الرئيسى للشرطة، وعندما أبلغنا أحد العاملين بمكتب أمن السفارة الأميركية ببدء الانقلاب، وبفرض القوات المتمردة الحصار على المقر الرئيسى للبحرية الفيتنامية الواقع على ضفة النهر، «أسرع مالكولم» بالقفز إلى السيارة الجيب المخصصة لمكتبنا، وانطلق بها صوب مبنى البحرية الذى يقع على بعد عشر دقائق بالسيارة.

وقبل أن يصل مالكولم إلى موقع البناية بعشرات الأمتار، سمع صيحات الجنود المحيطين بالبناية يصرخون فيه أن يعود من حيث أتى، وامتثل مالكولم للأمر. وفى الساعة الثالثة بعد الظهر، سمعت أصوات القاذفات التى استهدفت القصر الرئاسى، مختلطة بصوت إطلاق مدافع الدبابات الثقيلة المضادة للطائرات.

كنت فى ذلك الوقع على متن الطائرة التابعة لشركة الطيران الفيتنامية التى غادرت بنوم بنه، وفى سبيلها لدخول المجال الجوى لفيتنام الجنوبية، وعندما قام قائد الطائرة بتغيير اتجاهها عائداً إلى بنوم بنه، توجهت صوب كابينة الطائرة وهناك أكد لى الكابتن الذى كان يحادث موظف المراقبة الجوية مخاوفى بشأن الانقلاب. وأضاف قائلاً: إن قاذفات القنابل

فوق سايغون تقصف القصر الرئاسي، واستشعرت قلقاً كبيراً عندما أخبرني بإغلاق مطار تان سون نهوت، الأمر الذى سيحرمني من كتابة أكبر قصة إخبارية في حياتي الصحفية.

توسلت إلى قائد الطائرة أن يستمر فى طريقه المقرر سلفاً إلى سايغون، لكنه تحدث عن مخاوفه أن تتعرض الطائرة وركابها للخطر إذا هو هبط بالطائرة فى المدينة التى تشهد قتالاً دامياً، وأخبرته أنه من الصواب ألا تهبط الطائرة إلا فوق الأرض التى تنتمى إليها، وفى النهاية وافق على استكمال مسار رحلته والهبوط فى مطار سايغون. حيث أحاطت به الدبابات والعربات الحربية.

العودة إلى سايغون

كان مبنى المطار خالياً من موظفيه ومن المضيفين الأرضيين، وكان الدخان المتصاعد من مبنى الحى التجارى فى العاصمة سايغون - الذى يبعد ثلاثة أميال - يتراءى على البعد، وأصوات الأعيرة النارية القادمة من بعيد تتردد فى ردهات المبنى الخالى، ولم تكن هناك سيارة تاكسى واحدة، ولم يكن أمامى إلا أن أنتظر بنفاد صبر وصول الحافلة الخاصة بالمطار التى أقلتنى إلى منطقة تقرب من مكتبنا، ومن هناك اتخذت طريقى محتمياً بأشجار التمر الهندى من الأعيرة النارية التى كانت تطلقها قوات الانقلاب من نوافذ البنايات وفى اتجاه القصر الرئاسي، وعند وصولى إلى البناية التى بها مكتبنا وجدتها أيضاً مكتظة بجنود الانقلاب الذين يطلقون منها أعيرتهم النارية صوب القصر.

أسرعت بدخول مكتب وكالتنا الإخبارية، فوجدت إد وايت يجلس إلى الآلة الكاتبة، وعندما شعر بوجودى قال لى: «الآخرون ذهبوا ليقيموا فى فندق كارافيللى، أما أنا فلن أغادر هذا الحصن، ولم يبد على هيئة إد وايت، أى أثر لانفعال أو توتر، وأخبرنى أنه مع بداية الانقلاب تقطعت كل وسائل الاتصالات بين سايغون والعالم الخارجى، لكنهم استطاعوا أن يبعثوا برسائلهم الصحفية من خلال سفارتى أمريكا وكوريا..

وقبل أن أغادر المكتب اقترحت عليه أن يغادره قبل حلول الظلام.

انتظرت إلى أن حلت فترة هدنة مؤقتة توقف فيها الضرب، ثم اتخذت طريقى إلى فندق «كارافيللى» وهنا انضممت إلى مالكولم، وروى أسويان، فى وقفتهما بأعلى طابق بالفندق، يستشرقان المنظر العام للمدينة، ويشيران بأيديهما إلى المناطق التى فيها القتال على أشده.

وصوب مبنى البلدية، والمقر الرئيسى للشرطة، ووزارة الدفاع التى استولى عليها المتمردون فى الدقائق الأولى من القتال، وفى الوقت نفسه الذى تم فيه الاستيلاء على محطة الإذاعة، والمركز الرئيسى للاتصالات السلكية واللاسلكية. وأيضاً مبنى البحرية الذى نجحوا فى السيطرة عليه بعد سلسلة من القصف الجوى المستمر من ست قاذفات قنابل.

غادرت الفندق فى اتجاه مركز المدينة، وفى طريقى إلى هناك، استوقفنى جنديان أميركيان لكى يستفسرا منى عن أقرب حانة، ومررت أيضاً بأطفال يتسابقون ضاحكين فى جمع الطلقات الفارغة على جانبى الطريق، وبأم تلاعب طفلها، وبسكيرين أميركيين يسيران وهما يتمايلان، وعند اقترابهما من مبنى البرلمان صاح أحدهما بأعلى صوته موجهاً حديثه إلى أحد حراس المبنى قائلاً: «قل لهم أن يكفوا عن إطلاق أعيرتهم النارية، وعن القصف بالقنابل، فهم يبعثون فى النفوس الخوف».

ومررت أيضاً بفندق ركس الذى خصص لإقامة العسكريين الأميركيين، وكان بهو الفندق يعج بالجنود والضباط الذين يجدون فيه الأمن المفتقد فى شوارع المدينة، وكانوا يقتلون الوقت بلعب زهر الطاولة، وبالتزاحم حول ماكينات القمار.

فى الساعة السادسة وسبع وثلاثين دقيقة صباح اليوم التالى، ارتفع علم أبيض من إحدى شرفات القصر الرئاسى وارتفعت صيحات المتمردين فى شوارع سايغون فرحاً بنجاح الانقلاب الذى قاده ضابطان معروفان برتبة جنرال، هما تران ثمان دون، ودونغ فان منه، و أيدته أعداد كبيرة من الضباط الشباب فى القوات المسلحة الفيتنامية، ونما إلى علمنا أن الرئيس ديم وشقيقه قد تمكنا من الهرب، ولكن بعد الظهر علمنا بأن ديم وشقيقه قد لقيا مصرعهما بعد أن استسلما لقوات المتمردين التى اقتحمت القصر

الرئاسى.

وفى صالة الطعام فى فندق كارافيللى تجمعنا لتناول طعام الإفطار، وكان يبدو علينا جميعاً علامات الإرهاق، بالرغم من مشاعر الفرح التى اعترتنا لانتهاء القتال، ولكوننا أحياء، وانضم إلينا هورست الذى عاد من دلتا الميكونج فى الوقت المناسب، لكى يدخل القصر الرئاسى، ومعه كاميرته مع دخول قوات المتمردين المنتصرة.. وبعد أن فرغنا من تناول طعامنا اندفعنا جميعاً إلى شوارع مدينة سايغون لكى نشاهد الجماهير المبتهجة، وهى تحتفل مع الجنرال دون والجنرال منه، اللذين قادا الانقلاب، ونجحا فى الاطاحة بنظام ديم.

اشتركنا جميعاً فى مكتب وكالة الأسوشيتد برس بمدينة سايغون فى تغطية أنباء الانقلاب، ومن بين ما نما إلى علمنا حول أحداث الانقلاب أن الرئيس ديم أجرى مكالمة هاتفية مع السفير الأميركى لودج بعد ظهر ذلك اليوم من مقره بالقصر الرئاسى لكى يطلعه على نبأ بدء الانقلاب، ولكى يستفسر منه عما ينوى السفير الأميركى أن يفعله بهذا الشأن، لكن لودج أجابه بقوله: «ليس لدى أية تعليمات تتصل بهذا الصدد، وهذا الوقت الذى تحدثنى فيه يوافق الساعة الرابعة صباحاً فى واشنطن، ومن ثم فليس هناك أية فرصة أمامى لكى أتلقى منها تعليمات».

وعندما قال ديم للسفير الأميركى إنه من الضرورى أن يكون على علم بنوايا واشنطن إزاء الانقلاب، أجابه لودج بأنه لا يمكن الإلمام بنوايا واشنطن تجاه أى ظرف من الظروف، وقد تحدث السفير الأميركى لودج لبعض الصحفيين فى ذلك الوقت بأنه كان قلقاً على سلامة الرئيس ديم، وأنه قام ببعض الترتيبات التى يمكن أن تتضمن خروجه سالماً من فيتنام، وأنه أخبره أيضاً بترتيبات أخرى يجريها تمكنه من البقاء آمناً فى فيتنام، وهو يحمل لقباً شرفياً، باعتباره رئيس شرف للبلاد. ولكن ديم رفض عرض السفير الأميركى لودج وقال محتداً: «أنا لا أقبل إلا باستعادة سلطتى، وسأعمل على البقاء بالسلطة».

وبعد أن انتهى ديم من كلماته الغاضبة أغلق سماعة الهاتف منهياً حديثه مع

السفير الأميركي.

كان السفير الأميركي لودج في ذلك الوقت غير صادق في حديثه إلى ديم الذي كان متأكداً من ذلك، لكن لودج في حديثه معي أخبرني بأنه لم يكن على علم بموعد الانقلاب وتوقيته بصورة دقيقة.

وأضاف: لم أكن على علم بتفاصيل الموقف كله إلا في الليلة السابقة للانقلاب. أما الجنرال هاركنز فقد كان يجهل تماماً ما يحدث، وعندما بدأ يدرك الموقف بشكل واضح تحدث إلى لودج وأبدى له معارضته التامة للانقلاب، لكن الوقت لم يكن يسمح بعمل شيء لإيقافه.

وقد أخبرني الجنرال تران فان دون، أحد الاثنين اللذين قادا الانقلاب، أنه في نهاية فصل الخريف، كان قد طلب مني السفير لودج بصفة شخصية تأييد الولايات المتحدة الأميركية له في محاولة القيام بانقلاب يطيح بالرئيس ديم، وأن المخططين للانقلاب قاموا بالاستعانة بأحد رجال وكالة المخابرات الأمريكية لوسيان كونين ليكون وسيطاً بينهم وبين الإدارة الأميركية.

كان لوسيان كونين شخصية معروفة في سايغون، وكان دائم التردد على بار فندق كونتننتال، وعلى معظم الأماكن التي تقدم الشراب، وقد تحدث في وقت لاحق حول علاقته بالمخططين للانقلاب وحول علاقته بالسفارة الأميركية في سايغون التي زودته بجهاز راديو يصله بشبكة اتصالات خاصة بالسفارة، وأيضاً بخط تليفوني مباشر، كما تحدث كونين أيضاً عن محاولته تدبير طائرة تقل ديم وشقيقه خارج البلاد، وهي المحاولة التي لم يقدر لها النجاح، بسبب قيام المتمردين بقتل ديم وشقيقه وهما داخل سيارة حربية بعد خروجهما من مخبئهما، واستسلامهما لقوات الانقلاب.

في البداية لم نكن على معرفة بمصير الشقيقين ديم ونهو، لذلك كانت تقاريرنا الإخبارية تحمل تكهنات حول مصيرهما، ولم نتأكد من حقيقة مصرعهما إلا بعد أن زارنا في مكتبنا المؤقت في فندق كارافيللي ضابط برتبة ميجور من الضباط الفيتناميين الذين اشتركوا في الانقلاب، ليعرض علينا بيع صورة فوتوغرافية لجثتي الرئيس الفيتنامي

وشقيقه داخل سيارة حربية بمبلغ ألفى دولار أميركى، وقبل أن ينهى أسويان مكالمته الهاتفية مع المكتب الرئيسى لوكالتنا فى نيويورك ليستطلع رأيهم فى قيمة وثمن الصور الفوتوغرافية، اختفى الضابط الفيتنامى، ولنعلم بعد ذلك قيامه ببيع الصور لمكتب وكالة اليونيتد برس المنافسة لنا فى سايغون.

رد فعل كينيدى

لم يسترح الرئيس كينيدى لما أسفر عنه الانقلاب من أحداث دموية، فلقد أخبرنى الجنرال ماكسويل تايلور فى حوار أجريته معه فى وقت لاحق بعد الانقلاب. أنه فى اجتماع بالبيت الأبيض مع الرئيس الأميركى كنيدى عندما وصلته برقية من الخارج بعث بها إليه أحد مساعديه، وبعد أن أنهى كنيدى قراءتها استغرق فى الصمت، وغادر مكتبه الذى يجلس إليه إلى خارج الحجرة، دون أن ينبس ببنت شفه، ومكث فى الخارج بضعة دقائق، بعدها عاد إلى سابق جلسته إلى المكتب ليتحدث مع الجنرال ماكسويل تايلور حول ظروف وملابسات ما جرى فى سايغون، وحول الموقف الأميركى فى ذلك الشأن.

وقام قادة الانقلاب بفتح أبوات السجون، وإطلاق سراح الآلاف من المعتقلين السياسيين المعارضين لنظام الرئيس ديم، والذين تعرضوا لعمليات تعذيب، ومن بين هؤلاء هوانج تى دونج، امرأة بوذية فى التاسعة والعشرين من عمرها، تعمل فى قسم المحاسبة بالسفارة البريطانية فى سايغون، والتى تم إلقاء القبض عليها من قبل حكومة ديم فى الخامسة صباح يوم الانقلاب، وبعد وضع عصابة على عينيها أجبرتها الشرطة على ركوب سيارة جيب نقلتها إلى مكان يضم عدداً من النساء اللاتى سبقنها فى الاعتقال، وبعد اقتيادها إلى أحد المكاتب، ورفع العصابة عن عينيها، وجدت نفسها أمام رجل يخبرها بأنها متهمة بتزويد السفارة البريطانية بوثائق تتعلق بالبوذية والبوذيين فى سايغون، وتجد هذه الوثائق طريقها إلى المراسلين الصحفيين، وإلى مكتب الأمم المتحدة وجهاز الاستخبارات الأمريكية.

وقد روت الآنسة دونج عن أعمال التعذيب التى تعرضت لها فى صباح يوم

الانقلاب، وعن إخبارها باستكمال تعذيبها فى فترة بعد ظهر اليوم نفسه، لكونها عميلة شيوعية. ومن ثم فلابد لها من أن تنال العقاب، وروت أيضاً الآنسة دونج عن صراخ فتاة صغيرة كانت تتعرض للتعذيب فى حجرة مجاورة، اختلطت مع صوت محركات طائرات فى السماء، ومحركات عربات جيب ودراجات بخارية، وصوت أحد الموجودين بمركز الاعتقال يصيح بأن القوات الجوية تقوم بثورة.

وتحدث طالب فيتنامى تعرض لتعذيب شرطة ديم إلى مالكولم فى كلمات تقطر مرارة، بأن الأميركيين يتحملون نصيباً من المسئولية عن أعمال التعذيب التى تعرض لها الآلاف من الفيتناميين على أيدى الحكومة الفيتنامية، وذلك لقيام الأميركيين بإغماض أعينهم عما يجرى فى المعتقلات الفيتنامية. فى الوقت الذى كانوا فيه يواصلون برامج تدريبهم لقوات الشرطة الفيتنامية وتزويدها بالمعدات.

وأضاف الطالب الفيتنامى فى سياق انتقاده للأميركيين قائلا: «لقد سمعت عن هؤلاء الصحفيين الأميركيين الذين شاهدوا معسكرات الاعتقال النازية فى ألمانيا، واختاروا أن يكتبوا لصحفهم قصصاً إخبارية طريفة حول بعض أنواع الزهور التى يقوم الألمان بزراعتها.

بارقة أمل

سايغون ما بعد الانقلاب تبدو وكأنها تحمل للمواطنين الفيتناميين بصيصاً من أمل فى حياة يغيب عنها الخوف الذى ساد فى حكم ديم، فقد كف المواطن الفيتنامى عن النظر خلفه، خشية أن تمسك به قبضة الشرطة، ولم يعد يتوقف عن الكلام فى منتصف العبارة، لكى يتلفت يميناً أويساراً، حتى يتأكد من أ نه لا أحد هناك يستمع إلى ما يقول، كما لم يعد الفيتناميون يخشون التحدث إلى الأميركيين.

كذلك بدأ الرهبان البوذيون فى السير بحرية فى شوارع سايغون بأرديتهم البنية اللون، ولم يعد الزائر أو المقيم من الدول الغربية يتجنب الاقتراب من هؤلاء الرهبان خشية تحولهم إلى قنابل مولوتوف تنفجر وتشتعل فى أى وقت. والطلبة وأساتذة الجامعة

والسياسيون أخبرونا بذهاب الخوف من طرقات زائر الليل على أبواب منازلهم، ذلك الزائر الذى يصطحب معه عائل الأسرة وسط نحيب أولاده إلى حيث يلقى به فى سجون سايغون.

حرب الريف

وبالرغم من أن حربًا حقيقية كانت لا تزال تجرى أحداثها فى الريف الفيتنامى، إلا أنه لم يكن هناك من يجرؤ على القول بأن الحرية التى أصبحت تنعم فيها سايغون ربما تستمر لفترة موقتة تسمح للفيتناميين بالتقاط بعض نسائمها، التى كانوا محرومين منها، فها هو رئيس تحرير إحدى الصحف الفيتنامية يقول لنا:

«عليكم أن تعملوا على إظهار حقيقة السعادة التى يستشعرها الفيتناميون هذه الأيام، بعد أن خلت شوارع سايغون من الحواجز والأسلاك الشائكة، التى وضعها ديم وأفراد حكومته لحمايتهم من أفراد الشعب الفيتنامى.

لكن مستقبل فيتنام أصبح موضع تساؤل، بعد حادث الاغتيال الذى تعرض له الرئيس كنيدى، ذلك الحادث الذى أصاب الأميركيين المقيمين فى فيتنام بالذهول، وأحدث صدمة لدول العالم، فعندما علمت بأنباء ذلك الحادث، أسرعت بالذهاب إلى مكتب إعلام الولايات المتحدة الأميركية. سعيًا وراء مزيد من المعلومات، وهناك قابلت بوب بازنر الذى عبر لى عن انزعاجه لما حدث، وفى تلك الليلة قمت بكتابة قصة إخبارية حول المستشارين العسكريين الأميركيين الموجودين فى جنوب فيتنام. الذين يقدر عددهم بنحو ١٦ ألف مستشار عسكرى أمريكى. وحول مشاعر عدم التصديق والذهول التى انتابتهم جميعًا عندما سمعوا بخبر اغتيال الرئيس كنيدى.

فى اليوم التالى أقلتنى طائرة مروحية إلى منطقة الحرب دى، وهناك رافقت إحدى القوى العسكرية الفيتنامية المتوجهة إلى عمق الغابات فى إحدى مهامها القتالية، وعندما تحادثت مع المستشار العسكرى الأميركى كابتن دافيد ثورنيسون، وقمت بتزويده بتفاصيل حادث الاغتيال، قال لى فى شئ من مرارة: «ماذا يمكن لولاية دالاس الأميركية أن تقول

الآن». أما الجنود الفيتناميون فقد عبروا إلى الكابتن دافيد ثورنيسون عن دهشتهم لوقوع حادث الاغتيال فى الولايات المتحدة، ولم يجد لديه ما يمكنه أن يقوله لهم رداً على تساؤلاتهم، التى تشير إلى اهتمام الفيتناميين الكبير بمصرع الرئيس الأميركى أكثر من اهتمامهم بمصرع رئيسهم الفيتنامى ديم.

فى ٩ ديسمبر أنهى دافيد هالبر ستام فترة إقامته فى سايغون، وذهبنا جميعاً لوداعه فى المطار، كنت أحمل تقديراً لشجاعته وكفاءاته فى كتابة تحليلاته الإخبارية عن الحرب فى فيتنام. وأنا أصافحه قبل توجهه إلى سلم الطائرة، وبعد أن شد على يدى قال لى: بيتر، كم أشعر بالأسف لأننا لم نعمل معاً وقتاً أطول. عند ذلك تذكرت رحلاتنا التى قمنا بها معاً فى الريف الفيتنامى، و أخبرته أننى تعلمت منه الكثير، وفى ذلك العام الذى شهد رحيل هالبر ستام من سايغون، اقتسم كل من دافيد هالبر ستام، ومالكولم برون جائزة بوليتزر عن تقاريرهم الصحفية من سايغون.

فى ذلك الوقت كنت قد أ مضيت فى فيتنام قرابة ١٨ شهراً، فى بدايتها كانت خشيتى من أن يصدر قرار آخر بترحيلى من سايغون بسبب تقاريرى الصحفية التى كنت أكتبها عن الحرب الدائرة بين الحكومة وقوات الفيتكونغ، لكن بعد الانقلاب الذى أطاح بنظام ديم، ذهب عنى ذلك الخوف، لأن الحكومة الجديدة التى أمسكت بزمام الأمور فى فيتنام الجنوبية كانت أكثر إدراكاً لطبيعة عملنا الصحفى واحتياجاته، ولا يضيق صدرها بمطالبنا سريعاً.

ومن هنا كان قرارى بالبقاء فى سايغون لفترة غير محددة مع مالكولم وهورست، وكنا نحن الثلاثة يجمعنا الحب لمدينة سايغون الجميلة الحارة والقلقة، التى تعد من أكثر مدن العالم التى زرتها غنى بالأخبار والأحداث، ومما جعل علاقة الحب التى تربطنى بمدينة سايغون أكثر قوة هو الحب الذى ربط بينى وبين نينا التى التقيت بها فى إحدى حفلات الاستقبال بالعاصمة الفيتنامية فى عام ١٩٦٢، وعقدت قرانى عليها فى هونغ كونغ، وأنجبت منها أندرو والزا.

الفصل الثامن

ماذا بعد مقتل كنيدى وانتخاب جونسون

* الحرب الشاملة على الأبواب بعد مقتل ديم وكنيدى وانتخاب جونسون رئيساً للولايات المتحدة.
* القوات الأميركية أعدمت جاسوسة فيتنامية دون محاكمة عادلة.
* نجوت من الموت بعد مقتل ٥ عسكريين فى هجوم انتحارى.
* جونسون يقرر إعفاء رواتب الأميركيين بفيتنام من الضرائب فيقابل الجنود القرار بسخرية.
* تزوجت من نينا وأنجبت طفلى الأول وسط الحرب والدمار.
* القوات المتقاتلة تنافست فى قتل الأسرى علانية دون اعتبار لاتفاقات جنيف.
* لم أصدق جونسون حين وعد ناخبيه بوقف إرسال الشباب إلى سايغون.

في نهاية عام ١٩٦٤ كانت إدارة الرئيس الأميركى «ليندون جونسون» تعد الرأى العام الأميركى لقبول قرار شن غارات جوية ضد فيتنام الشمالية، رداً على هجمات قوات الفيتكونغ ضد المنشآت والسفن الحربية الأميريكية، وأيضاً كانت إدارة الرئيس جونسون تعمل على تهيئة الرأى العام الأميركى التام لحكومة «سايغون» ونتيجة لذلك كان علينا أن نبذل جهداً أكبر فى عمل تغطيات إخبارية للأحداث التى كانت تتوالى على نحو متسارع.

الزواج من نينا

وسط تلك الأحداث، اتخذت قرارى بالزواج من «نينا» وسافرنا معاً إلى هونغ كونغ، لكى نعقد قراننا طبقاً لمراسم الإدارة البريطانية هناك، التى كانت أكثر يسراً من مثيلتها فى فيتنام، ومن خلال عيون «نينا» ذات الذكاء الحاد وأفراد عائلتها الطيبة المعشر، بدأت فى فهم أبعاد التشقق بالكيان السياسى والاجتماعى، الذى يبدو على سطح الحياة فى فيتنام، والذى أثر كثيراً فى أعماق الروح الفيتنامية.

ولدت «نينا» وعاشت طفولتها فى «توين كوانغ» لأب يعمل فى الجهاز الإدارى للحكومة الفرنسية، التى كانت تدير شؤون فيتنام، ولأم تعمل مشرفة فى مستشفى للولادة. وعندما قام اليابانيون بطرد الفرنسيون، ومنحوا الاستقلال لفيتنام، توجه والد «نينا» وأفراد أسرتها إلى مدينة «فنه ين» وهناك نجح فى الفوز بمقعد بالبرلمان، لكن عمله السياسى لم يستمر طويلاً، فقد استعاد الفرنسيون سلطتهم على مستعمرتهم السابقة فى عام ١٩٤٦ ومع نشوب الحرب التى قام فيها الفرنسيون بالاستعانة بجنود سنغاليين بشن هجوم على المدينة التى تعيش فيها أسرة «نينا» فى عام ١٩٤٧ قررت الأسرة الهرب حاملين معهم حقائب يد صغيرة تحمل أشياءهم الشخصية الضرورية.

لم يثق الشيوعيون بوالد نينا بسبب الحياة الناعمة التي عاشها منذ نعومة أظافره، كما أن شقيقة «نينا» الكبرى التي كانت قد التحقت بمدرسة عسكرية طبية يشرف على إدارتها الشيوعيون، لم تتعرف الأسرة على أثر لها لمدة سنوات، وشقيقها الأكبر لقى مصرعه في الحرب.. وفقدت الأسرة ايمانها بحركة المقاومة التي كانت تهدف إلى استقلال فيتنام، وهربت «نينا» وشقيقتها «ميرام» إلى هانوى التي يسيطر عليها الفرنسيون، وهناك وفى عام ١٩٥٤ انضم إليهما بقية أفراد الأسرة وبعض الأقرباء.

وفى عام ١٩٥٥ عندما انقسمت المدينة على نفسها هربت أسرة «نينا» إلى «سايغون» على ظهر طائرة أميركية، لكن شقيقة «نينا» الكبرى فضلت البقاء مع شقيقيها، وكانت فرصة اللحاق بالطائرة، واستمر الاتصال بين أفراد الأسرة فى كل من «هانوى» و«سايغون» لفترة عن طريق تبادل البطاقات البريدية، وبعد سنوات توقفت تلك الرسائل تماماً.

الطفل الأول

وفى شقتى الصغيرة القريبة من مكتب وكالتنا المجاورة للشقة التى يسكنها «مالكولم» وزوجته «لى ليو» عشنا معاً أنا ونينا، التى حملت سريعاً بأول طفل لنا، وفى ذلك الوقت تزايد عدد أفراد أسرة مكتب وكالة الأسوشيتدبرس فى سايغون بعد وصول «جون ويلر» و«ادوايت» اللذين تم تعيينهما صحفيين مقيمين فى مكتب سايغون. وفى عام ١٩٦٤ قام «وزيغالافر» الرئيس الجديد لوكالة الأسوشيتد برس بأول زيارة له لمكتب سايغون.

صور التعذيب

فى أكتوبر ١٩٦٤ تمكن مصور فوتوغرافى هو «جيم بيكيريل» من التقاط صور لألوان التعذيب التى يمارسها كل من جانبى الصراع فى فيتنام، وكانت صوره بالإضافة إلى صور «هورست» تجسيداً للوحشية والشراسة والقسوة والعنف، وكانت أشبه بتنويعات على لحن مأساوى قبيح، وقد حاول مالكولم أن يقدم تفسيراً لفظائع ووحشية الحرب

فقال : «الإرهاب والإرهاب المضاد ظل هو الطابع العام للسياسة والحرب فى فيتنام طوال عدة قرون، وقد استمر ذلك الإرهاب يلعب دوراً رئيسياً فى الحرب الدموية التى تزداد اشتعالاً على نحو متسارع على الأرض الفيتنامية».

وقد وصف مالكولم فى تقريره أعمال التعذيب التى مارسها كل فريق ضد الآخر فى فيتنام الجنوبية، وتوصل فى النهاية إلى أنه كان من النادر أن يظل حياً على قيد الحياة كل من وقع فى قبضة الأسر، وتعرض لألوان التعذيب والوحشية، فقد كان الموت ينتظر الأسير أو السجين، إما تحت عجلات العربات الحربية والدبابات الثقيلة، أو بقطع العنق، أو بتركه ينزف دمه حتى الموت، بعد قطع يديه أو بطلق نارى فى جبهة الرأس.

وقد علق البعض فى ذلك الوقت على فظائع الحرب الفيتنامية ساخراً بأن «اتفاقية جنيف» التى تتناول جرائم الحرب، ربما لم يتم ترجمتها إلى الفيتنامية. فلا أحد فى فيتنام يشير إلى هذه الاتفاقية من قريب أو من بعيد، وكل طرف من طرفى النزاع يلقى باللوم على الطرف الآخر لخرقه القوانين الدولية.

جنرالات الحرب وبداية جديدة

عندما بدأت أميركا فى شن حرب حقيقية فى فيتنام تلقى فيها بكل ثقلها، حاولت الأخذ بنصيحة «غالافر» الرئيس الجديد لوكالة أنباء الأسوشيتدبرس التى نصحنى بها فى أثناء زيارته الأولى للعاصمة سايغون، وهى أن أعمل على توثيق علاقاتى بجنرالات الحرب الأميركيين الكبار، وبالرغم من أن أول خبرة لى بأحد الضباط الأميركيين لم أكن سعيداً بها، فقد كان الجنرال هاركنز القائد العسكرى للقوات الأميركية فى فترة حكم الرئيس الفيتنامى «ديم» يتعامل مع الصحفيين المقيمين باعتبارهم عناصر خطرة، من الضرورى تجاهلها كلما أمكن، وفى المرات القليلة التى التقيته فيها كنت أحس بأنه يتحدث إلى بغير الصدق.

وفى أعقاب الانقلاب الذى أطاح بالرئيس الفيتنامى ديم كان اعتقادنا جميعاً أن أيام «هاركينز» صارت معدودة فى فيتنام، وعندما أحيل إلى التقاعد فى يونيو ١٩٦٤

كانت رغبتنا جميعًا أن نبدأ صفحة جديدة مع الجنرال «وليم وستمورلاند» الذى حل محلة، وقد قام «اسويان» بإجراء حوار مع «وستمور لاند» فى أثناء مرافقته فى رحلة جوية تفقدية استغرقت تسع ساعات، وتضمن الحوار إطراء وإشادة بالجنرال الجديد، وقام أيضًا صحفيون آخرون بإجراء حوارات مماثلة مع وستمورلاند. لكننى لم أقترب منه بالقدر الكافى الذى يجعلنى أجرى مقابلة معه. بالإضافة إلى إدراكى أننى قد فشلت فى تنفيذ طلبات «غالافر» رئيس وكالة أنباء الأسوشيتد برس الجديد فى توثيق علاقاتى بالجنرالات.

كانت السلطات العسكرية الأميركية تريد منا كرجال صحافة أن نرسم صورة لفيتنام باعتبارها دولة حليفة يتهددها الخطر، لكننا كنا نراها على غير هذه الصورة، وكنا نعتقد أن الحرب فى فيتنام تختلف عن الحروب الأخرى، التى خاضتها أميركا فى أوقات سابقة. وكان الدافع إليها وطنيًا وأخلاقيًا، ومن ثم كان ذلك الائتلاف بين رجال الحرب ورجال الصحافة.

بالرغم من محاولات الجنرال الأميريكى وستمورلاند للتودد للصحافة والصحفيين المقيمين فى سايغون فإنه كان من الصعب أن تتشكل علاقة وثيقة على أسس سليمة بين رجال الحرب ورجال الصحافة فى العاصمة الفيتنامية.

لقد طلب منا تدافع الأحداث وتسارعها فى فيتنام عمل تغطيات إخبارية لها. بالإضافة إلى كتابة تحليلات لإلقاء الضوء على شبكة العلاقات التى تحكم مجريات الأحداث، ولطرح تساؤلات حول ما إذا كان فى إمكان فيتنام الجنوبية أن تنجو بنفسها بواسطة أفراد شعبها، وحول تنفيذ الافتراض القائل بأن الحل السياسى فى فيتنام لا سبيل إلى التفكير فيه، وأنه لا جدوى منه.

إن الابتهاج والفرح اللذين غمرا فيتنام الجنوبية فى أعقاب سقوط وانهيار نظام ديم حل محلهما التفكك والانشقاق داخل البيت الفيتنامى، ومن ثم كان علينا كصحفيين أن نخرج إلى الشارع الفيتنامى لنسجل بالصورة والقلم مظاهر ذلك الشقاق والتفكك الذى يبدو جليًا فى الصراع الدائر بين الكاثوليك والبوذيين، وفى التناحر الذى لا يكف بين فرق وأحزاب الطلبة الفيتناميين وفى النزاع بين الشرطة والجيش.

كانت فيتنام الجنوبية تعيش وقتاً صعباً وشديد الخطورة، وكان على تغطياتنا وتقاريرنا الصحفية أن تعكس الفوضى والعنف وأنباء القتال، كما كان علينا أيضاً أن نطرح أسئلة حول التحالف الآسيوى - الأميركى، وأن نعمل على تهدئة إدارة الرئيس الأميركى «جونسون» المتحمسة لتصعيد الصراع فى فيتنام.

وفى إحدى الحملات الانتخابية التى كان يقودها الرئيس الأميركى جونسون ضد منافسه المرشح الجمهورى «بارى جولدووتر»، وعد الرئيس جونسون ناخبيه بأنه لن يكون هناك تصعيد لنيران الحرب فى فيتنام، ولن يتطلب الأمر أن يقوم الشباب الأميركى بالاشتراك فى حرب على بعد آلاف الأميال. ما دام هناك الشباب الآسيوى الذى عليه أن يحارب على أرضه.

كنت أقرأ الأنباء التى تحمل تأكيدات جونسون تضييق نطاق الحرب فى فيتنام، وأنا أقف إلى جوار جهاز «التلكس» بمكتبنا، ولم يكن هناك أى سبب يجعلنى لا أعتقد فى صحة هذه التأكيدات الصادرة من الرئيس الأميركى.

لكن واشنطن أعلنت فى ٧ مارس ١٩٦٥ عن وصول ثلاثة آلاف من قوات البحرية الأميركية إلى «دانانج» فى صباح اليوم التالى، وقد انضممت إلى مجموعة الصحفيين المتوجهين إلى القاعدة الجوية فى دانانج لتغطية أخبار وصول هذه القوات التى ستقدم مزيداً من العون للفيتناميين فى حربهم ضد قوات الفيتكونغ.. وهناك فى القاعدة الجوية وصل إلى علم شباب البحرية الأميركية أن الرئيس جونسون قرر منح الجنود والضباط الأميركيين الموجودين فى فيتنام اعفاءات ضريبية، ذلك الامتياز الذى قال عنه جندى أميركى شاب برتبة عريف: «كل ما أتمناه أن أعيش حتى يمكننى إنفاق ما سأدخره من نقود»..

وجندى أميركى آخر أضاف: «أنا على ثقة بأننى سأصاب فى هذه الحرب، فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يحدث اليوم»؟

وجندى أميركى ثالث قال ساخراً:

«إن إصابتى بطلق نارى فى جسدى من الممكن أن تكون خبرة

تبعث على المتعة».

كان المراسلون الصحفيون الأجانب في سايغون شديدى الاهتمام بتغطياتهم الإخبارية بالجنود والضباط الأميركيين القادمين بالألاف إلى فيتنام ومنهم أعداد كبيرة فى أولى مراحل الشباب، وجاء ذلك الاهتمام الشديد بأبناء الأميركيين خصماً من حساب التغطية الإخبارية للفيتناميين. مدنيين و عسكريين، وتوالت التغطيات والتقارير الصحفية المرسلة من «جون ويلر، رون دويتسك، إدوايت، جورج اسير، بوب بوز، هوغ موليغان» ومنى، إلى مكتب وكالة الأسوشيتدبرس فى نيويورك، الذى كان يحثنا على إرسال المزيد من الأخبار والقصص حول الشباب الأميركى الصغير الذى دفع به جونسون إلى ميدان القتال بعيداً عن الوطن.

«التسكع» بالشوارع

وقد أحببت التسكع طويلاً فى أرجاء فيتنام وأفادنى ذلك فى معرفتى بجغرافية وتاريخ الأرض الفيتنامية والإنسان الفيتنامى، وفى ذلك الوقت كان هناك افترض يقول: إن كل الفيتناميين الذين ليسوا فى الغابات مع قوات الفيتكونغ يقفون إلى جانبنا وفى صفوفنا، وكنا دائماً نلتقى هؤلاء الفيتناميين فى كل يوم بقبعاتهم المخروطية الشكل. ذات الحافة العريضة، والمصنوعة من القش، والتى كانوا يحكمون وضعها فوق رؤوسهم وهم يحرثون حقول الأرز بالمحراث الثقيل الذى يجره الثور، وهم يقودون دراجاتهم البخارية ذات البدال برشاقة وخفة عبر شوارع المدينة فى طريقهم إلى المدرسة والمتجر والمكتب، والى السوق حاملين معهم القشدة وثمار المانجو و البابا والبرتقال.

كراهية الشيوعية

وهناك أيضاً فيتناميون كثيرون يضمون ضغينة وحقداً على الشيوعيين، ويخشون من أن يكون النصر حليفهم فى النهاية..

ومن بين هؤلاء الفيتناميين الناقمين على الشيوعيين صهرى على سبيل المثال، لكن في المقابل كان هناك من يتعاطف مع الشيوعيين.

ففي أوائل عام ١٩٦٥ عندما توجهت إلى مدينة «وسك ترانغ» جنوب «دلتا الميكونغ» كان سكان المدينة يتحدثون عن امرأة في الرابعة والثلاثين من عمرها تحترف غسل الملابس، وكانت تقوم على مدى ستة أشهر بغسل ملابس الطيارين الأميركيين الموجودين بقاعدة جوية قريبة. والذين كانوا يقودون طائرات مروحية في مهام قتالية.. وظلت هذه المرأة جزءاً من الحياة الاجتماعية اليومية لأفراد القاعدة حتى اليوم الذى لاحظ عليها أحد أفراد الشرطة العسكرية انتفاخاً وبروزاً حول وسطها ولما قام بتفتيشها اكتشف أنها أخفت متفجرات في ملابسها الداخلية، وعندئذ تعرضت لاستجواب استغرق ساعة من الزمن، بعدها اقتيدت إلى نهاية مهبط طائرات القاعدة الجوية المجاور لحقول الأرز، وهناك قام جنديان بتصويب فوهتى بندقيتيهما نحوها والضغط على الزناد، ولقيت مصرعها على الفور تاركين جثتها في المكان ذاته الذى سقطت فيه.

لم يأبه الطيارون كثيراً بوقائع المحاكمة التى جرت أحداثها في القاعدة الجوية، ولم يشغل بالهم ما إذا كانت المحاكمة قد اتسمت بالعدالة أم اعتراها ظلم، وإنما كل اهتمامهم كان منصباً على مدى الولاء الذى تحمله لهم سبعون امرأة فيتنامية أخرى يقمن بأعمال الخدمة في القاعدة الجوية.

ولم تكن قصة تلك المرأة الفيتنامية التى لقيت مصرعها بأيدى الجنود الأميركيين، وتركت جثتها تتعفن وتتحلل في حقول الأرز هى القصة الوحيدة في ذلك السياق، فهناك قصص أخرى مشابهة وربما أكثر قسوة ووحشية، جرت أحداثها في قواعد عسكرية أميركية منتشرة فوق الأراضى الفيتنامية، تلك القصص التى تزايدت شراستها ووحشيتها مع تزايد الوجود العسكرى الأميركى في فيتنام.

ولقد أتيحت لى الفرصة لكى أقوم بعمل تغطيات صحفية للحرب من جانبها الفيتنامى. ففى صباح يوم من أيام شهر مايو ١٩٦٥، وبعد أن علمنا باستيلاء قوات الفيتكونغ على مدينة سونغ بى، وتوجهت ومعى «هورست» إلى مقاطعة «فوك لونغ» في

الشمال، وهناك أقلتنا طائرة نقل تابعة للقوات الجوية الفيتنامية إلى «بن كات»، ثم حملتنا طائرة مروحية فيتنامية ضمن مجموعة طائرات مروحية تحمل جنوداً فيتناميين صدرت إليهم الأوامر باستعادة المدينة التي استولت عليها قوات «الفيتكونغ» وهبطنا في مكان موحل بعد ظهر ذلك اليوم، ومن هنا بدأنا في السير على الأقدام في حذر شديد لمسافة ثلاثة أميال في اتجاه مدينة سونغ بي، مع مجموعة من الجنود الفيتناميين، وهناك علمنا بمقتل وإصابة أكثر من ١٠٠ جندي فيتنامي في أثناء الهجمات الجوية التي شنتها قوات الفيتكونغ على المدينة منذ فجر ذلك اليوم.

كان الوضع في مدينة سونغ بي ينذر بهجوم جديد تشنه قوات الفيتكونغ. لذلك فقد عرض علينا ضابط فيتنامي أن يساعدنا في مغادرة المدينة الخطرة، وبالرغم من إدراكنا أنا وهورست بخطورة الوضع في المدينة فإننا شعرنا بضرورة بقاء واحد منا فيها، حتى يمكننا كتابة تغطياتنا الإخبارية، وقد تطوعت أنا بالبقاء في المدينة..

أما هورست فقد استقل سيارة الجيب متوجهاً نحو مهبط للطائرات يمكنه أن يجد فيه طائرة يستقلها إلى سايغون. وقام المصور الفوتوغرافي «سيرجنت آل تشانغ» بالعودة بالسيارة الجيب.

وعندما تحدثت مع «آل تشانغ» عن الأخطار الأمنية التي تهددنا اقترح أن نقضي الليل في إحدى ثكنات المستشارين العسكريين الأميركيين، التي من المفترض أن تتمتع بقدر كبير من الأمن. بالإضافة إلى علب البيرة المثلجة، لكن تلك الاجراءات الأمنية لم تمنع مجموعة انتحارية تابعة لقوات «الفيتكونغ» من شن هجوم مباغت في الساعات الأولى من الصباح راح ضحيته خمسة مستشارين عسكريين أميركيين. لقوا مصرعهم وآخرون أصيبوا بجراح.

الفصل التاسع

التورط الأمريكى والبحث عن كبش فداء

* التورط الأمريكى يزداد والبيت الأبيض يبحث عن كبش فداء من الصحفيين.
* الرئس جونسون يحذر إدارته من تقاريرى والمخابرات الأميركية تسعى لإدانتي.
* تعرفت نورمان شوارزكوف فى فيتنام حينما كان رئيسًا لفرقة المظليين.
* رئيس وكالتنا أخبر الرئيس الأميركي: نحن لا نعمل عندك ولا نقف ضدك.
* مقتل الصحفيين فى سايغون أصابنا بالإحباط لعدم وجود حافز نضحى من أجله.
* فريق عمل يجوب الولايات المتحدة بهدف توريطى فى علاقات سرية مع الفيتكونغ.

كانت هناك تخمينات مفادها أن منطقة «دوك كو» القرية من الحدود الكمبودية، والتي تقع بالقرب من طريق رئيسي يتسلل منه الشيوعيون، وتصلهم من خلاله المواد التموينية والأسلحة والذخيرة، سوف تشهد أراضيها المزروعة بالغابات، والتي يقطنها عدد قليل من السكان قتالاً مريراً بين القوات الفيتنامية المدعومة بالقوات الأميركية وقوات الفيتكونغ والشيوعيين.

مع شوارزكوف

وتوجهت إلي دوك كو، و هناك انضممت إلى ميجور شوارزكوف وضباطه من أفراد المظليين الفيتناميين وهم يتناقشون حول مواقع استحكامات الفيتكونغ ومدافع المورتار بالغابات التي تبعد مسافة لا تزيد عن خمسة ياردات وحول القيام بشن غارات جوية تستهدف تلك الاستحكامات.

بدأ القتال بإطلاق قوات الفيتوكغ قذائف مدافع المورتار ضد مواقعنا من كل اتجاه، كذلك استمرت القوات الجوية التابعة للجيش الأميركي في القيام بطلعات جوية للطائرات المقاتلة وقاذفات القنابل على ارتفاع منخفض، وقد زحفت خارجاً من غرفة القيادة المحصنة لكي ألقي نظرة على مسرح القتال، وبالقرب من الغرفة الحصينة وجدت العديد من المصابين بإصابات بالغة، ومن بينهم جندي فقد عينيه، وآخر أصيب بكسر بالغ في عموده الفقري.

وفي وقت لاحق عندما توقفت قذائف المورتار عن قصف موقعنا وتابعت قصفها لمواقع أخرى تبعد عنا بمسافة ميل تقريباً، راح شوارزكوف يتفقد المصابين، وعلى وجهه علامات تشي برضائه عن أداء قوات المظليين، وعند قدوم كابتن «إدوارد ريتشارد» قام شوارزكوف بالتربيت على ظهره، ثم استدار ناحيتي وقال: «أنا أشعر اليوم بالفخر لكوني

جنديا أميركيا، فقد بذل كل أفراد القوات الخاصة الأميركيين كل طاقاتهم لمساعدتنا، وكانت صلابتهم في القتال، وبرودة أعصابهم مثار إعجابي الشديد».

كان عليّ أن أغادر ساحة القتال، وأعود سريعا إلى مكتب الوكالة، حتى أبدأ في كتابة تقريري الإخباري المزود بالصور الفوتوغرافية التي قمت بالتقاطها لأحداث المعركة. لكن حدث تأخير في موعد إقلاع الطائرة التي ستقلني إلى سايغون، واضطررت للبقاء ليلة أخرى في الموقع القتالي.

وفي تلك الأثناء تعرفت الممرضة الفيتنامية الجميلة «لين هونغ» في وقت راحتها من العمل بتمريض الجنود المصابين بالمعسكر أثناء العمليات القتالية الأخيرة.

كانت الممرضة الفيتنامية «لين هونغ» ابنة لرجل دين بروتستانتي، وكانت قد تلقت رعاية من كل أفراد المعسكر من الأميركيين الذين كانوا يعاملونها كأخت صغيرة لهم، وقد تحدث لي «دوج بريت» أحد أفراد القوات الخاصة عن لين قائلا: «لا وجود لحارة للعشاق بالقرب من موقعنا القتالي هذا، وحتى إذا توفرت حارة للعشاق في الجوار فمن القسوة أن أحاول مغازلة لين، وذلك لأنها الفتاة الوحيدة في معسكر يضم ١٢ رجلا، وكل منهم يحمل لها تقديرا كبيرا»..

كان أحد المرضى المصابين بجراح لابغة. الذين كانوا تحت رعاية «لين» جنديا يشكوا من كسر بالعمود الفقري، وعندما علم شوارزكوف بأمره قرر على الفور استدعاء طائرة مروحية لنقله إلى مكان يجد فيه رعاية أكبر، وطلب مني أن أرافقه وأنا في طريق عودتي إلى سايغون. وعندما توجهت إلى مهبط الطائرات ومعي آخرون كان كشاف الإضاءة الكهربائي الذي أمسكه بيدي حتى أرشد الطائرة المروحية على مكان هبوطها يرتعش في يدي. فقد كنا محاطين بقناصة الفيتكونغ من كل اتجاه، وكان من اليسير على هؤلاء القناصة أن يصرعونا واحدا بعد واحد.

أول قصة إخبارية

وفى تلك الليلة التى غادرت فيها معسكر دوك كو بعثت بأول قصة إخبارية لى عن تلك الرحلة التى أحاطتنى فيها أخطار بالغة، والتى جمعتنى مع «نورمان شوارزكوف» و«لين هونغ»، وأفراد فريق القوات الخاصة الأميركية، وقد لاقت تلك القصة الخبرية التى بعثت بها على حلقات صدى كبيرا، ووجدت طريقها للنشر فى كثير من الصحف العالمية، وبصفة خاصة تلك القصة الإخبارية التى خصصتها للممرضة «لين هونغ» وصورت فيها إخلاصها وحبها لمهنة التمريض الإنسانية، وشجاعتها وسط الخطر، بالإضافة إلى خجلها وفقرها، وبساطتها، وسماحة قلبها كفتاة قروية لم تزر عاصمة بلادها «سايغون» ولا يعرف وجهها البرئ أى نوع من الأصباغ.

وعند نشر قصة لين هونغ فى كثير من الصحف العالمية تلقيت تهنئة حارة من جون ويلر وهورست، كما أثارت القصة مشاعر القراء الذين عبروا عن تقديرهم للممرضة الفيتنامية لين هونغ بإرسالهم لوزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» بعض الهدايا لكى يبعثوا بها إليها فى المعسكر الذى تداوى فيه الجرحى فى «دوك كو».

قام صحفيون آخرون من الأسوشيتد برس بزيارة المعسكر، لكى يقوموا بتغطية مغادرة شوارزكوف وأفراد قواته الجوية من الفيتناميين وأفراد القوات الأميركية الخاصة وتوجههم إلى ميدان آخر للقتال.

استشعرت إدارة الرئيس الأميركى جونسون انزعاجا شديدا بسبب تغطياتى الإخبارية للحرب الفيتنامية وقصصى المصورة التى كنت أبعث بها إلى مكتب وكالة الأسوشيتد برس فى نيويورك، ونتيجة لغضب واشنطن والرئيس جونسون الذى أشعلته كتاباتى، صدرت الأوامر لوكالة الاستخبارات الفيدرالية للبحث والتنقيب فى سيرة حياتى الشخصية عن نقيصة ما يمكنهم استغلالها، بهدف إغلاق فمى وإسكات قلمى.

وفى عام ١٩٦٥ صدر عن «بيل مويرز» وزير الإعلام الأميركى مذكرة استنكر فيها التغطيات الإخبارية التى قمت بها لوكالة «الأسوشيتد برس» فى نيويورك، والتى قام بها «مورلى سيفر» بشبكة التليفزيون الأميريكى «سى. بى. إس»، ووصفها بأنها غير مسؤولة

وشديدة التحامل. وجاء في المذكرة أيضاً أننا باعتبارنا لسنا من أصل أميركي فمصالح أميركا لا ندافع عنها كما يدافع عنها المواطن الأميركي المولد.

ومذكرة أخرى كتبها «جاك فالنتي» مساعد الرئس الأميركي، اقترح فيها إجراء مقابلة مع ويزغالافر رئيس وكالة الأسوشيتد برس ومع كبار المديرين بها، والتحدث معهم بشأن المصالح الأميركية التي يلحق بها الضرر من جراء تغطياتي الإخبارية وجاء في المذكرة: «لابد من إيجاد حل لمشكلة بيتر آرنيت الذي يضر بمصالح أميركا ضرراً أكبر من الضرر الذي تسببه قوات الفيتكونغ».

وقد وجهت الدعوة إلى ويزغالافر لحضور اجتماع البيت الأبيض، وذهب إلى هناك مستعداً لمجابهة انتقادات الرئيس. حاملاً معه حقيبة صغيرة تضم حقائق وصوراً تؤيد وتدافع عن القصص الإخبارية التي قدمتها وكالة الأسوشيتد برس وأغضبت البيت الأبيض، لكن عندما لم يبد الرئيس جونسون اهتماماً بالحديث عن الحرب أو عن تغطيات وكالة الأسوشيتد برس قرر غالافر أن يفاتحه في المسألة التي أعد نفسه لها جيداً، قائلاً: «السيد الرئيس، أعرف أنك وجهت انتقادات لأسلوب عمل وأداء وكالة الأسوشيتد برس في فيتنام». وأجاب جونسون وهو يربت بيده على ظهر غالافر: «أنا أعتقد أن وكالة الأسوشيتد برس تقوم بعملها على أكمل وجه».. ثم أضاف غالافر قائلاً أنا أريد منك يا سيادة الرئيس أن تعلم أن وكالة الأسوشيتد برس لا تعمل ضدك، وأيضاً لا تعمل لديك».. وأجابه الرئيس جونسون على الفور بقوله: «هذا ليس ما أحب الخوض فيه»..

وبعد سنوات طويلة، أخبرني «دان بولدوين» الكولونيل المتقاعد بالجيش الأميركي أنه قد أمضى قرابة شهر في عام ١٩٦٥ طائفاً بطائرة حكومية أميركية عبر الولايات المتحدة الأميركية وبصحبته أحد ضباط وكالة الاستخبارات الأميركية «سي. آي. إيه» لإجراء مقابلات مع العديد من العائدين من سايغون والذين كانوا على معرفة بي. في محاولة للكشف عن علاقة تربط بيني وبين الفيتكونغ.

موقف رئيس الوكالة

كان غالافر رئيس تحرير وكالة الأسوشيتد برس شديد الانزعاج لشعوره بالخطر الذى تتعرض حياتنا له بوجودنا فى ساحة الحرب وميدان القتال مع القوات الفيتنامية والأميركية فى مواجهاتنا للعمليات الهجومية التى تشنها قوات «الفيتكونغ». وقد بعث غالافر إلينا فى مكتبنا فى سايغون رسالة قال فيها: «إننى منزعج بسبب الأخطار التى تعرضون أنفسكم لها، فأنا أدرك جيداً أخطار الحرب، كما أدرك أن حياة كل من «آرنيت» و«هورست» وقدراتهما الصحفية أغلى من التغطيات الإخبارية التى تجرى فى ميادين القتال، إذا اقترنت بخطر على حياتهما..

إن أعمال التغطية الإخبارية المباشرة فى مواقع الأحداث أمور جوهرية ولا غنى عنها، لكن من الممكن أحياناً الاستعاضة عن تواجد الصحفى فى أرض المعركة، وذلك بإجراء مقابلات مع من نجا من الحرب، وذكر ما جرى بأقوال على لسانهم. أنا أعرف أنه ليست هناك قواعد دقيقة تحكم عملكم، يمكن أن أعرضها لكم، ولكن كل ما أطلبه هو أن يقلل كل من «آرنت» و«هورست» من حماستهما بعض الشئ. حفاظاً على حياتهما من خطر الحرب».

أسباب تحذير غلافر

كان لدى غلافر سبب يجعله يبعث بتحذيره لنا من أخطار الحرب، كذلك كانت لنا أسبابنا التى تجعلنا لا نستجيب لهذا التحذير،ومن أول هذه الأسباب هو عنصر المنافسة الذى يحكم عملنا الصحفى، فإذا كنا نعتقد أننا كمكتب لوكالة الأسوشيتد برس من أفضل العناصر الصحفية فى سايغون. إلا أنه فى بعض الأحيان قد يتفوق علينا مكتب وكالة «يونيتد برس» فى سايغون، بعمل تغطية إخبارية حول حدث ما، وعندئذ نجد أنفسنا هدفاً لرسائل صاروخية قادمة لنا من المكتب الرئيسى لوكالتنا فى نيويورك تحثنا وتثير حماسنا من أجل تحقيق سبق صحفى فى تغطية لحدث آخر. حتى نظل فى مستوى ثابت من التفوق على منافسينا.

ومن الأشياء التى كانت مثار تندرنا ودعاباتنا فى مكتبنا بـ « سايغون» هو أننا لسنا مطالبين من المكتب الرئيسى لوكالتنا الأسوشيتد برس فى نيويورك بعمل تغطية لحدث من أحداث الحرب فى فيتنام، قد تعرضنا لأخطار جسيمة تهدد أرواحنا. طالما أن صحفياً من وكالة يونيتد برس لم يسبقنا إلى موقع الحدث.

المنافس الوحيد

كانت وكالة أنباء يونيتد برس هى المنافس الوحيد لوكالة أنباء الأسوشيتد برس التى أعمل فيها، أما مراسلوا الجرائد والمجلات الموجودين فى سايغون، فلم يمثلوا لنا تهديداً فى مجال المنافسة على تحقيق السبق الصحفى بالقدر الذى كانت تمثله وكالة يونيتد برس المنافسة. وقد ساعد وكالتنا فى تحقيق نجاحات فى مجال التغطيات الإخبارية، وكتابة القصص الخبرية عن فيتنام هو الحرص على تواجد عدد كاف من الصحفيين بها بالإضافة إلى توفر ميزانية مالية تتيح لنا إنجاز العمل بسهولة ويسر، ونتيجة لذلك استطعنا أن نقوم بعمل تغطيات إخبارية بشكل منتظم لقوات البحرية الموجودة فى «دانانج» ولعمليات حربية فى «آن خى» و«بليكو» فى مناطق السهول المرتفعة فى وسط الأراضى الفيتنامية، التى كانت تتمركز فيها وحدات من قوات المشاة الأميركية.

فى ذلك الوقت كانت وكالة أنباء الأسوشيتد برس من أكبر وأهم وكالات الأنباء العالمية نفوذاً وتأثيراً فى مجال صناعة الأخبار، فقد تجاوز تأثيرها الضخم الولايات المتحدة الأميركية لكى تغطى خمس قارات أخرى، ولكى تصل إلى الملايين من قراء الصحف ومستمعى الراديو وبلغات حية كثيرة.. وبقدر كبر الدور الذى تقوم به وكالة أنباء الأسوشيتد برس التى نعمل بها كانت ضخامة المسؤولية التى حملناها على عاتقنا والتى أثرت تأثيراً عميقاً فى جميع سلوكياتنا ومواقفنا، وجعلتنا نحتمل كل المعاناة وكل الأخطار التى تواجهنا خلال عملنا الصحفى.

لكن الشئ الذى تسبب فى شعورنا بالقلق هو مقتل بعض زملائنا الصحفيين خلال قيامهم بتغطياتهم الإخبارية لمجريات الحرب الفيتنامية. الأمر الذى جعلنا فى احتياج

إلى أن نبرر لأنفسنا أولا جدوى الغاية التى ضحى من أجلها زملاؤنا الصحفيون، وإلى أن نقدم مبرراً كافياً لعائلات هؤلاء الضحايا يعزيهم عن فقدهم لهم. وإلى أن يقبل بجدوى التضحيات أولئك الذين يعتقدون أننا حمقى وطائشون، لكى نمتهن مهنة الصحافة، التى تؤدى بأصحابها إلى الهلاك.

إن الجندى الذى يلقى مصرعه فى ساحة الحرب والقتال، يجد من رفاقه وقادته ومن بنى وطنه التقدير والإجلال، باعتبار أنه ضحى من أجل الواجب والشرف والوطن، وذلك بأن يقوموا بلف جثمانه بعلم الوطن، وبوضعه على ظهر عربة تحمله وسط حرس شرف المطار إلى الطائرة التى تقله إلى مثواه الأخير فى مسقط رأسه، وهناك يقيمون للجثمان جنازة عسكرية لائقة.. أما الصحفى أو المراسل الحربى الذى يرافق الجندى فى ساحة الحرب والقتال، ومعه قلمه وكاميرته، والذى يموت فى أرض المعركة فى فيتنام خلال قيام بعمله الصحفى جنباً إلى جنب مع الجندى، فإنه لا يجد التقدير نفسه، والإجلال ذاته الذى يلقاه زميله الجندى.

ولم يكن هناك ذلك العلم الذى يلتف حول جثمان المراسل أو الصحفى الحربى الذى يموت فى فيتنام. كما لم تكن هناك مراسم الإجلال والتقدير التى تصاحب نقل جثمانه إلى مثواه الأخير، وكل ما كان يحدث له لا يزيد عن اجتماع زملائه الصحفيين لكى يودعوا جثمانه على ظهر طائرة تحمله إلى مسقط رأسه. وكل ما كان يحصل عليه الصحفى التابع لوكالة الأسوشيتد برس التى نعمل بها من عرفان وتقدير، بعد أن يلقى مصرعه فى حرب فيتنام هو وضع اسمه فى قائمة الشرف المعلقة على حائط بمدخل المركز الرئيسى للوكالة فى نيويورك.

تقدير خاص

والجنود الذين كنا نرافقهم إلى مواقع القتال ونشاركهم الأخطار، هم وحدهم الذين كانوا يحملون لنا تقديراً كبيراً، وكانوا دائماً يعبرون لنا عن كامل دهشتهم لاختيارنا لصحبتهم الخطرة، وكنا نجيبهم بأن عملنا فى جوهره يقوم على توثيق أخبار القتال.

والقاء الضوء على أدائهم القتالى في الحرب.. أما ما كان يصلنا من مكتبنا الرئيسي من تضرعات واستعطافات حتى نجنب أنفسنا الأخطار، عندما يلقى زميل صحفى لنا مصرعه أو يتعرض لإصابات بالغة، فقد جعلنا نحمل أنفسنا مسؤولية ما يحدث لنا من عواقب وخيمة في الحرب، وجعلنا نميل لأن نرجع أسباب كل فاجعة تلحق بنا في ميدان القتال، إلى القضاء والقدر، أو إلى خطأ في تقديرنا وحكمنا على الأمور وإلى حماقاتنا وطيشنا.

حقيقة المأساة

أكثر ما كان يثقل على مشاعرنا في تلك الأوقات هو وقع المأساة على عائلة زميلنا الصحفى الذى لقى حتفه في الحرب، الفيتنامية، تلك المأساة التى زادها رسوخاً وعمقاً في القلوب غياب المعنى من وراء تضحية الصحفى بحياته في تلك الحرب، في الوقت الذى كان فيه البيت الأبيض لا يبدى تقديراً للصحافة وحريتها.

في أواخر سبتمبر ١٩٦٥ التحق بمكتب وكالتنا للأنباء في «سايغون» المصور «بيرنارد كولينبرغ» وبينما هو على متن إحدى الطائرات المقاتلة التى أقلعت في مهمة لقصف مواقع قوات الفيتكونغ بالقنابل بالقرب من جبال «بنه دنه» وبينما هو جالس في المقعد الخلفى يمسك بكاميرته ليصور أحداث الغارة الجوية من الجو اصطدمت طائرته بطائرة مقاتلة أخرى واحترقتا في السماء قبل أ ن تسقط بقاياهما المتناثرة على الأرض الجبلية. كان كولينبرغ أول صحفى من مكتب وكالة الأسوشيتدبرس في سايغون يلقى مصرعه في فيتنام، وقد أصابنا ذلك الحادث بذهول. لأن كولينبرغ لقى حتفه ،ولم يكن قد مضى عليه إلا اسبوع واحد بيننا، بينما كان بقية أفراد مكتب وكالة الأستشيتد برس في سايغون يخوضون أخطاراً مماثلة لسنوات دون أن يلقوا ذلك المصير.

رحيل مالكولم

عندما قرر مالكولم برون هجر عمله معنا في مكتب وكالة الأسوشيتد برس، في

سايغون فى عام ١٩٦٥ أوضح لى سبب قراره ذلك، بأنه كان منذ فترة قد شعر بخيبة الأمل فى أن يكون لعملنا الصحفى أى تأثير على مسار السياسة الأميركية، وكان يرى أن أميركا تخوض الحرب بخطى واسعة دون اهتمام بالحقائق اليومية للتورط العسكرى الأميركى فى فيتنام، الذى استمر لوقت طويل على نحو متصل، والذى اتسم بقدر كبير من الشراسة والقسوة، دون أن يكون هناك فى الأفق أى أمل فى كسب الحرب.

فى ذلك الوقت الذى قرر فيه مالكولم برون ترك عمله فى مكتب وكالة الأسوشيتد برس فى سايغون، كان قد توصل إلى قناعة مفادها أن الكلمة المطبوعة لم تعد تجسد بفعالية قصة فيتنام.. ومن ثم فقد قرر العمل مراسلا صحفيابشبكة التليفزيون الأميركية «إيه. بى. سى» وكنت أراه فى الأسابيع الأولى لعمله الجديد فى شوارع سايغون بصحبة فريق العمل التليفزيونى. وقد ترك غياب مالكولم فراغا ملحوظا فى مكتب وكالة الأسوشيتد برس فى سايغون لم نستطيع معالجته، وذلك لمهاراته الصحفية التى لا تبارى فى تغطيته لأحداث الحرب، ولقدراته الفكرية التى وظفها فى خدمة مهنة الصحافة.

وعلى المستوى الشخصى كان غياب مالكولم قد ألمنى، فقد تعلمت منه الكثير، وكنت أعتمد عليه فى العمل والحياة، كذلك حزن هورست لمغادرة مالكولم مكتبنا، وجميعنا كنا نتساءل عن المستقبل الذى ينتظر مالكولم فى مجال عمله التليفزيونى الجديد، الذى يعتمد على الصورة والكلمة المنطوقة، كما يعتمد كوسيط على الشريط الفيلمى الأبيض والأسود الذى يستلزم إرساله بالطائرة من سايغون إلى نيويورك. وبالتالى فإنه يستغرق عدة أيام حتى يمكن إذاعته، ومن ثم، فإنه لا يستطيع منافسة الكلمة المطبوعة فى سرعة وصولها إلى المتلقى.

وانضم مراسلوا شبكات التليفزيون الأميركية «سى. بى. إس» إلى المراسلين الصحفيين لوكالتى أنباء الأستوشيتد برس و يونيتد برس، ولبعض الصحف العالمية المتواجدين بالعاصمة الفيتنامية سايغون، ومن بين هؤلاء المراسلين للتليفزيون الأميركى من شبكة «سى. بى. إس» «والتر كرونكايت وبيتر كالسكر وجاك لورانس ومورلى سيلفر» ومن شبكة «إن. بى. سى» «جاريك اتلى وجيم روبنسون» ومن شبكة «إيه. بى. سى» «لوسيوفى».

الفصل العاشر

الخلاف بين الإدارة الأمريكية والمراسلين

* الخلاف يتسع بين الإدارة الأميركية والمراسلين حتى طال القادة العسكريين بسايغون.
* جنرالات الحرب أقاموا فى غرف مكيفة والجنود يقتلون فى ساحات المعارك.
* زميلى كتب تقريرًا عن إحدى المعارك ويده تنزف دمًا من جراء اعتداء أميركى.
* سايغون قدمت لجنود الاحتلال ضروبًا من المتعة والتسلية للترويح عنهم.
* انتقدت خطة أميركا العسكرية فدخلت دائرة الغضب والنفوذ من البيت الأبيض.
* تقاريرنا الإخبارية أزعجت أسر الضباط المقاتلين بسايغون حتى أطلقوا عليهم "الموت المجانى".

ساعد وجود فرق العمل التليفزيونية فى «سايغون» على تقوية شوكتنا فى معركتنا التى كنا نخوضها ضد تقييد حرياتنا الصحفية، ومع مرور الوقت توافدت أعداد كبيرة من المراسلين التليفزيونيين إلى سايغون، وكانت تبدو عليهم مظاهر الثقة بالنفس والمرح وأناقة الملبس، ومن المراسلين التليفزيونيين الذين وفدوا إلى مسرح الحرب فى فيتنام جاءوا من أماكن هادئة مثل «هونغ كونغ، وطوكيو». وحتى الذين تم تعيينهم كمراسلين فى فيتنام كانوا يقيمون فى فندق كارافيللى وكونتيننتال فى سايغون لفترات لا تزيد على ستة أشهر، وكانوا شديدى الارتباط ببعضهم البعض.

واستطاع التليفزيون فى فترة وجيزة أن يبرهن على تفوقه فى التنافس القائم بينه وبين الصحافة فى مجال التغطية الإخبارية للحرب الفيتنامية،، وقد تأكد هذا التفوق عندما قام «سيفر» مراسل شبكة التليفزيون الأميريكية «سى. بى. إس» ومعه «هاثوك كان» المصور التليفزيونى و سجل الصوت بتغطيته الإخبارية المصورة لما حدث لقرية «كام نى» القريبة من القاعدة الجوية فى دانانغ والتى قامت قوات البحرية الأميركية بإنشاء تحصينات دفاعية حولها.

قصة درامية

استطاع مراسل شبكة تليفزيون «سى. بى، إس» الذى يعد واحداً من أفضل الكتاب فى التليفزيون الأميركى أن يقدم قصة إخبارية بالكلمة والصورة لقيام قوات البحرية الأميركية بإضرام النيران فى منازل قرية «كام نى» انتقاماً من القناصة «الفيتكونغ» الذين كانوا يتسللون من القرية ويهاجمون أفراد القوات الأميركية فى القاعدة العسكرية الجوية فى «دانانغ» وفى قصته الإخبارية المصورة قام سيفر بتصوير ثلاثين امرأة وطفلاً وهم ينتحبون، بعد أن فاجأتهم النيران التى التهمت بيوت القرية، ووجدوا أنفسهم فى العراء بلا مأوى، كما جاء فى فيلم سيفر مقابلات مع جنود البحرية الأميركية الذين أقروا بأن

أوامر صدرت لهم بإشعال النار فى بيوت القرية، كما نجح كل من سيفر عبر قصته التليفزيونية المصورة، وجون ويلر فى مكتبة وكالة الأسوشيتدبرس فى سايغون بتكذيب ادعاءات جنود البحرية الأميركية بأنهم قاموا بالتحقق من خلو بيوت القرية من ساكنيها قبل إشعال النيران فيها، وذلك بكشفهم عن رجل مسن وطفلة صغيرة كانا يختبئان فى قبو بيتهما من النار التى أشعلوها فيه، ولم يتمكنا من الفرار.

غضب الرأى العام

أثارت القصة الإخبارية المصورة مشاعر الرأى العام الأميركى، كما سببت حرجاً شديداً للرئيس الأميركى جونسون. وجاء رد فعل البحرية الأميركية ليطعن فى مصداقية مورلى سيفر مراسل شبكة تليفزيون «سى. بى. إس» وفى ولائه للولايات المتحدة الأميركية لكونه كندى الجنسية، وليطعن أيضاً فى صدق ما أورده فى تحقيقه المصور لبعض حقائق الحرب الدائرة فى فيتنام، وخلال فترة بعد الظهر التى أذيع فيها التحقيق التليفزيونى المصور استطاع مورلى سيفر أن يجلب لنفسه قدراً هائلاً من كراهية ومقت قوات البحرية الأميركية، لا يقل عن ذلك القدر الذى جلبته لنفسى بعد أكثر من عشر سنوات قضيتها فى تغطية أحداث حرب فيتنام.

وجاء اختيار المركز الرئيسى لوكالة الأسوشيتد برس فى نيويورك لزميلنا «إيد وايت» - ٤٢ عاماً - ليرأس مكتب الوكالة فى سايغون خلفاً لمالكولم برون، وقد سعدنا جميعاً لذلك الاختيار لخبرته التى تفوق خبرتنا بنحو عشر سنوات، عمل فيها بمكتب نيويورك، وبمكتب طوكيو، وخلالهما قدم لمكتب سايغون الكثير من العون قبل أن يشاركنا العمل به.

وكان إيد وايت المتخرج من مدرسة الصحافة فى جامعة ميسورى يحب حفلات ليالى الجمعة والسبت بقدر حبه للنساء، ويجد الوقت لكل منهما، ومثله فى هذا مثل بقية أفراد المكتب، فقد منحتنا رحى الحرب الدائرة والأخطار المحدقة بنا من كل جانب والقلق والتوتر ترخيصاً يعطينا الحق فى الانغماس فى ملذات سايغون، التى كانت تقدم لجيوش

الاحتلال ضروباً من المتعة والتسلية.. وفي تلك الأثناء كنت أقضى معظم الوقت في العمل، وفي حفلات اللهو التي كانت تجمعنا ببعض العسكريين الذين كنا نوجه الدعوة لهم على تعاونهم معنا في تغطياتنا الإخبارية، وكان الوقت الذى يتبقى لى لكى أقضيه في منزلي مع زوجتي «نينا» وطفلي «آندرو» الذى ولد في سبتمبر ١٩٦٤ يقل ويتناقص شيئاً فشيئاً.

في صيف عام ١٩٦٦ بلغ حجم القوة العسكرية الأميركية المتواجدة في فيتنام تحت تصرف الجنرال «ويستمور لاند» القائد العام من الضخامة والكبر ما جعله يعتقد أنه في استطاعة تلك القوات الكبيرة ليس فقط القضاء على الفيتكونغ، وإنما تحقيق النصر على كل الجيوش الشيوعية الموجودة على حدود فيتنام، وذلك بشن حرب تقليدية تشترك فيها السفن الحاملة للطائرات المقاتلة المتمركزة في بحر جنوب الصين. والقوات الجوية الموجودة في تايلاند وفيتنام الجنوبية، بالإضافة إلى الجنود والضباط الأميركيين البالغ عددهم أكثر من ثلاثمائة ألف جندى وضابط أميركي، وكان من الواضح أن الرئيس الأميركي جونسون قد أعطى الجنرال ويستمورر الضوء الأخضر لكى ينفذ خطته العسكرية، التي تقضى بشن هجوم بالطائرات المروحية لتدمير مواقع الشيوعيين والفيتكونغ قبل بدء القتال حتى يوفر لقواته الأرضية مجالاً أكبر للحركة والمناورة.

وفي معظم رحلاته الاستطلاعية لميادين القتال، والتي كانت تستغرق يوماً كاملاً كان ويستمور لاند القائد العام للقوات الأميركية في فيتنام يصطحب معه مراسلين صحفيين في الطائرة المروحية التي تقله إلى بعض القواعد العسكرية في «هام تان» و«فوك فنه» و«باولوك» وهناك يلتقى بالمسؤولين الأميركيين والفيتناميين الذين يصطفون لاستقباله وللتحدث معه، وكانت مثل هذه الرحلات تسفر عن قصص إخبارية تتودد إلى الجنرال ويستمور لاند وتتملقه، ولا تتطرق إلى أى نقد، أو حتى طرح وجهة نظر لا تتفق ووجهة نظره في المسائل الحربية، كما كانت صوره تملأ كل الصحف والمجلات العالمية في تلك الفترة.

توجيهات القائد

ولم يحدث أن وجهت إليّ دعوة واحدة من تلك الرحلات التى يقوم بها ويستمورلاند، ولم يحدث أيضاً أن تقدمت بطلب لكى أكون ضمن زملائى المرافقين له، بل إن ويستمورلاند فى إحدى جلساته الخاصة مع رؤساء المكاتب الصحفية فى سايغون قد تحدث عن الأسلوب الذى أكتب به تقاريرى الإخبارية عن مواقع القتال، وأبدى عدم رضائه عنه، مؤكداً على ضرورة أن يراعى الصحفيون فى كتاباتهم معنويات كل من الجنود والضباط الأميركيين فى فيتنام والمواطنين الأميركيين الذين دفعوا بأبنائهم لخوض حرب على بعد آلاف الكيلو مترات من الوطن، كما أكد أيضاً ويستمورلاند فى حديثه لرؤساء المكاتب الصحفية بعدم الكشف عن النوايا والمقاصد الأميركية حتى لا يستغلها العدو فى تحقيق مكسب له، وبعدم إضعاف الثقة بقدرات الولايات المتحدة الأميركية فى عيون حلفائها.

مع تزايد حدة الحرب فى فيتنام كبر حجم الخسائر التى تكبدتها مكاتب الصحف ووكالات الأنباء العالمية، فقد لقى عدد من الصحفيين والمصورين مصرعهم أثناء مرافقتهم للقوات الأميركية والفيتنامية على عمليات قتالية ضد الشيوعيين والفيتكونغ. كما أصيب عدد منهم أيضاً بجراح.. ومن بين هؤلاء المراسلين الصحفيين والمصورين الذين راحوا ضحية الحرب المصور «تشارلى تشيلابه» من سنغافورة. و«سام كاستان»أحد كبار محررى مجلة «لوك» الأميركية، والمصور «رونالد غلافر» كما تعرض الكاتب الفرنسى «برنار فول» الذى أصدر كتاباً عن الحرب التى خاضتها فرنسا فى آسيا إلى إصابات بالغة السوء.

وفى مهمات صحفية بساحة الحرب الفيتنامية فقد مكتب وكالة الأسوشيتد برس فى سايغون المصورين هنرى هويت وجون نانس، أما الصحفى جون ويلر فقد أصابته شظيه فى ذراعه أثناء تواجده مع كتيبه مدفعية أميركية فى ميدان القتال نتيجة انفجار قنبلة ألقاها أحد الجنود الأميركيين بعد اصطدامها بشجرة ضخمة، وعلى الفور قام جون ويلر بقيادة السيارة الجيب متوجها إلى مكتب وكالة الأسوشيتد برس، وهناك جلس إلى جهاز التلكس لكى يكتب قصته الإخبارية، ويبعث بها إلى نيويورك والدماء تنزف من

ذراعه المصابة.

وفى خريف ١٩٦٦ تلقى المراسلون الحربيون الميقمون فى سايغون أنباء لم تسرهم،، فقد قامت إحدى المجلات الأميركية «القائد الجديد» بنشر مقال للمؤرخ العسكرى «إس. إل. إيه مارشال» بعنوان«إخفاق الصحافة والمراسلين الحربيين فى فيتنام» هاجم فيه الصحفيين فى سايغون بأنهم فشلوا فى نقل صورة حقيقية عن أحداث الحرب الدائرة فى فيتنام. وذلك إما لعدم اهتمامهم بمجرياتها، أو لخوفهم من خطر التواجد فى ساحة الحرب، كما اتهم المؤرخ العسكرى مارشال المراسلين بأن كلاً منهم كان يمنى نفسه بالحصول على جائزة «بوليتزر» فى الصحافة، ومن ثم فكان اهتمامهم يتركز فقط حول كتابة قصص إخبارية تتناول التظاهرات فى الشارع الفيتنامى وأحداث الشغب والتمرد والعنف بالإضافة إلى القصص الإخبارية المصورة التى تتعرض للغريب والطريف الذى يلفت نظر وانتباه القارئ الأميركى، الذى يجهل الكثير عن الشعوب الآسيوية، وتقاليدهم وعاداتهم.. وفى الوقت نفسه تقريباً أفردت مجلة «تايم» الأميركية أيضاً صفحة للمؤرخ العسكرى «مارشال» لكى يلقى باتهاماته ضد الصحفيين فى سايغون، ودن أن توفر مجلة تايم فرصة لوجهة النظر المقابلة لكى تعبر عن رأيتها فيما نسبت إليها من اتهامات.

والشئ الذى أدهش المراسلين الصحفيين فى سايغون هو أن مارشال الذى هاجمهم لم يمكث فى سايغون سوى شهرين فقط قضاها مع كبار القادة العسكريين الأميركيين فى القاعدة العسكرية «آن. خى» وكانت جولاته كلها على متن طائرات عسكرية مروحية أميركية، ولم يحدث أن وطأ بقدمه أرضاً دارت فوقها معركة حربية حقيقية، ومن ثم فإن المادة التى ضمنها مقاله المنشور فى المجلة الأميركية، وكتابه الذى أصدره فيما بعد تحت عنوان «معارك جنوب آسيا» لم يخرج عن كونها مقابلات أجراها مع شهود عيان للمعارك الحربية فى فيتنام بعد وقت من وقوعها.

البحث عن الشهرة

وقد استقر في وجداننا جميعاً أن المؤرخ العسكرى مارشال الذى أصدر كتباً عن الحرب الكورية، وكانت من أكثر الكتب مبيعاً فى ذلك الوقت، كان يسعى جاهداً لكى يجلب لنفسه ولكتابه الجديد الشهرة والرواج الذى عانى من افتقادهما دون أدنى اهتمام من جانبه بأن يحصل على هدفه بالنيل من جهود المراسلين الصحفيين فى سايغون، وتشويه صورتهم أمام الرأى العام، وقد أقر الكولونيل المتقاعد «ديفيد هاكوورت» - الذى رافق مارشال فى زيارته لفيتنام - ما انتهينا إليه فيما يتصل بمصداقية مارشال، عندما كتب فى وقت لاحق عن رغبة مارشال الشديدة فى أن يستعيد بكتابه الجديد عن الحرب الفيتنامية موقعه على قائمة أكثر الكتب مبيعاً، ومن بين الذين بعثوا بردود ساخطة على ما جاء فى مقال مارشال بمجلة «القائد الجديد» الأميركية رئيس وكالة الأسوشيتد برس ويزغلافر.

فى إحدى القصص الإخبارية التى لم تلق قبولاً لدى ويستمور لاند - القائد العام للقوات الأميركية فى فيتنام - كتبت عن خططه الحربية شديدة الخطر على أرواح الجنود والضباط الأميركيين والتى يعمد فيها إلى إنزال وحدات من سلاح المدفعية الأميركية بالقرب من مواقع العدو فى الغابة الغرض منها أن تكون مجرد طعم ، وعندما تتقدم قوات الشيوعيين والفيتكونغ فى اتجاه الوحدة العسكرية «الطعم» تبدأ قوة عسكرية أميركية ضخمة فى شن هجماتها التى تستهدف القضاء على القوة المعادية بكامل أفرادها، وقد أشرت فى قصتى الأخبارية إلى مصرع وإصابة كل أفراد إحدى الوحدات العسكرية الأميركية التى دفع بها فى الغابة لإغراء قوات العدو بالخروج من مكانها، وذلك قبل أن تتمكن القوات الأميركية من شن هجومها الكبير، كما أشرت إلى الثمن الباهظ الذى دفعه ما يقرب من خمسين جندياً وضابطاً أميركياً ما بين قتيل وجريح فى إحدى العمليات التى خطط لها ويستمور لاند القائد العام للقوات الأميركية فى فيتنام.

الموت المجانى

وعند نشر قصتى الإخبارية استشاط الجنرال «جون نورتون» غضباً لردود الأفعال التى أحدثها نشر القصة فى أكثر من صحيفة أميركية، وعندما ناقشته فى أمر صحة كل ما جاء فى تصورى الذى بعثت به إلى نيويورك أجاب بأن المشكلة لا تكمن فى صحة أو عدم صحة ما جاء فى قصتى الإخبارية، وإنما الذى يهمه هو هذا النوع من الرسائل الصحفية التى أكتبها، وتتسبب فى إزعاج أسر الجنود والضباط الأميركيين الذين عبروا عن سخطهم الشديد لتعريض أبنائهم لخطر الموت المجانى عندما يوضعون طعماً مغرياً للقوات المعادية.

كانت فيتنام فى ذلك الوقت مستنقعاً للمصالح الخاصة والأحقاد والضغائن والفساد الذى ينخر كالسوس فى أعمدة الحكم، ويضعف من مقاومة النظام للشيوعيين. وكان رئيس الوزراء الشاب «نجوين كاوكى» آخر الرجال العسكريين الذى أمسكوا بمقاليد الحكم بعد الانقلاب الذى أطاح بالرئيس «نجو دينه ديم» قد أكد فى إحدى المقابلات الصحفية التى أجريت معه رغبته فى غزو فيتنام الشمالية وعلى إعجابة بالقائد «أدولف هتلر».

وأكثر الأصوات المعارضة للوجود العسكرى الأميركى فى فيتنام كان صوت المستشار العسكرى الأميركى الكولونيل المتقاعد «جون بول فان» الذى اتهم البيروقراطيين العسكريين الأميركيين بأنهم كانوا وراء التورط الأميركى فى حرب أميركية غير ضرورية فى فيتنام، وقد ألقى «فان» بتبعية ذلك التورط الأميركى فى فيتنام على الجنرالات الأميركيين الجالسين على مقاعدهم الوثيرة فى نوادى الضباط المكيفة الهواء فى العاصمة الفيتنامية سايغون.

كانت معرفة كون بول فان بالحرب الفيتنامية وبالقوات الأميركية أكثر عمقاً من معرفة أى شخص آخر، وقد عارض معارضة شديدة أسلوب ويستمورلاند فى عملياته القتالية الذى يعتمد على إلقائه بإحدى وحداته العسكرية كطعم فى غابات فيتنام، ثم الدفع بقوات كبيرة لتدمير القوات المعادية التى أخرجها الطعم من مخابئها، كما كان فى

اعتقاد «جون بول فان» أن الطريق الوحيد أمام الأميركيين لتحقيق النصر فى حرب فيتنام لابد له من أن يمر عبر الفيتناميين، وذلك من خلال تدعيم وتطوير الجيش الفيتنامي وتعويد قيادته على عدم الاعتماد على القوات العسكرية الأميركية، والاعتماد فقط على قدراتهم الذاتية.

كان «جون بول فان» يتوق لأن يسمع صوته إلى الدوائر السياسية الأميركية، وإلى «هارى ماكفرسون» مساعد الرئيس الأميركى «جونسون» ووزير الدفاع روبرت ماكنمارا، وكان فى اعتقاد فان أن المعلومات التى كانت تصل وزير الدفاع الأميركى لا تمثل حقيقة الوضع فى فيتنام، وأنه إذا ما أدرك ماكنمارا أن المعلومات التى تصله لا يمكنه الاعتماد عليها فسوف يعيد النظر فى تأييده لسياسات ويستمورلاند.

لم أكن أشارك فان ثقته فى وزير الدفاع الأميركى، فمن واقع قيامى بعمل تغطيات إخبارية لرحلات ماكنمارا فى فيتنام لاحظت عدم توفر الرغبة لديه للقيام بأى عمل من شأنه أن يواجه به بعض الحقائق غير المشجعة، كما لاحظت أيضا عدم اهتمام ماكنمارا بحياة الجنرالات الأميركيين الذين يلقون مصرعهم فى ساحة الحرب.

اتفق كل من جون بول فان وصديقه دانييل ايلينبرغ ضابط البحرية السابق فى وزارة الدفاع الأميركية على أن الطريق الوحيد لإقناع ماكنمارا بالأخطاء التى وقعت فيها وزارته هو أن يزوده بالمعلومات والآراء التى تبرهن على فشل السياسات العسكرية التى تلقى بأعباء الحرب فى فيتنام على عاتق القوات الأميركية و حدها، كما اتفق على ضرورة التحدث فى هذا الشأن إلى مساعدى «ماكنمارا» القريبين منه.

وفى ذلك الوقت أيضا كتبت تقريرا إخباريا تم نشره فى الصحف الأميركية على نطاق واسع أشرت فيه إلى التغير الكبير الذى حدث فى السياسة العسكرية الأميركية فى فيتنام خلال الفترة التى قضاها ويستمورلاند القائد العام للقوات الأميركية فى العاصمة الفيتنامية، والتى استمرت لمدة ثلاث سنوات، وقد حددت مظاهر ذلك التغيير فى مسار الحرب الفيتنامية الأعباء المالية التى تتحملها أميركا فى كل يوم والتى تزايدت بنحو سبعة وخمسين ضعفا عما كانت عليه تلك الأعباء قبل ويسمورلاند. كما ضمنت تقريرى

الإخبارى أيضاً الأعداد المتزايدة من القتلى والجرحى الأميركيين التى بلغت زيادته بنحو خمسين ضعفاً عما كانت عليه تلك الأعداد قبل تولى ويستمورلاند قيادة القوات الأميركية فى فيتنام.

وقد تضمن أيضاً تقريرى الإخبارى الذى تناول السياسة العسكرية الأميركية فى فيتنام خلال فترة ويستمورلاند الانتقادات التى وجهت إلى ويستمورلاند، وتعرضت لطموحاته التى لا حد لها لتدعيم نفوذه وقوته، والتى تركزت فى استمرار مطالبته بمزيد من القوات والعتاد لنشرها فى فيتنام، بالرغم من أن مهمته فى الأساس كانت لا تخرج عن المعاونة فى بناء القدرات القتالية للجنود والضباط الفيتناميين التى تمكنهم من خوض حربهم بأنفسهم.

أما القصة الإخبارية التى شاركت فى كتابتها مع «كيلى سميث» وأوصلت علاقتى بالجنرال ويستمورلاند إلى طريق مسدود، فقد اتخذت شكلاً مقارناً بين أحداث يوم فى حياة جندى أميركى عادى فى فيتنام قمت أنا بتسجيلها، قد استقى «كيلى» الجزء الخاص به من قصتنا الإخبارية من الجلسة التى جمعته مع ويستمورلاند على مائدة طعام الإفطار ومشاهدته لأحداث اليوم الذى قضاه كيلى مع ويستمورلاند. كما استقيت أنا تفاصيل الجزء الذى كتبته من القصة الإخبارية من خبرتى الطويلة التى اكتسبتها خلال تواجدى فى الوحدات العسكرية المختلفة وسط الجنود الأميركيين فى المعسكرات وقواعده منتشرة فى الغابات الفيتنامية.

الفصل الحادى عشر

القصة التى أزعجت واشنطن

* ٤٠٠ مراسل صحفى و ٤٦٦ ألف جندى أميركى بفيتنام أصبحوا حديث العالم.
* مقتل ١٣ ألف أميركى والبقية فى الطريق.
* قصة الرجال المنسيين فى "بن هت" أزعجت واشنطن.
* وزير الدفاع الأميركى يفقد حماسه لماكينة الحرب ويقرر وقف إرسال المزيد من القوات لسايغون.
* ٨٠٠٠ من الفيتكونغ يسيطرون على سايغون فى أعياد الميلاد.
* الأميركيون يشعرون بخيبة الأمل فى تحقيق أى انتصار بعد فوات الأوان.

في صيف عام ١٩٦٧، أكملت أنا و«هورست» خمسة أعوام قضيناها في العمل الصحفي في فيتنام، وقد نظمنا حفلاً بهذه المناسبة حضره ثلاثمائة مدعو في فندق «رويال» القريب من مكتب وكالة أنباء الأسوشيتد برس الذى نعمل به في سايغون، وهو الفندق الذى كان يجتذب إليه المستعمرين الفرنسيين في العشرينيات والثلاثينيات، في ذلك الوقت وصل عدد المراسلين الصحفيين في سايغون إلى ما يزيد على أربعمائة مراسل حربى، غير المتزوج منهم الذى يعيش في حجرة بأحد الفنادق أويشارك آخرين في شقة سكنية، أما المتزوجون منهم، والذين يعيشون مع زوجاتهم في سايغون فيزيد عددهم على خمسة وعشرين من بين هؤلاء «آر. ديبلو، أبل» من صحيفة «نيويورك تايمز»، و«توم باكلى» من مجلة «تايمز»، و«ماينارد باركر» و«وليم توهى» من مجلة «نيوز ويك»، و«لى لسكاز» و «روبرت كيزر» من صحيفة «واشنطن بوست»، و«روبرت بيزور» من صحيفة «ديترويت نيوز»، و«جو فريد» من صحيفة «نيويورك ديلى نيوز» وأنا.

وبمغادرة إيدوايت مكتب وكالة أنباء أسوشيتد برس في سايغون عائداً إلى الولايات المتحدة الأميركية حل محلة «بوب تاكمان» رئيساً للمكتب. وفي ذلك الوقت بعث غالافر من المكتب الرئيسى لوكالتنا في نيويورك برسالة يعرض فيها على هورست وأنا العمل في أحد المكاتب الأخرى للوكالة في مدينة أخرى غير سايغون التى مكثنا فيها أ كثر من خمسة أعوام، لكننى بعد أن تناقشت مع زوجتى «نينا» حول عرض غالافر كتبت إليه موضحاً رغبتى في البقاء في سايغون لمدة عامين آخرين.

وفي خريف عام ١٩٦٧، نما إلى علمنا أن روبرت ماكنمارا وزير الدفاع الأميركى بدأ يفقد حماسة لماكينة الحرب الدائرة في فيتنام، إلى درجة أنه رفض طلباً تقدم به ويستمورلاند القائد العام للقوات الأميركية في فيتنام من أجل زيادة عدد القوات الأميركية على العدد الموجود بالفعل هناك،م ويقدر بما يقرب من ٤٦٦ ألف جندى وضابط

أميركى، وقد تضمن رفض ماكنمارا أى زيادة فى عدد القوات الأميركية فى فيتنام تأكيدات ضرورة إشراك القوات الفيتنامية فى الحرب، وذلك بعد خيبة الأمل التى منى بها الأميركيون فى إمكان تحقيق انتصار سريع فى فيتنام، وبعد أن تزايدت أعداد القتلى من الجنود الأميركيين والتى بلغت نحو ثلاثة عشر ألف جندى.

تساؤلات الرأى العام

فى ذلك الوقت أيضاً، كان الرأي العام العالمى فى فيتنام، وكان الأميركيون فى داخل الولايات المتحدة لا يكفون عن النقاش والجدل حول الأموال والدماء الأميركية التى تسفح كل يوم على أرض فيتنام فيما لا طائل فيه ولا نفع لهم، وأن تحقق النصر على الشيوعيين والفيتكونغ.

وفى نهاية عام ١٩٦٧ ، كتبت تقريراً إخبارياً عن مجمل الأحداث التى شهدتها ساحة الحرب فى فيتنام، وذلك بناء على طلب المكتب الرئيسى لوكالة الأسوشيتد برس فى نيويورك، ومن خلال معاصرتى لتلك الأحداث خلال قيامى بعمل تغطيات صحفية لها، ومن خلال مناقشاتى حول ملابسات الحرب مع «جون بول فان» وغيره من الضباط الأميركيين غير المتحيزين لوجهة نظر الجنرال ويستمورلاند، انتهيت فى تقريرى إلى أن عام ١٩٦٧ ، هو أشبه بالبروفة «الجنرال» الأخيرة التى تسبق مباشرة رفع الستار عن عام ١٩٦٨ الذى سيشهد أكبر المعارك دموية وشراسة، وذلك بالرغم من التفاؤل الذى ساد جانبى الصراع، فقد كان القادة العسكريون الأميركيون ينظرون إلى حرب فيتنام نظرتهم المتفائلة إلى الحرب العالمية الثانية، وكذلك كان الشيوعيون والفيتكونغ يرون أن النصر حليفهم مثلما كان حليفهم عندما تمكنوا من طرد الفرنسيين من البلاد فى الخمسينيات.

وقد جسد «هانسون بولدوين» الكاتب البارز فى الشؤون العسكرية بصحيفة «نيويورك تايمز» تفاؤل الجانب الأميركى فى الصراع. وذلك فى تقريره الإخبارى الذى

تعرض لتحليل أحداث الحرب الفيتنامية خلال عام كامل مضى وتنبؤاته حول مستجدات العام الجديد، وفى تقريره تبنى وجهة نظر صديقه الجنرال ويستمورلاند القائد العام للقوات الأميركية فى فيتنام.

هدنة مؤقتة

وجاءت ليلة رأس السنة بمنزلة هدنة مؤقتة فى ساحة القتال، أما بالنسبة للشباب الأميركى الذى يعمل بالسفارة الأميركية فى سايغون وفى بعض الهيئات والمنظمات التابعة للولايات المتحدة فى العاصمة الفيتنامية، وبالنسبة أيضاً لكبار قادة القوات الأميركية الشديدى التفاؤل بالعام الجديد، فقد أرادوا ألا تمر ليلة رأس السنة دون احتفال فى مقر السفارة الأميركية بشارع «فان تان جيان» القريب من كوبرى «بين هوا» يعبر فيه الأميركيون عن ثقتهم فى النصر العسكرى الذى سيأتى به عام ١٩٦٨.

عام الموت

مع بداية العام الجديد، وفى يوم من أيام العيد «تيت» الذى يحتفل به الفيتناميون أصاب الذعر سكان مدينة سايغون البالغ عددهم نحو أربعة ملايين نسمة، وخلت الشوارع إلا من قوات الفيتكونغ التى بدأت فى شن هجوم ضد السفارة الأميركية والقصر الرئاسى، وفى الوقت الذى قام فيه سكان العاصمة الفيتنامية بالاختباء خلف أبواب ونوافذ بيوتهم المغلقة، قام المسلحون من الفيتكونغ بإحكام سيطرتهم على الشوارع والمعابد وبعض المنشآت الحكومية.

أربعة آلاف من المقاتلين الشيوعيين والفيتكونغ قاموا بمهاجمة المركز التجارى لمدينة سايغون، وضعف هذا العدد من الشيوعيين والفيتكونغ كانوا يهاجمون القرى والمدن الفيتنامية فى الوقت نفسه، وقد أعدوا للهجوم بنقل أسلحة إلى سايغون داخل شاحنات

تحمل الزهور ومتوجهة إلى أسواق العاصمة، وكانت أصوات إطلاق قذائف مدافع المورتر والصواريخ التى فى حوزة الشيوعيين والفيتكونغ تتردد فى كل أنحاء مدينة سايغون التى فرضت حظر التجول طوال ساعات الليل والنهار.

ومع استمرار القتال فى شوارع سايغون لليوم الثالث على التوالى أغلق المركز التجارى للمدينة أبواب محاله ومتاجره، ولم يبق مفتوحاً من هذه المحال غير التى تتعامل فى حياكة أكفان الموتى، وفى صناعة التوابيت الخشبية حتى يمكن إخلاء الشوارع من جثث القتلى ومواراتهم التراب فى مقابر جماعية قامت بولدوزرات ضخمة فى إعدادها بالقرب من الطرف الغربى لمدينة سايغون حتى يمكن أن تستوعب كل ما ينتج عن ماكينة القتل التى لا تكف عن الدوران فى العاصمة الفيتنامية.

إحدى هذه المقابر الجماعية امتلأت بستمائة جثة لم تفلح المحاولات التى بذلت لتغطيها بمسحوق الجير الحى فى منع تصاعد رائحتها الكريهة، ومقبرتان جماعيتان أخريان امتلأتا بجثث نساء وأطفال ورجال كبار السن، قال مسؤولون حكوميون إنهم جميعاً من الفيتكونغ، بعد شن القوات الفيتنامية والأميركية هجمات انتقامية ضد قرى بكاملها بدعوى أنها كانت مأوى للشيوعيين والفيتكونغ.

كان من غير المستحب أن نتحدث عن قوات الفيتكونغ وقوات هانوى النظامية باعتبارها قوات على درجة عالية من التدريب، وتدافع عن قضية ثورية، كما وجه لنا كبار محررينا فى المكاتب الرئيسية فى نيويورك النصح بالعدول عن إطلاق وصف الحرب الأهلية على الحرب الدائرة فى فيتنام. بالرغم من أن كل مواطن فيتنامى يعرف حقيقة الحرب الأهلية التى تجرى على أرض بلاده.

ونتيجة للتعتيم المفروض على حقائق الوضع فى فيتنام من قبل الإدارة الأميركية، فإن الرأى العام الأميركى كان فى حيرة من أمره، فالحكومة الأميركية لا تكف عن إخباره بأن القضاء على الشيوعيين سيتحقق لا محالة وأن عودة الجنود الأميركيين إلى الوطن وشيكة الحدوث، ولكن أحداث الهجوم الذى شنه الشيوعيون والفيتكونغ فى يوم العيد

الفيتنامي «تيت» تلقى بظلال من الشك حول مصداقية الخطاب الأميركي فيما يتصل بالحرب الفيتنامية، وتلقى بالضوء على الأعداد الهائلة للشيوعيين، والفيتكونغ الذين قاموا بالهجوم الكبير على سايغون العاصمة، وعلى قرى ومدن عديدة في فيتنام، كما أظهر ذلك الهجوم بما لا يدع مجالاً للشك القدرات القتالية العالية للفيتكونغ والشيوعيين التى اكتسبوها من ممارستهم لأعمال القتال لفترات طويلة وتحت أقصى الظروف.

مخاوف زوجتي

في تلك الأثناء عبرت عائلة زوجتي «نينا» عن مخاوفها وخشيتها من أن تكون هدفًا لغضب قوات الشيوعيين والفيتكونغ التى تسيطر على معظم أحياء سايغون العاصمة، بسبب هروبها من هانوى منذ سنوات. لكن «تاو» الخادمة قالت في صوت واثق إنها لا تخشى على نفسها من القوات الشيوعية المهاجمة التى تهاجم أثرياء الفيتناميين والأميركيين، ولا تلحق أى أذى بالفقراء أمثالها.

وقد أدهشتني كلمات الخادمة الفيتنامية «تاو» المتعاطفة مع القوات الشيوعية والفيتكونغ، على الرغم من عدم تأييدها الكامل لهم، وجعلتني كلماتها أتساءل عما إذا كان الملايين من الفيتناميين الفقراء بشاركون الإحساس بنفس مشاعر التعاطف للشيوعيين والفيتكونغ، لكنني لم أحاول أن أضمن تساؤلي هذا في أحد المتابعات الإخبارية التي كنت أبعث بها إلى مكتب وكالة أسوشيتد برس في نيويورك.. لأن الأجواء السياسية في تلك الأوقات لم تكن تسمح بمثل هذه الأفكار والتساؤلات.

لم تستطيع قيادة القوات الأميركية في فيتنام أن تقدم تفسيرًا معقولاً للهجوم الكبير الذى شنه الشيوعيون والفيتكونغ في يوم احتفال فيتنام بعيد «تيت» وذلك لانشغال كبار قادة الأميركيين في فيتنام بالتهوين من قدرات الفيتكونغ والشيوعيين القتالية. حتى أن الجنرال ويستمورلاند القائد العام للقوات الأميركية في فيتنام قال في مقابلة أجراها معه ويز غالافر رئيس وكالة الأسوشيتدبرس خلال زيارة له في سايغون: «إن

الهجوم الذى شنته القوات الشيوعية وقوات الفيتكونغ على سايغون هو آخر عملية قتالية يائسة يقومون بها قبل أن تلحق بالشيوعيين الهزيمة المؤكدة» . وأضاف ويستمورلاند فى حديثه إلى غالافر بصوت الواثق أن كسبه الحرب أمر واقع لا محالة.

اتسع نطاق المعارك التى خاضتها قوات الشيوعيين والفيتكونغ ضد الفيتناميين والأميركيين، من سايغون العاصمة إلى كل أنحاء فيتنام الجنوبية فى القرى والمدن والغابات وحقول الأرز،وقد أكدت التقارير الصحفية القادمة من الريف الفيتنامي والغابة الفيتنامية على عنف القتال الدائر هناك، وعند عودة إيدى آدامز من مدينتي «ماى ثو» و«فنه لونج» فى دلتا الميكونغ اطلعنا على الصور التى جلبها معه، وتصور مدى الدمار والخراب الذى حل بكل أنحاء البلاد، كما أخبرنا عن الشعب الفيتنامي الذى كان يقابل أحداث الحرب الدائرة على أرضه بالصمت، وكان الغضب والحنق يعترى الوجوه الفيتنامية عندما تلتقى بالأميركيين الذين يعتقدون أنهم مشعلوا الحرائق وحاملوا المتفجرات والقنابل وقذائف المورتر والصواريخ.

وفى زيارة لى لمدينة «بن ترى» إحدى المدن الواقعة على نهر«دلتا الميكونغ» كنت أحد شهود العيان لقيام القوات الأميركية بالاشتراك مع قوات حكومة جنوب فيتنام بتدمير المدينة الصغيرة التى يبلغ عدد سكانها ٣٥ ألف نسمة، وقد تراوحت أعداد القتلى فى ذلك الهجوم الذى شنته طائرات مقاتلة، واستمر لمدة خمسين ساعة، ما بين خمسمائة وألف قتيل لم يمهلهم القصف الجوى العنيف من الهروب إلى الشمال، وقد جاء فى تعليق أحد العسكريين الأميركيين برتبة ميجور على ذلك الهجوم الذى دمر المدينة بكاملها وسواها بالأرض أنه كان لابد من تدمير المدينة حتى يمكن إنقاذها من بعض الشيوعيين والفيتكونغ المختفين داخلها.

ترقية غير منطقية

أصدر الرئيس الأميركى جونسون فى ٢٣ مارس ١٩٦٨ قراراً بترقية ويستمورلاند،

وهى الترقية التى قالت عنها صحيفة أنباء سايغون المملوكة للفيتناميين بأنها أشبه بركلة إلى أعلى الدرج.. وحل الجنرال «كريتون أبرامز» محل ويستمورلاند فى منصب القائد العام للقوات الأميركية فى فيتنام، وبعد أيام قليلة كلفنى غالافر رئيس وكالة أنباء أسوشيتد برس بكتابة تقرير أقيم فيه الوضع فى فيتنام لإلقائه فى الاجتماع السنوى لمجلس إدارة الوكالة فى نيويورك فى شهر أبريل.

وفى اليوم السابق لوصولى إلى نيويورك صرح الرئيس الأميركى جونسون بأنه لا يرغب فى إطالة أمد الحرب فى فيتنام، وألقى باللوم فى هذا الشأن على فيتنام الشمالية، وخلال مقابلتى لبعض المسؤولين فى وكالة أنباء أسوشيتد برس فى نيويورك أدركت أنهم مقتنعون تماماً بأن الحرب فى فيتنام فى حكم الانتهاء، وهناك فى «سنترال بارك» فى نيويورك شاهدت المتظاهرين المناهضين للحرب الفيتنامية وهم يحملون أعلام الفيتكونغ. تلك الأعلام التى لم أشهد واحداً منها طوال سنوات عملى فى سايغون.

وكان أن طلب منى السيناتور الديمقراطى المحافظ «هارى بيرد» عضو مجلس الشيوخ الأميركى عن ولاية فيرجينيا أن أدلى بشهادتى عن الحرب فى فيتنام أمام إحدى لجان المجلس المهتمة بالمسائل العسكرية ، لكننى اعتذرت له لعدم رغبتى فى الدخول كطرف فى النقاش والجدل الدائر فى وسائل الإعلام الأميركية حول الحرب الفيتنامية، وأيضاً تلقيت رغبة من «روبرت كينيدى» الذى كان فى ذلك الوقت يقود المرحلة التمهيدية فى حملته الدعائية للترشيح فى منصب الرئاسة الأميركية، وفيها يطلب منى إعداد مذكرة موجزة تتناول أوضاع الحرب الفيتنامية.

وقبل مغادرتى نيويورك عائداً إلى «سايغون» علمت من «كيث فولر» أحد مسؤولى وكالة أسوشيتد برس بأن الرئيس الأميركى جونسون قد وجه الدعوة لعدد من من مسؤولى الوكالة لتناول الغداء معه فى مكتبه البيضاوى بالبيت الأبيض، وخلال الحديث الذى دار بينهما حول مسائل وأمور كثيرة، سأل الرئيس الأميركى مستفسراً فى شئ من الامتعاض قائلاً: «ألم يمكث ذلك الأسترالى بيتر آرنت طويلاً جداً فى فيتنام؟».

العودة إلى سايغون

عدت إلى فيتنام فى آواخر صيف عام ١٩٦٨ ، وأنا مقتنع بأنه لن يمر وقت طويل حتى تنتهى الحرب فى فيتنام، وذلك بسبب محادثات السلام التى كانت قد بدأت فى باريس، وأيضا لتوقف القصف الجوى فى بعض مناطق الصراع، بالإضافة إلى الحملة الانتخابية التى قادها نيكسون من أجل الفوز بمنصب الرئاسة الأميركية، والتى ركز فيها على وعده الذى قطعه على نفسه أمام الناخبين أنه بصدد وضع خطة سرية لإنهاء الحرب فى فيتنام، ذلك الوعد الذى ساعده كثرا فى الفوز برئاسة الولايات المتحدة الأميركية.

وعند زيارتى للريف الفيتنامى شاهدت كلاً من طرفى الصراع وهما يتسابقان فى تأكيد حق كل منهما فى مساحات الأرض والقرى والمدن التى يسطرون عليها توقعا لوقف وشيك الحدوث فى إطلاق النار يعقبه إنهاء حرب النيران، وبدء صراع سياسى يحاول فيه كل طرف أن يكسب لنفسه أكبر قدر من الكسب على موائد المحادثات والمفاوضات.. وفى هذا الصدد قمت بالكتابة عن «حرب الإعلام» المتوقعة والتى ستبدأ فى اليوم الذى يعلن فيه وقف إطلاق النار بين الجانبين. حكومة سايغون والشيوعيين، وهى الحرب السياسية التى يتنافس فيها كل من الطرفين على قرى ومستوطنات كانت قد شهدت نزاعا دمويا لعدة سنوات.

لكن وقف إطلاق النار المنتظر بين طرفى الصراع فى فيتنام لم يحدث. لأن إدارة الرئيس الأميركى نيكسون بدلاً من أن تحاول إنهاء الحرب الفيتنامية على وجه السرعة، وضعت فى خطتها أن قلب الصفحة الأميركية من كتاب الحرب فى فيتنام لابد له أن يحدث بانسحاب تدريجى للقوات الأميركية من جنوب فيتنام. ذلك الانسحاب الذى يحفظ على الإدارة الأميركية ماء الوجه، ويساعد على بناء القدرات القتالية لقوات فيتنام الجنوبية التى تمكنها من المحافظة على درجة استعدادها لأية معارك قد تنشأ فى المستقبل.

وبدأت الصحافة فى «سايغون» تكتب عن الخطوات المعقدة لعملية انسحاب القوات الأميركية فى فيتنام، وعن معنويات الجنود الأميركيين الباقين هناك لتقديم المساعدة

والعون للقوات الفيتنامية، وعن معسكر القوات الأميركية الخاصة فى (بن هت) الذى تعرض للحصار من قبل الشيوعيين والفيتكونغ.

وفى ٢٦ يونيو ١٩٦٩ الذى كان يوافق مرور سبع سنوات على قدومى إلى فيتنام، استطعت تدبير زيارة لى إلى معسكر «بن هت» بواسطة إحدى الطائرات المروحية التابعة للجيش الأميركى، وكان معى فى هذه الرحلة زميلى المصور «أولى نونان» بمكتب وكالة أسوشيتد برس. و«دون ويبستر» المراسل التليفزيونى لشبركة «سى. بى. إس» الأميركية وفريق العمل المصاحب له، وقد تحققت بنفسى من المعنويات المنخفضة للجنود والضباط الأميركيين فى المعسكر، الذى يقع على أحد التلال القريبة من الحدود مع (لاوس) ومن معاناتهم النقص فى مياه الشرب النقية. وفى العلاج المناسب للجرحى، نتيجة تعرض المعسكر لقذائف مدافع المورتر، وفى عدم توافر الطائرات لحمل المصابين إلى أماكن يتوفر فيه العناية الطبية.

وكان معسر «بن هت» نموذجاً لأزمة الثقة فى مصداقية الإدارة الأميركية التى خططت لانسحاب تدريجى لقواتها من فيتنام دون أن تسعى لوضع حل مناسب يوقف إطلاق النار بين المتقاتلين، ودن أى رغبة للإدارة الأميركية لكى تعلن عن هزيمتها وعن خسارتها الحرب فى فيتنام.

وفى القصة الإخبارية التى بعثت بها إلى مكتب وكالة أسوشيتد برس فى نيويورك، و نشرتها صحف أميركية كثيرة تحت عنوان «الرجال المنسيون فى بن هت».. ضمنتها قدراً كبيراً من المرارة التى يستشعرها الجنود والضباط الأميركيون الموجودون، بالمعسكر، وكان من نتيجة نشر قصتى الإخبارية أن تقدم الجنرال إيرلى ويلر القائد العام الأميركى فى فيتنام بشكوى ضدى إلى عضو مجلس الشيوخ الأميركى السيناتور هارى بيرد، الذى حول الشكوى بدوره إلى غالافر، رئيس وكالة الأسوشيتد برس بمكتبه فى نيويورك، الذى كان راضياً عما جاء فى قصة الرجال المنسيين فى فيتنام.. أما الكلمة الأخيرة والمهمة فيما يتصل بقصتى التى تناولت فيها رجال معسكر «بن هت» المنسيين فى موقعهم على أحد

التلال على الحدود بين فيتنام ولاوس، فقد جاء من جنود بن هت أنفسهم وذلك عبر الرسالة التى بعثوا بها إلى مكتب الوكالة فى نيويورك.

تقول الرسالة التى بعث بها إلىّ جنود معسكر بن هت: «نحن رجال «بن هت» المنسيون نريد أن نعبر عن عميق تقديرنا وشكرنا لك، فبعد أيام قليلة من مغادرتك لنا، تلقينا من الوطن رسائل بريدية تحوى الصحف التى نشرت على صفحاتها قصتك الإخبارية التى تصف حالة اليأس وخيبة الأمل التى نستشعرها هنا.. ولعلك لا تتصور قدر فرحتنا أن نعلم أن أهلنا هناك فى الوطن قد علموا بما نحن فيه من أوضاع سيئة، وأن نعرف أننا لم نعد الجنود المنسيون.. إن الصحفيين من أمثالك الذين يناضلون بطريقتهم الخاصة فى مناطق الصراع المشتعلة بحثاً «وراء الحقائق» والذين يناضلون أيضاً لكى يتم نشر ما يكتبونه يستحقون ثقتنا وشكرنا وتقديرنا».

الفصل الثانى عشر

قرار غزو كمبوديا

* وانتهت الحرب بخسارة الأميركيين وسقوط سايغون.
* نيكسون يقرر غزو كمبوديا وقواته تلقى حتفها بالجملة فى فيتنام.
* تنبأت بسقوط سايغون بعد ٤ سنوات من الانسحاب الأميركى.
* هجوم عيد الفصح ألحق بالقوات الفيتنامية خسائر فادحة.
* عمليات سلب ونهب واسعة النطاق تنفذها القوات الأميركية بمدينة سنول.
* سافرت إلى عاصمة التحدى هانوى بناء علي ترشيح رئيس الوكالة غالافر.
* تقريرى عن السرقات الأميركية وصفته وكالتى بأنه من الأعمال المثيرة للشغب والفوضى.

تعددت أحداث عدم إطاعة الجنود الأميركيين لأوامر قادتهم فى مناطق القتال فى فيتنام، بعد أن استشعر الشباب الاميركيون صغار السن الذين تم الدفع بهم الى فيتنام أنهم يحاربون فى حرب شرسة لايبدو لها نهاية، وقام المراسلون الصحفيون فى سايغون بإرسال قصصهم الإخبارية التى تتناول سوء الاحوال النفسية للجنود الاميركيين إلى صحفهم ووكالات الأنباء فى الوطن، كما تناول كُتَّاب الأعمدة فى صحف نيويورك الحاجة الملحة لإنهاء عمليات القتل التى يتعرض لها الشباب الأميركى فى غابات فيتنام، ولعودتهم إلى الوطن، وتوالت المظاهرات الغاضبة أمام البيت الأبيض احتجاجاً على ماكينة القتل الفيتنامية التى لا تكف عن قتل الشباب الأميركى فى غابات وحقول الأرز فى فيتنام، وعلى الحدود بين فيتنام الجنوبية، وكل من فيتنام الشمالية ولاوس وكمبوديا.

غزو كمبوديا

قبل أن يمضى الرئيس الأميركى نيكسون خمسة عشر شهراً فى موقعه. وفى ١ مايو، أصدر قراره بغزو كمبوديا، ذلك القرار الذى أدهش المراسلين العسكريين فى سايغون، الذين كانوا فى رسائلهم الصحفية التى يبعثون بها إلى نيويورك يكتبون عن اقتناع بتقلص تدريجى فى مناطق الصراع، وباقتراب اليوم الذى يتوقف فيه إطلاق النار بين المتحاربين فى فيتنام.

كانت مساحات من الأراضى الكمبودية الواقعة على الحدود بين كمبوديا وفيتنام الجنوبية خالية من قوات حرس الحدود التابعة للجيش الكمبودى، ولذلك فقد استخدمتها القوات الشيوعية قاعدة عسكرية لها منذ فترة طويلة، وكانت تلك الأراضى الكمبودية التى يسيطر عليها الشيوعيون تتعرض من وقت لآخر لهجمات تشنها حكومة فيتنام الجنوبية. لكن عملية الهجوم التى خططت لها الإدارة الأميركية ونفذتها قوات مسلحة أميركية بأعداد كبيرة ضد القواعد العسكرية.. للشيوعيين فوق الأرض الكمبودية كانت

من الضخامة، لدرجة أنها تسببت في فرار القوات الشيوعية إلى الغابات تاركين خلفهم مواقع مجهزة لتخزين الأسلحة والذخيرة والمواد التموينية.

ولأن الغزو الأميركي للأراضي الكمبودية التي كانت مأوى للشيوعيين، كان من أكبر العمليات القتالية التي جرت أحداثها في المنطقة منذ الهجوم الكبير الذي شنه الشيوعيون والفيتكونغ ضد سايغون والقرى والمدن الفيتنامية في يوم العيد الفيتنامي «تيت» فقد تسابقت مكاتب الصحف ووكالات الأنباء العالمية الموجودة في سايغون إلى تزويد مكاتبها الرئيسية في نيويورك والعواصم العالمية بقصص ذلك الغزو الأميركي غير المتوقع للأراضي الكبمودية.

وفي وقت لاحق، و أنا في إحدى القواعد العسكرية الفيتنامية، اتجه نحوي ضابط أميركي عاري الصدر، والعرق الغزير يبلل ملابسه العسكرية، وملامحه تدل على أنه يعاني من حالة انهيار من التي يتعرض لها الكثيرون من الجنود والضباط في ساحات القتال، وبعد أن وجه إليّ وإلى الصحافة التي أمثلها سيلاً من الألفاظ الفاحشة، أخرج مسدسه وأسند فوهته إلى صدغي وجذب الزناد، ولحسن حظي فقد أسرع بعض الضباط الفيتناميين وهرعوا لإنقاذي في اللحظة التي كنت على يقين فيها بأنني سأكون ضمن القائمة الطويلة من الذين لقوا حتفهم من الصحفيين في حرب فيتنام.

وفي مدينة «سنول» الصغيرة الواقعة في الأراضي الكمبودية التي تعرضت للقصف الجوي وقذائف النابالم الحارقة، شاهدت الجنود الأميركيين وهم يقومون بسلب ونهب ما في المتاجر من البراندي الكمبودي والأحذية وساعات اليد وساعات الحائط والأجهزة والمعدات الكهربائية، وبعد انتهائهم من نقل غنائمهم إلى دباباتهم وسياراتهم الحربية قبل أن يغادروا المكان كانوا يشعلون النار في البيوت والمتاجر.

وفي اليوم التالي من إرسالي قصة أحداث السلب والنهب في مدينة سنول الكمبودية إلى مكتبنا الرئيسي في نيويورك، تلقيت ببالغ الأسى والحزن رسالة من بن باسيت مسؤول القسم الخارجي بمكتب الوكالة في نيويورك، سلمها إليّ «ديف ماسون» مدير مكتبنا في سايغون في تلك الأثناء، وجاء في الرسالة ما يصف تقريري الإخباري عن

أحداث مدينة سنول الكمبودية بأنه ليس تقريراً إخبارياً بقدر ما هو عمل من الأعمال المثيرة للشغب والفوضى.

وبعثت برد إلى المكتب الرئيسى لوكالة أنباء الأسوشيتد برس فى نيويورك عبرت فيها عن مشاعر الإحباط التى اعترتنى بعد قراءتى لرسالة «بن باسيت» وفى الوقت نفسه كنت على يقين من أننى لن أخضع لتعليمات من رؤسائى تجعلنى أقوم بتنازلات فى واجباتى كصحفى من أجل أن ألبى متطلبات تفرضها مصالح السياسة الأميركية، ولذلك فقد قررت أن أستمر فى عملى الصحفى بالطريقة التى أراها، وألا أتجاهل أحداث الغزو الأميركى لكمبوديا، وأن أضع مسؤولية عدم نشر رسائلى الصحفية على كاهل المكتب الرئيسى لوكالة أسوشيتد برس فى نيويورك.

وفى الوقت الذى منع فيه «غالافر» رئيس مكتب وكالة أنباء أسوشيتد برس نشر قصتى الإخبارية عن أحداث نهب وسلب الجنود الأميركيين لمدينة سنول الكمبودية وإشعال النار فيها، قامت وكالة إنباء يونيتد برس بنشر القصة الإخبارية التى بعث بها مراسلها ليون دانيال الذى كان شاهد عيان معى لتلك الأحداث.

وقد قمت بالتحدث مع كيفن باكلى الصحفى بمجلة نيوزويك الأميركية حول قصة مسؤولى وكالة أنباء أسوشيتدبرس معى، وفى الأسبوع التالى نشرت مجلة «نيوزويك» مقالاً أدانت فيه وكالة أسوشيتدبرس، وأوردت فيه أيضاً قولاً منسوباً إلى غالافر المسؤول الأول عن وكالة أنباء أسوشيتدبرس، يقر فيه بارتكاب خطأ جسيم عندما منع نشر قصتى الإخبارية. كذلك جاء فى تصريح لـــ «غالافر» صرح به بعد مرور ست سنوات، أن أكبر خطأ طوال عمله رئيساً لوكالة أنباء أسوشيتد برس هو منع نشر قصتى الإخبارية التى تناولت أعمال النهب والسلب والتخريب التى قام بها الجنود الأميركيون فى قرية سنول الكمبودية.

هجوم موسع

فى بداية عام ١٩٧٢، قامت فيتنام الشمالية بشن هجوم موسع على القوات

الأميركية والفيتنامية في مناطق السهول الوسطى، وقد وافق ذلك الهجوم الذى سمى بهجوم عيد الفصح مرور عامين على الغزو الأميركي لكمبوديا الذى قوبل بضغوط سياسية متزايدة ضد إدارة الرئيس نيكسون. وضد استمرار الحرب، كما تزامن ذلك الهجوم أيضا مع مرور ثلاث سنوات من المحادثات التي عقدت في باريس وانتهت بالفشل وعدم التوصل إلى صيغة تنهى الحرب في فيتنام. وتضع حداً لاستمرار الوجود العسكرى الأميركي في ميدان القتال إلى جانب القوات الفيتنامية التابعة لحكومة جنوب فيتنام.

وفي الوقت الذى كنت أقوم فيه بكتابة تقارير صحفية تتناول مجريات الأحداث والأوضاع العسكرية في كل من فيتنام وكمبوديا، كانت الولايات المتحدة تجرى مفاوضات مع فيتنام الشمالية على المستويين السرى والعلنى، وحول تلك المفاوضات كانت هناك تكهنات من قبل مسؤولين حكوميين أميركيين وفيتناميين بتوقع حدوث تقدم في تلك المفاوضات قبل شهر نوفمبر - موعد إجراء الانتخابات الرئاسية الأميركية.

مفاوضات فاشلة

وحتى سبتمبر ١٩٧٢ لم يسفر أن تقدم في سير تلك المفاوضات التي كانت تجرى في العاصمة الفرنسية، وفي تلك الأثناء وأنا أقضى إجازة نهاية الأسبوع في باريس قبل أن أواصل رحلتي إلى موطني نيوزيلندا لكي أقضى إجازة هناك، ترددت شائعات بأن هنرى كيسنجر يجرى محادثات سرية مع لى دوك ثو أحد كبار المسؤولين في حكومة فيتنام الشمالية.

السفر إلى هانوى

وفي الرابعة صباحا أيقظتني من مرقدى بحجرتي بفندق كلاريدج المطل على شارع الشانزليزيه محادثة هاتفية من مسؤول بمكتب وكالة الأسوشيتدبرس في نيويورك يخبرني فيها بسرعة إجراء اتصال هاتفي مع رئيس وكالتنا غالافر، وعلى الفور جاءني صوته عبر أسلاك الهاتف قائلاً : هل ترغب في الذهاب إلى هانوى ؟.

غلبني الحماس والفضول للذهاب إلى العاصمة الغامضة العنيدة هانوى، التى ظلت تتحدى لعقد من الزمن الولايات المتحدة صاحبة أكبر قوة عسكرية، والتى لم يدخلها غير أفراد قلائل من المواطنين الغربيين، وأوضح لى غالافر أن هانوى بصدد إطلاق سراح ثلاثة من سجناء الحرب الأميركيين وتسليمهم إلى وفد من مناهضى الحرب الفيتنامية. كدلالة على رغبة هانوى فى دعم جهود التفاوض من أجل إنهاء الحرب فى فيتنام، وأكد لى غالافر أننى الصحفى الوحيد الذى سيكون ضمن الوفد المسافر إلى هانوى، كما أشار إلى تحفظات وزارة الخارجية الأميركية وخشيتها من أن تكون لتلك المبادرة التى تقوم بها مجموعات غير حكومية أية نتائج تتهدد عملية السلام.

والوفد المناهض لاستمرار الحرب الفيتنامية، والمسافر إلى هانوى يتكون من : كورا ويز، وزافيد ديلنجر، ووليم سلون كوفين، كما يتضمن الوفد أيضاً مينى لى غارتلى، أم طيار بالبحرية الأميركية، وأحد الذين ستطلق هانوى سراحهم، وأيضاً أولجا تشارلز زوجة طيار آخر سيفرج عنه، وبصحبة الوفد كل من ريتشارد فولك أحد الخبراء فى القانون الدولى، وأنا.

وفى مطار كنيدى أقلعت طائرتنا لتهبط فى مطار جيام لام، فى ضواحى هانوى الذى بدا فى صورة متواضعة مقارنة بمطار تان سون نهوت فى سايغون الذى يعد من أكثر المطارات العالمية ازدحاماً، وقد وجدنا فى استقبالنا بالمطار مسؤولين فيتناميين مصحوبين بجنود يحملون بنادق آلية فوق أكتافهم، وعلى مقدمة خوذاتهم النحاسية نجوم حمراء.

وطوال اليوم الأول الذى قضيناه فى فندق هوا بنه فى هانوى، لم تكف الغارات الجوية التى كانت تشنها القوات الأميركية على عاصمة فيتنام الشمالية، وقد نصحنا رجال الأمن بتوخى الحذر ونحن خارج الفندق، و الإسراع إلى المخابئ والاحتماء خلف السواتر الرملية عند سماع صفارات الإنذار، التى تعلن عن قصف جوى يشنه الأميركيون. وفى هذا الشأن تحدثت أولغا تشارلز عضو الوفد الزائر المناهض للحرب وزوجة أحد الأميركيين الثلاثة الذين ستطلق حكومة هانوى سراحهم قائلة فى شئ من الانزعاج والغضب: «كان

من الحمق أن أعتقد بأن واشنطن ستتوقف عن قصفها الجوى فى الوقت الذى نحن فيه هنا».

عندما علمت بمغادرة الفندق لكى أقوم بجولة على قدمى فى شوارع العاصمة هانوى خصص لى المسؤولون الحكوميون امرأة شابة صغيرة السن تدعى «لين» لمرافقتى. وخلال تجوالها معى شكت لى عن القدر القليل من الطعام الذى تحصل عليه، وأرجعت سبب نقص الغذاء فى هانوى إلى القصف الأميركى الذى استهدف ضرب طرق المواصلات التى تصل العاصمة هانوى بقرى الريف فى شمال فيتنام، ومنع وصول الغذاء والأسلحة والذخيرة.

كانت للحياة الصعبة والشاقة التى تعيشها هانوى أثرها فى وجه مرافقتى لين الذى يبدو أكبر من عمرها بسنوات، وعندما استفسرت منها عما إذا كانت تعيش مع صديق، أو إذا كانت ترغب فى الزواج، أجابت بالنفى، وأنها تؤجل الحب والزواج وإنجاب الأطفال إلى ما بعد انتهاء الحرب.

بدت هانوى فى حالة يرثى لها، فالغبار يلف شوارعها وبناياتها المتهدمة، وبقايا العمارة التى تنتمى إلى عصر الاستعمار الفرنسى افتقدت بهاءها القديم أمام تساقط طبقة الدهان من فوق أسطح الحوائط والوجهات، والمتاجر الصغيرة فى الشوراع المزدحمة قد دب العطن فى أعمدتها الخشبية، والصدأ فى أبوابها المعدنية، والترام الفرنسى القديم أصبح يتهادى فى مشيته كعجوز هرم، وسيارات تلفظ أنفاسها الأخيرة، وهى تتحرك فى تثاقل وجلبة. بعد أن أتى بها تجار الخردة والسيارات المستعملة من الاتحاد السوفييتى إلى حتفها فى هانوى، والبشر فى الشوارع يرتدون أسمالاً، وخرقا لوحتها الشمس الحارقة.

فارق كبير

كان الفرق شاسعًا بين سايغون التى تركتها منذ أسبوع واحد فقط وهانوى، تمامًا مثل الفرق الكبير فى شوارع سايغون ذاتها بين الفقر والغنى، فقد أخبرتنى ساقية تعمل فى

بار فندق هوا بنه الذى ننزل فيه بالعاصمة هانوى أنها لا تمتلك من الثياب غير بلوزة بيضاء وجيبة سوداء، وأنها تقوم بغسلهما كل ليلة حتى يمكنها ارتداؤهما فى اليوم التالى.

وخلال حديث ساقية البار معى كنت أفكر فى الخادمة التى تعمل فى منزلى بسايغون، والتى كانت ترتدى ثيابا من الحرير، وحقائب جلدية مزينة بالخرز الملون تمسك بها فى يدها.

وخلال مؤتمر صحفى موسع عقدته حكومة هانوى فى اليوم التالى لوصول الوفد المناهض لاستمرار الحرب فى فيتنام فى قاعة ازدحمت بالصحفيين وكاميرات التصوير التيفزيونية، تم تسليمنا الطيارين الأميركيين السجناء الثلاثة. الذين تحدثوا معبرين عن تقديرهم لحكومة هانوى لإطلاق سراحهم. آملين أن تؤدى تلك المبادرة إلى الإسراع فى إنهاء الحرب الفيتنامية والتوصل إلى السلام. وفى المؤتمر الصحفى قامت السيدة غارتلى بعناق ابنها طويل القامة أشقر الشعر ليوتينانت طيار مارك غارتلى الذى ظل سجينا فى فيتنام الشمالية لمدة أربع سنوات، كما قامت أولينا تشارلز بتقبيل زوجها ليوتينانت طيار نوريس تشارلز الذى قضى فترة عشرة أشهر فى الأسر، أما الطيار الثالث المفرج عنه ميجور إدوارد الياس الذى وقع فى الأسر منذ أربعة أشهر فى أعقاب إسقاط طائرته فقد بدا عليه الحزن والإحباط لعدم قدوم زوجته أو والده لمصاحبته فى رحلة العودة إلى الوطن، وقد علم فيما بعد أن وزارة الدفاع الأميركية، قد وضعت العراقيل أمام زوجته ووالده حتى لا ينضم أحدهما إلى الوفد المسافر إلى هانوى.

اتفاق وقف الحرب

فى مارس ١٩٧٣ توصلت إدارة الرئيس الأميركى نيكسون إلى اتفاق لإنهاء الحرب الفيتنامية، التى تعد من أكثر الحروب إثارة للجدل فى التاريخ الأميركى، والتى كلفت الصحف وشبكات التليفزيون الأميركى ملايين الدولارات حتى يمكنها تغطية أخبارها وأحداثها، تلك التغطيات التى أرهقت العاملين بصناعة الأخبار مثلما أرهقت الرأى العام من جراء سنوات طويلة أنفقتها فى قراءتها ومشاهدتها، ونتيجة لذلك قامت بعض

الصحف بإغلاق مكاتبها في سايغون حتى قل عدد هذه المكاتب عما كانت عليه في السابق.

وغادرت أنا أيضاً سايغون لكي أستقر في شقة جديدة استأجرتها في حي مانهاتن بنيويورك، ولكي أبحث لنفسي عن توجهات أخرى أكرس خبرتي الصحفية من أجلها، لكن يبدو أنني كنت ضعيفاً أمام غواية فيتنام ونداءاتها المتكررة إليّ، فبعدما طلب مني لو بوكاردي المسؤول عن المكتب الرئيسي لوكالة أنباء أسوشيتد برس في نيويورك، ونات بولوتزكي رئيس القسم الخارجي بالوكالة العودة إلى فيتنام في صيف عام ١٩٧٣ لم أبد أية معارضة، وكانت المهمة المطلوب مني إنجازها البحث عما إذا كان في استطاعة فيتنام الجنوبية الاعتماد على نفسها، دون مساعدة عسكرية من القوات الأميركية، ودون العون المالي الذي يقدمه لها الكونغرس الأميركي.

في أبريل من العام نفسه كنت قد تنبأت في حديث لي بجامعة مينيسوتا الأميركية بسقوط فيتنام الجنوبية خلال أربع سنوات، فمع الزيادة المطردة في القوة العسكرية لفيتنام الشمالية، لم يحدث أي تغيير في الضعف الذي أصاب قوة فيتنام الجنوبية، وقد وصفت في حديثي بجامعة مينيسوتا الأميركية اتفاق السلام الخاص بإنهاء الحرب الفيتنامية بأنه مجرد مظلة تسمح بانسحاب أميركي مشرف من فيتنام الجنوبية. وفي هذا الصدد كان هنري كيسنجر قد أخبر أصدقاء حميمين له بأنه كان من الضروري خلق فترة زمنية مقبولة تفصل بين الانسحاب الأميركي من فيتنام والهزيمة المتوقعة لفيتنام الجنوبية ، تلك الهزيمة التي لم تكن ترغب سايغون في التسليم بها بعد حرب استمرت لمدة قرن من الزمان، وبعد اتفاقيات سلام استغرقت الكثير من المفاوضات.

في الأسبوع الثالث من شهر مارس ١٩٧٥ . كنت في نيويورك عندما قرأت في صحيفة نيويورك تايمز عنواناً رئيسياً حول قيام رئيس فيتنام الجنوبية «ثيو» بتسليم السهول المرتفعة الوسطى للشيوعيين، وباستسلام ثلاث مدن هي كونتوم، وبليكو وبان مي ثوت، وعلى الفور اعترتني رغبة قوية في الصياح بأعلى الصوت بأن الحرب أخيراً قد انتهت، كما أحسست برغبة قوية أيضاً في السفر إلى فيتنام على وجه السرعة، وفي اليوم التالي

كنت فى الطريق إلى سايغون.

كنت سايغون غاضبة، ويكاد الذهول يفقدها صوابها بعد أن تسبب عناد رئيس حكومة فيتنام الجنوبية نجوين فان ثيو، وعدم رغبته فى التفاوض حول حل سياسى معقول مع الشيوعيين فى إلحاق أضرار كبيرة فى جيش فيتنام الجنوبية،وبعد أن تسببت التقديرات الخاطئة لرئيس حكومة سايغون فى استيلاء الشيوعيين على أقاليم كوانغ ترى، وثوا ثين، وهوالعاصمة القديمة، والسهول المرتفعة الوسطى. وفى خلال أسبوع واحد تقلصت مساحة فيتنام إلى النصف تقريباً.

وترددت أقوال تفيد باحتمال وقوع انقلاب ضد رئيس فيتنام الجنوبية الذى وجه إليه اللوم الشديد لانسحابه من ساحات القتال. ولتقديراته الخاطئة فيما يتصل بالسياسات الأميركية فى فيتنام، التى طرأ عليها تغييرات كبيرة، بالإضافة إلى أن الرئيس الأميركى نيكسون كان قد فقد اهتمامه بالسياسة الأميركية فى فيتنام بعد تورطه فى فضيحة التجسس ووتر جيت، التى أقصته عن كرسى الرئاسة الأميركية، فضلاً عن القيود الصارمة التى فرضها الكونغرس الأميركى على الرئيس التالى جيرالد فورد فيما يتصل بتخصيص أموال للنشاطات الدفاعية فى منطقة جنوب شرق آسيا.

وبعد ظهر يوم ٢٤ مارس ١٩٧٥، انتشرت شائعات تقول إن الشيوعيين على أبواب سايغون التى عم فيها الاضطراب والهياج، الأمر الذى أقنعنى بالتوجه إلى الفندق الذى قصده كل الصحفيين طلباً لدرجة أعلى من الأمن والحماية، قد لا تتوافر فى شققهم السكنية، وعند منتصف الليل تقريباً اجتمع بنا آل فرانسيس المسؤول الأميركى الشاب ليحدثنا عن خطورة الوضع الأمنى فى سايغون، وعن عدم تمكنه من توفير أسباب الأمان لنا، وكان اقتراحه الذى اقترحه علينا هو أن نسارع بمغادرة العاصمة سايغون فى الصباح الباكر.

وبعد أن بدأ الشيوعيون فى إطلاق قذائف الصواريخ فوق سماء دا نانج، قاموا بتحريك بطاريات المدفعية إلى الجبال. بحيث تكون سايغون فى مجال الرمى. ولما كانت مدينة هو قد سقطت فى الليلة السابقة فى أيدى الشيوعيين، فقد تحركت جموع البشر فى

سايغون صوب بوابات مطارها التى ازدحمت بأعداد غفيرة من الرجال والنساء والأطفال ترغب جميعها فى الفرار من العاصمة سايغون قبل سقوطها فى يد الشيوعيين.

وبعد ثلاثة أيام سقطت دانانج فى قبضة الشيوعيين، وبطاريات المدفعية والدبابات الأميركية التى دفع بها للدفاع عن دانانج تم الاستيلاء عليها، وجنود ثيو رئيس فيتنام الجنوبية تخلوا عن طواعية عن واحدة من أكبر القواعد العسكرية فى منطقة الباسيفيك دون الدخول فى قتال. بالرغم من إعلان الرئيس ثيو قبل أسبوع واحد فقط أن جنوده سيدافعون عن بلادهم حتى آخر رجل، ثم كان سقوط سايغون وهزيمة فيتنام الجنوبية على أيدى الشيوعيين من فيتنام الشمالية وقوات الفيتكونغ.

الفصل الثالث عشر

من سايجون إلى بغداد

* من سايغون إلى بغداد .. الحروب تنقل على الهواء.
* تأكدت من تحرير الكويت وأنا أتابع تهديدات الطاغية بضرب تل أبيب.
* شبكة CNN اشترت أجهزة بنصف مليون دولار لبث الحرب مباشرة.
* صديقى استطاع تهريب هاتف يتصل بالقمر الصناعى ثمنه ٥٢ ألف دولار خلال دخولنا المطار العراقى.
* مسؤولو البعث غرقوا فى بحور الخمر لإبعاد شبح الحرب عن تفكيرهم.
* توقعت أحوالاً مأساوية بسبب عناد صدام فاشتريت ٢٠ كيلو غرامًا من التمر.
* خشيت أن ألقى مصير الصحفى الإيرانى بازوفت الذى أعدمه النظام العراقي بتهمة التجسس.
* أول تقاريرى الإخبارية من بغداد كانت حول فشل وساطة دى كويلار.

من سايغون فى الستينات إلى حرب تحرير الكويت فى التسعينات، يواصل بيتر آرنيت رصد مشاهداته من ساحات المعارك، وقبل بدأ الفصل الأول من الجزء الثانى، من كتابه، بتفاصيل وصوله إلى منطقة الأحداث الساخنة بعدما فعل طاغية العراق فعلته واحتل الكويت.

يقول بيتر : كانت سيارتنا التى تقلنى وفريق العمل بشبكة تليفزيون (CNN) تنهب الأرض نهبًا فى محاذاة البحر الميت، بعد ظهر أحد أيام شهر أكتوبر ١٩٩٠ ، كنا فى طريق عودتنا إلى القدس التى توجهت إليها منذ سبعة أشهر كمراسل حربى لشبكة تليفزيون (CNN) حيث أصر مسؤولوها أن أظل فى إسرائيل لأغطى أحداث الأزمة المشتعلة فى منطقة الشرق الأوسط، وعلى نحو خاص تهديدات العراقيين بشن حرب كيميائية ضد إسرائيل.

ما كنت أعتقده هو أن إسرائيل ليست سوى مشهد ثانوى مقارنة بمشاهد رئيسية على مسرح الأحداث الحقيقية التى من المقرر وقوعها هناك فى الصحراء العربية، حيث التحالف المكون من ثلاثين دولة فى انتظار يوم ١٥ يناير ١٩٩١ ، موعد انتهاء مهلة الإنذار الذى وجهته الأمم المتحدة إلى صدام حسين رئيس النظام العراقى، لسحب قواته التى غزا بها دولة الكويت.

كنت أشعر بأننى وفريق العمل بشبكة تليفزيون (CNN) والمكون من «ميخائيل» مسجل الصوت، و«يهودا» المصورو فى المكان الخطأ، وكنت غير سعيد بسبب بعدى عن موقع الحدث الساخن المرتقب، والشئ الذى زاد من إحساسى بالإحباط وعدم الرضا هو اعتزام المراسلين الحربيين جون ماملتون وروبرت ويز العودة ثانية إلى بغداد بعد قدومهما إلى القدس لقضاء ليلة رأس السنة الميلادية فيها.

فى ذلك الوقت وافق العراقيون على السماح لشبكة تليفزيون (CNN) بتركيب أجهزة اتصالات فى بغداد وتمكين مراسليها من تغطية أحداث الحرب حين وقوعها لحظة بلحظة، وبقدر ما غبطت ويز وهاملتون على تلك الفرصة الكبيرة فقد استشعرت شيئاً من الغيرة، لأنهما سيقومان بتغطية أحداث أكبر مواجهة عسكرية منذ الحرب الفيتنامية ،وربما فى التاريخ فى الوقت الذى أقوم فيه أنا بتغطية لأحداث ثانوية وردود أفعال جانبية من الباب الخلفى لأكبر مواجهة عسكرية.

مع بداية شهر يناير ١٩٩١ ، ومع العد التنازلى المؤدى إلى ١٥ يناير، كانت عيون العالم كله تنظر إلى منطقة الخليج، وكانت شبكة تليفزيون (CNN) الأميركية قد وضعت أزمة الخليج والمواجهة العسكرية المحتملة على أول قائمة أولوياتها من حيث توفير كل إمكانات التغطية الإخبارية لتلك الأحداث المتفجرة لحظة بلحظة، والتى بدأت بعناد من صدام حسين أدى إلى تحالف ضده لم يسبق له مثيل على المستوى الدولى.

ومع اقتراب موعد انتهاء فترة الإنذار المحدد له يوم الخامس عشر من يناير ١٩٩١ ، ومع استمرار عناد صدام حسين، ورفضه لمطالب المجتمع الدولى، وعدم انسحابه من الكويت، انضم المراسلون الصحفيون فى بغداد إلى الأعداد الكبيرة التى قررت الرحيل والنجاة بأنفسها من بغداد – مسرح الحرب القادمة بعد النصائح التى قدمتها لهم السفارة الأميركية فى العاصمة العراقية.

عند عودتى إلى مكتب (CNN) فى القدس قادماً من إحدى المهام بصحبة المصور يهودا ومسجل الصوت ميخائيل أخبرونى بسرعة الاتصال بمحرر الشؤون الدولية «إيسون جوردون» بمكتبه فى «أتلانتا» الذى أطلعنى على رغبة أفراد من فريق العمل بالشبكة فى بغداد بالرحيل، وسألنى عما إذا كان لدى الرغبة فى العمل هناك فى بغداد. التى من المتوقع أن تكون فى غضون أيام قليلة من أخطر الأماكن فى العالم، وكان أن قبلت عرضه على الفور.

أخبرت زميلتى كمبرلى مور التى تشاركنى العمل فى مكتب (CNN) بالقدس

بأمر سفرى، وقد أبدت لى خشيتها من الخطر الذى يتهدد حياتى هناك، وهى تصحبنى بسيارتها إلى مطار بن غوريون فى تل أبيب، لكى أستقل الطائرة التى تذهب بى إلى بغداد فى يوم ١١ يناير، قبل أربعة أيام من الموعد النهائى الذى حددته الأمم المتحدة لانسحاب صدام من الكويت وإلا فسيواجه حرباً شرسة من قبل الحلفاء.

فى مطار بن غوريون

كان مطار بن غوريون يخضع لإجراءات أمنية لم يسبق لها مثيل، والعديد من شركات الطيران العالمية قامت بإلغاء رحلاتها الجوية إلى المنطقة، وبالرغم من أن المسافة التى تفصل بين بغداد وتل أبيب لا تزيد على، ستمائة ميل فإننى لم أجد طائرة تقلنى إلى بغداد مباشرة، وكان على أن أستقل طائرة «مصر للطيران» إلى القاهرة أولاً، و من القاهرة أستقل طائرة أخرى تتبع شركة الطيران الأردنية إلى العاصمة الأردنية عمان، وهناك اتخذت مقعدى على متن الطائرة الأردنية المتوجهة إلى بغداد، وهو الخط الجوى الوحيد الذى يوفر رحلات جوية إلى بغداد. على اعتبار أن الأردن هو الجار والصديق الوحيد لحكومة النظام العراقى.

كانت شبكة تليفزيون (CNN) قد أنشأت لها قاعدة متقدمة فى بغداد، تتضمن أجهزة ومعدات عالية التقنية توفر اتصالاً لحظياً بين بغداد والمكتب الرئيسى للشبكة فى أتلانتا، كما قامت الشبكة أيضاً بحجز عدة أجنحة فى فندق فيلادليفا لإقامة فريق العمل المكون من مراسلين صحفيين ومصورين ومسجلى صوت وفنيين.

كان فى صحبتى وأنا على متن الطائرة المتجهة إلى بغداد دومينيك روبرتسون بريطانى. وهو شاب يعمل فنياً بشبكة (CNN) وكان فى حوزته جهاز هاتفى يتصل بالقمر الصناعى. يقدر ثمنه بنحو ٥٢ ألف دولار أميركى، وقد نجح بصعوبة فى إخفائه عن عيون مفتشى الجمارك بمطار بغداد، وقد بلغ ثمن أجهزة الاتصالات التى مكنت مراسلى شبكة (CNN) فى بغداد من بث تغطية بالصوت والصورة عبر القمر الصناعى

لأحداث حرب الخليج ما قيمته نصف مليون دولار أميركى.

فى مطار بغداد ركبت أنا ونيك روبرتسون سيارة أجرة يقودها عمر حسين العياد، سائق عراقى كبير السن، وبعد أن قادنا فى طريق القادسية السريع فى اتجاه مركز المدينة التجارى أشار لنا السائق بذراعه فى اتجاه المقر الرئيسى لحزب البعث الاشتراكى الذى يتزعمه صدام حسين، ومررنا بقوس النصر، وبفندق الرشيد المكون من ١٤ طابقاً الذى توقفت السيارة أمام مدخله الرئيسى، وصعدنا إلى الدور التاسع بالفندق الذى يسكن فيه فريق العمل بشبكة (CNN).

كان من الواضح أنه بالرغم من مغادرة الكثيرين من مراسلى الصحف والتليفزيون بغداد، فإن هناك قليلين يرغبون فى البقاء مثلى ومثل زملاء لى بشبكة (CNN)، الذين سبقونى فى الوصول إلى العاصمة العراقية. منهم «روبرت وينر» و«برنارد شو» الذى كان قد قدم إلى بغداد قبلى بأيام قليلة للترتيب لإجراء مقابلة مع صدام حسين. والذى أكد أنه من الحكمة أن يرحل لكى ينجو بحياته. وانغريد فورماتيك، التى حققت نجاحاً فى تغطيتها الإخبارية لشبكة (CNN). لأحداث انهيار الشيوعية فى أوروبا الشرقية، والتى تعرف طريقها جيداً إلى مناطق الصراع المتفجرة فى أرجاء العالم، تساعدها فى ذلك معرفتها الجيدة لخمس لغات عالمية.

اصطحبت معى وأنا قادم إلى بغداد قصاصات من ورق الصحف ومعلومات حول العراق ومنطقة الخليج، لكن بعد أن اصطحبتنى انغريد معها فى جولات فى المدينة، تيقنت من أن القصة الإخبارية التى أنا بصدد كتابتها حول الأحداث المشتعلة والمتفجرة لن تكون سوى قصة ما سوف أشاهده بعينى وأسمعه بأذنى.

كان مرافقاً فى جولاتنا بالمدينة «علاء العانى» مسؤول من وزارة الإعلام العراقية، وبعد أن حيانى بلطف بلغة إنجليزية قلقة، تحدث عن شجاعة صدام حسين، واستمعت إليه بأدب. وخلال تجوالنا بادلته الحديث. محاولاً أن أكون رأياً عنه، خاصة أننا تمكنا بواسطته من مشاهدة الكثير فى العراق، وكان طيلة الوقت بالقرب منا. سواء كنا داخل

الفندق أو خارجه.

تسبب الوضع المتفجر فى إحداث جو من القلق وعدم الاستقرار فى سوق المال والأعمال فى العاصمة العراقية. أدى إلى إغلاق الكثير من المحلات التجارية بأقفال معدنية كبيرة، وإلى قيام الكثير من أصحاب المتاجر بتحميل بضائعهم على ظهر شاحنات كبيرة تتخذ طريقها إلى خارج المدينة.

أقبلت انغريد على شراء معلبات الخوخ الأميركى وكميات من الجبن، وعندما أقبل بائع عراقى بما طلبته من تمر جاف بلغ وزنه أكثر من عشرين رطلاً، نظرت إلىّ انغريد قائلة: «ما كل هذا؟» أتتوقع حرباً عالمية ثالثة؟ إن كل شئ سينتهى فى نهاية الأسبوع. وبالرغم من تكهن انغريد بالوقت الذى تستغرقه المواجهة بين الحلفاء ونظام صدام حسين، فإنها استمرت فى شراء زجاجات الويسكى والكونياك، وقد علقت انغريد ونحن نجلس فى بار شهرزاد بفندق الرشيد، مشيرة إلى أحد مسؤولى وزارة الإعلام العراقية المكلفين بمرافقتنا وهو يحتسى الشراب، قائلة: إنهم يحتسون الشراب كالأسماك، وهم أكثر اهتماماً بالشراب من اهتمامهم بالنساء.

وعندما توجهت أنا وروبرت بعد ظهر اليوم التالى لوصولى بغداد إلى وزارة الإعلام العراقية لمقابلة بعض المسؤولين هناك، وقبل أن نعبر المدخل الرئيسى لمبنى وزارة الإعلام، عبر لى «روبرت» عن استيائه الشديد لعدم وجود زجاجات الفودكا الروسية فى أسواق بغداد، وفجأة ونحن فى بهو المبنى المزين بصور كبيرة الحجم للرئيس العراقى صدام حسين، توقف روبرت منادياً: السيد سعدون، وعلى الفور تعانق الرجلان، وتبادلا القبلات – برغم مضى أيام على كل منهما دون أن يقوما بحلاقة ذقنيهما.

وبعد أن قام روبرت بتقديم كل منا للآخر، صافحنى سعدون الجنابى، وقال بصوت جهورى: السيد بيتر، أعتقد أننا سنكون متعاونين إلى أقصى حد. فنحن نحب السيد روبرت، ونحب شبكة تليفزيون (CNN) مرحباً بك.

لم أكن معتاداً على مثل تلك المجاهرة بالمشاعر والإقرار والاعتراف بها، كما أننى لم

أكن أتوقعها من أى مسؤول حكومى، وبشكل خاص من مسؤول حكومى يتبع دولة على وشك أن يقوم العالم بشن حرب ضدها، وزادت دهشتى أكثر عندما تكرر العناق وتبادل القبلات بين روبرت وناجى الحديثى، المدير العام بوزارة الإعلام العراقية، الذى ابتسم من خلف نظارتيه ابتسامة دافئة ومعانقة، وفى لغة إنجليزية سليمة وجه حديثه إلىّ قائلاً: يسرنا وجودك بيننا مستر آرنيت.

لقاء جانبى

انتحى روبرت بناجى جانباً، وهمس فى أذنه بشئ عندئذ تذكرت أحد المرشحين السياسيين وهو يتلقى نصيحة عاجلة حول شأن من الشؤون الانتخابية، كما وردت على ذهنى صورة أحد لاعبى القمار وهو يستمع إلى غرائب اللعب من أحد المتمرسين والممارسين لألعاب القمار. وعندما عاد إلىّ، قال لى «روبرت» إنه أخبر «ناجى» أن التغطية الإخبارية التى ستقوم بها شبكة (CNN) لقصة بغداد سيكون لها الدور الأهم والأعظم فى التغطية الإخبارية لأحداث الحرب، وقد هز ناجى رأسه مؤكداً ما قاله روبرت.

دهشت للثقة المفرطة لدى روبرت بتعاون وزارة الإعلام العراقية مع شبكة تليفزيون (CNN) لكن تلك الثقة المفرطة لم تنل من توقعاتى غير الإيجابية، فمنذ عدة أشهر تم تنفيذ حكم بالموت على فرزاد بازوفت الصحفى الإيرانى بعد اتهامه بالتجسس ضد العراق، بالرغم من أن المسؤولين فى وزارة الإعلام العراقية هم الذين منحوه تصريحاً بزيارة العراق، ورافقوه خلال فترة زيارته، هؤلاء المسؤولون هم أنفسهم الذين قالوا إنهم يحبون شبكة تليفزيون (CNN).

وعندما عبرت عن دهشتى إلى روبرت حول مشاعر حب مسؤولى وزارة الإعلام العراقية شبكة تليفزيون (CNN). التى تتعارض تماماً مع الحكم بالموت الذى نفذ فى الصحفى الإيرانى فرزاد بازوفت، ضحك روبرت، وقال: بيتر.. عليك بعمل الشئ الذى يجب عليك أن تعمله، فهنا لا مجال للمشاعر المحايدة، فهم إما يحبونك وإما يحملوا لك

المقت والكراهية.

وأضاف روبرت في حديثه معي أنه كان يمارس ضغطاً على ناجي، لكي يسمحوا لنا بنقل وإدخال محطة التليفزيون الأرضية الموجودة في عمان إلى بغداد، وأنه تلقى وعداً من رئيس ناجي الذي هو ويزر الإعلام العراقي، وصديق طفولة صدام حسين، بأنه سوف يتحدث مع الرئيس العراقي في أمر محطة التليفزيون الأرضية المتصلة بالقمر الصناعي، التي ستمكننا من البث على الهواء مباشرة من بغداد، إذا سمحوا لنا باستقدامها من عمان، كما ستمكننا من تحقيق إنجاز كبير في تاريخ التغطية الإخبارية. وفي الفندق أخبرتنا انغريد بأن البيت الأبيض أعلن عن آخر موعد في المهلة التي منحتها الأمم المتحدة للنظام العراقي لسحب قواته من الكويت، وهو منتصف ليلة الثلاثاء بتوقيت نيويورك، أي بعد يومين فقط، ولما كان روبرت مقتنعاً بأن الضربات الأولى التي ستشنها قوات الحلفاء ستوجه ضد الأهداف الاستراتيجية في «بغداد» وضد الكباري الستة المقامة فوق نهر دجلة، فقد اقترح أن ننقل مقر إقامتنا إلى فندق شيراتون بدلاً من فندق الرشيد الذي يعد هدفاً من الأهداف الاستراتيجية.

لكنني لم أتفق مع روبرت في رأيه بأن ننتقل إلى فندق شيراتون، ورأيت أن نظل كما نحن في فندق الرشيد، لأنه عند نشوب الحرب، لن يكون أمامنا إلا الوجود بالقرب من المرافقين لنا ومن المسؤولين الحكوميين، وتحت مظلة الحماية التي ستوفرها لنا حكومتهم في فندق الرشيد، فضلاً عن أن وجودنا في الطابق التاسع بالفندق يوفر لنا إطلالة مناسبة على سماء بغداد وعل مشاهد القتال إذا قدر للحرب أن تنشب

في تلك الليلة بعثت بأول تقرير إخباري لي من بغداد. ويتضمن فشل آخر وساطة سلام قام بها السكرتير العام للأمم المتحدة الجنرال بيريز دي كويلار– الذي غادر بغداد، على وجهه علامات التجهم، وعندما وصل إلى باريس أجاب على أسئلة الصحفيين له عما إذا كانت الحرب قائمة لا محالة، قائلا: الله وحده فقط يعلم.

الحرب قادمة

استيقظت فى الساعة الخامسة والنصف من صباح ثانى يوم فى فى غرفتى بفندق الرشيد ببغداد، وأنا أعى جيداً أن الحرب من الممكن أن تنشب فى اليوم التالى، لذلك فقد دونت فى ورقة صغيرة الاحتياجات الملحة التى لا غنى غنها فى زمن الحرب، مثل كشاف ضوئى يعمل بالبطارية وشموع وأعواد ثقاب، وذلك تحسباً لانقطاع التيار الكهربائى. بالإضافة إلى صناديق المياه المعدنية وكميات من الأطعمة المحفوظة فى معلبات.

ولذلك طلبت من الله ألا يكون فندق الرشيد من بين الأهداف التى حددتها طائرات الحلفاء عند قيامها بشن غاراتها الجوية فوق بغداد، وذلك للعديد من الأجانب الذين اتخذوه ملجأ لهم.

لكن الشئ الذى أدهشنى هو أن غالبية عاملى وموظفى الفندق من السودانيين والهنود والباكستانيين. وفيما بعد علمت أن سبب بقاء وجود هؤلاء العمال والموظفين بفندق الرشيد، هو أن إدارة الفندق كانت قد سارعت بمصادرة جوازات سفرهم حتى لا ينضموا إلى قوافل المهاجرين بطريق الجو أوالبر.

وفى وقت لاحق من ذلك الصباح توجهت إلى مركز المدينة التجارى، لكى أتفقد استعدادات النظام الحاكم فى العراق لخوض الحرب، شوارع بغداد كانت خالية إلا من أفراد قلائل، ومن شاحنات تحمل عل ظهرها الأغراض الشخصية لآخر أفواج الراحلين عن المدينة، وعلى شاشة التليفزيون العراقى كان شريط فيديو ينقل للعراقيين وللعالم موافقة مجلس الأمة العراقى بالإجماع على سياسة المواجهة والتحدى، التى أقرها الرئيس العراقى صدام حسين، وعلى التصويت لصالح خوض الحرب وضد الانسحاب من الكويت، وبدأ النظام فى تزويد كل من تجاوز عمره الخامسة عشرة بالسلاح، فى تظاهرة تؤكد أن الحرب شئ محتم ولا محيد عنه.

وبعد ساعات قام بيرناردشو ببث تقرير إلى المركز الرئيسى لشبكة (CNN) فى أتلانتا يتضمن مقابلة أجراها مع نزار حمدون نائب وزير الخارجية العراقى جاء فيه ما يفيد

بأنه إذا كان هناك تنازل من الجانب العراقى، فسيكون عبر مؤتمر دولى للسلام، لكن الحلفاء رفضوا بحزم عقد مثل ذلك المؤتمر.

عقارب ساعة محطة قطارات بغداد التى تنتمى إلى القرن التاسع عشر لا تكاد ترى بسبب ضباب الصباح الكثيف، لكن الصمت المخيم تقطعه دقات الساعة الرتيبة ١ . ٢ . ٣ . ٤ . ٥ . ٦ . ٧ . ٨ .

انتهت المهلة

الساعة الثامنة صباح يوم ١٦ يناير ١٩٩١ بتوقيت «بغداد» انتهت المهلة التى حددتها الأمم المتحدة للنظام العراقى لسحب قواته من «الكويت» دون أن يتزحزح صدام حسين عن موقفه.

«مارك بيلو» مصور شبكة (CNN) بذل جهداً كبيراً بكاميرته التليفزيونية لكى ينقل صورة واضحة للساعة الخشبية القديمة لمحطة قطارات بغداد، وقام «نيك روبرتسون» بعمل التجهيزات الصوتية، وأنا كنت أنظر فى ترقب إلى سماء بغداد الرمادية، ولم يخرق حاجز الصمت المخيم غير صدى وقع أقدم على رصيف محطة القطار.

وعدت أدراجى إلى فندق «الرشيد» وإلى المكان المخصص لعمل فريق شبكة تليفزيون (CNN) لكى أبث رسالة ضمتها وصفى للشارع البغدادى ولجماعات من الشباب تنتظر وسيلة مواصلات لا أحد يعلم إلى أين تذهب بهم، ولاحد العراقيين فى تعليق له بأن كلاً من صدام حسين وجورج بوش يتسمان بعناد، وبنزوع إلى السير فى الطريق الذى لا يبقى ولا يزر.

وبانقضاء الموعد النهائى المحدد من قبل الأمم المتحدة لانسحاب القوات العراقية من «الكويت» بدأت مجموعات من الصحفيين فى الاستعداد للرحيل من بغداد متجهين إلى الأردن، وقد جاءنا «لارى دويل» مراسل شبكة تليفزيون «سى بى. إس» ليخبرنا برحيله

بعد أن أبلغه المكتب الرئيسى «سى. بى. إس» بأنهم على يقين بأن بغداد ستتعرض للقصف الجوى فى تلك الليلة.

وعبر التليفون المتصل بالقمر الصناعى تحدث إلىّ توم جونسون رئيس شبكة (CNN)، وقال إنه يتفهم رغبتى فى البقاء فى بغداد وعدم الرحيل، ومع ذلك فهو يستشعر قلقاً من أجلى، لأنه عندما كان يرأس تحرير صحيفة لوس أنجلوس تايمز فقد اثنين من أكفأ مراسليه الصحفيين فى ساحات قتال فى الشرق الأوسط وأميركا الوسطى.

الفصل الرابع عشر

عاصفة الصحراء

* فجأة تدلت من السماء كتلة من نار أضاءت بغداد وضواحيها كأنها الثريا.
* انفردنا ببث بداية عاصفة الصحراء قبل إعلان البنتاغون بـــ ٢٧ دقيقة.
* مسؤولوا CNN خيرونا بين البقاء فى بغداد أو العودة خشية تعرضنا للموات.
* الحرب تزداد اشتعالاً والبيت الأبيض يعيش فى قلق بسبب بعثة CNN ببغداد.
* اختبأنا تحت الأسرة فتوقفت متابعة العالم لتطورات حرب تحرير الكويت.
* الأمن العراقى طاردنا فى فندق الرشيد لوقف بث الحرب على الهواء مباشرة.
* بغداد تتحول إلى جحيم ومراسلنا يقول لمستمعيه: كم هو جميل أن أتحدث إليكم الآن من العاصمة العراقية.

كان توم جونسون الذى ترأس شبكة تليفزيون «سى. إن. إن» فى اليوم السابق لغزو صدام حسين لدولة الكويت، أنفق ملايين الدولارات من أجل التجهيز لتغطية إخبارية جيدة لأحداث الخليج، وأرسل ما يزيد على مائة صحفى ومصور ومسجل صوت إلى الشرق الأوسط،وقد وجد جونسون نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن يسحبنا جميعًا من بغداد، ويقوم بتوزيعنا على مواقع آمنة بالقرب من موقع الأحداث، وإما أن يدعنا نعمل فى بغداد حيث الخطر يتهددنا من كل جانب.

خلال الأسبوع الأخير من المهلة الممنوحة لصدام حسين لسحب قواته من الكويت تحدثت مارلين فيتزووتر المتحدثة الرسمية للبيت الأبيض إلى توم جونسون، قائلة: «رجالك الموجودون فى بغداد سيتعرضون لخطر داهم»، وفى ذلك الوقت أيضًا تحدث دان كويل، نائب الرئيس الأميركى إلى توم جونسون وقال له: إن الرئيس بوش يشعر بالقلق الشديد على وجود صديقه بيرنارد شو فى العاصمة العراقية، وحثه على أن يترك بيرنارد بغداد ويعود إلى أميركا.

حرية الاختيار

وقد تحدثت تيد تيرنر رئيس مجلس شبكة (CNN) إلى كبار المسؤولين بالشبكة فيما يخص فريق العمل الموجود فى بغداد قائلاً: «نحن باعتبارنا شبكة تليفزيون عالمية ملتزمون أمام مشاهدينا بعمل تغطية إخبارية من بغداد، وأيضًا علينا أن نمنح الراغبين فى البقاء فى بغداد الفرصة لكى يقوموا بما يريدون عمله،ولكن من الضرورى أن نمنحهم حرية الاختيار فيما إذا أرادوا مغادرة بغداد.

فى مساء ١٦ يناير كان فى بغداد ٤٥ صحفيًا أجنبيًا، وكان فريق العمل فى شبكة (CNN) يتكون من «وينر» الذى قرر البقاء هو و«نك روبرتسون»، وأنا، أما الستة الآخرون

الذين لم يرغبوا فى البقاء فقد قرروا السفر بطائرة تغادر بغداد فى صباح اليوم التالى.

وفى وقت متأخر من الليل تحدث على شبكة تليفزيون (CNN) المذيع التليفزيونى «والتر كرونكايت» عن المراسلين الصحفيين الأميركيين الذين كانوا يبعثون برسائلهم الصحفية من ساحات القتال فى الأيام الأولى للحرب العالمية الثانية، وقال: «أنا أعتقد أن الخطر الذى واجهوه فى برلين وطوكيو لا يعد شيئاً يذكر أمام الخطر الداهم الذى يواجهه فريق العمل فى شبكة (CNN) فى بغداد».

وعندما وجه كرونكايت إلىّ نصيحة بأن أرحل من بغداد خشية على حياتى، أجبته قائلاً: «إن تصميمى على البقاء فى بغداد يرجع ببساطة إلى أننى إزاء أكبر حدث فى العالم، ورغبتى شديدة فى أن أقوم بعمل تغطية إخبارية له».

اليوم الأول: ١٧ يناير

بعد الثانية صباحاً ببضع دقائق بدأ «مارك بيلو» يعد كاميراته موجهاً عدساتها فى اتجاه نوافذ الطابق السابع لفندق «الرشيد» المفتوحة على سماء بغداد تحسباً لأى شئ قد يحدث فى الخارج، وبينما أنا أتبادل الحديث مع «نك» نظرت إلى الخارج عبر النافذة فلم أر قمراً فى سماء بغداد، وعدت من جديد إلى حديث «نك» الذى شاهدته يميل برأسه قليلاً، هل سمع صوت هدير محرك طائرة؟ نهض «نك» واقفاً واقترب من نوافذ حجرة الجلوس وأصاخ السمع قليلاً، ثم أسرع عائداً إلينا وقد تخضب وجهه بحمرة، وبدأ الهياج فى حركته، وقال: «إنهم قادمون».

فى اللحظة التالية اشتعلت سماء بغداد بضوء قوى باهر، ولبرهة لم أصدق ما أرى، فمن المعتاد فى مثل هذا الأمور التى تتصل بانتهاء مهلة إنذار موجه إلى دولة معتدية لسحب قواتها من منطقة ما، فإنه كان من المتوقع أن ينتظر الرئيس بوش بضعة أيام قبل أن يصدر أوامره ببدء القصف، لكن التصعيد فى أصوات القذائف والقنابل والتفجير أكد لى أن الحرب قد بدأت، تطلعت إلى الساعة فى معصمى فوجدتها تشير إلى الساعة الثانية صباحاً واثنتين وثلاثين دقيقة.

طوال سنوات عملى على أجهزة بث رسائلى الصحفية إلى المكتب الرئيسى لوكالة أنباء أسوشيتدبرس فى نيويورك، كانت دقائق قليلة تفصل بين تحقيق السبق الصحفى وبين صحفيين آخرين فاتهم تحقيق ذلك السبق، أما فى مجال البث المباشر عبر شبكة تليفزيون عالمية، فإن الثوانى، وليست الدقائق. إذا استطعنا استثمارها نكون قد حققنا السبق الصحفى المرئى والمسموع.

اندفعت بقوة فى اتجاه المكان المخصص لصناعة الأخبار وبثها عبر الفضاء مباشرة، وكان الهاتف ذو الأربعة أسلاك المتصل بالقمر الصناعى يصدر طنيناً، وكأنه يدعونا إلى بدء البث، فى ذلك الوقت انطلق «نك» مسرعاً إلى حيث المخبأ فى الطابق الأرضى،لكى يحتمى به من خطر القصف الجوى. أما «بيرنارشو» فقد أسرع بالإمساك بالميكرفون ويده على مفتاح التحكم فى المعدة. وقال فى صوت يغلب عليه الصياح والهياج: «هنا بغداد.. هنا بغداد.. شئ ما يحدث هنا فى بغداد.. شئ ما يحدث».

ارتفعت دقات قلبى، فقد كان صوت بيرنارد هو أول صوت يسمعه العالم من بغداد بعد بدء الحرب، لكن الشعور بالغيرة قد تبخر، وأنا أنظر عبر النافذة، لأجد السماء قد تحول لونها إلى الأحمر، وكأنها الشمس عادت من جديد إلى سماء بغداد بعد أن اتجهت ناحية الغرب. وكانت السماء أشبه بثريا عملاقة متوهجة تتدلى منها سلاسل مضيئة صفراء، وكان القصف الجوى من أعلى إلى أسفل يقابله قذائف مضادة للطائرات فى الاتجاه المعاكس.

تحرك «مارك بيلو» فى حذر لكى يعيد تجهيز كاميراته فى وضع يمكن عدساتها من التقاط المشهد، وتابع بيرنارد شو حديثه إلى الميكروفون المتصل بالقمر الصناعى: «سماء بغداد تشتعل.. والقصف الجوى يهدأ».

كانت طائرات التحالف تقصف البنايات والشوارع بلا توقف عندما انطلقت لأول مرة منذ بدء القصف صفارات الإنذار. وبدخول «جون هوليمان» إلى حجرتنا انطفأت المصابيح الكهربائية التى تضئ الفندق، والهاتف ذو الأربعة أسلاك المتصل بالقمر الصناعى كف عن إصدار طنينه ودعوته لنا بالبث.

هالو أتلانتا

قام جون هوليمان بوضع بطاريات كهربائية في المعدة الألكترونية، وأمسك بميكروفون الهاتف وقال: «هالو أتلانتا.. هوليمان يحدثكم.. لا أدرى إن كنتم تسمعونني أم لا، لكنني سأتابع حديثي معكم»، وخلال حديثه، حرك هوليمان الميكروفون وقربه من النافذة لكي يلتقط أصوات الليل والقصف، وبينما كان هوليمان يلتقط أنفاسه وهو يتحدث إلى الميكروفون سمع هوليمان من «أتلانتا» ما جعله يبتسم في ابتهاج، فقد كانوا يستمعون إليه في أتلانتا لأكثر من عشر دقائق كاملة.

وفجأة سمعنا صوت انفجار ضخم اهتزت له جدران حجرتنا، وكان على بعد قريب من الفندق، وربما كان ذلك الانفجار قد استهدف المقر الرئيسي لحزب البعث الذى كان يرأسه صدام حسين. وأضاف هوليمان متحدثاً إلى دافيد فرنش في أتلانتا: «ديفيد، هذه ليلة غير عادية، كم هو جميل أن أتحدث إليك من بغداد، وعلى الهواء مباشرة».

وظللنا نتبادل بيننا الميكروفون لكي نتحدث عن ليلة قصف بغداد، واشتعال سمائها في غيبة من قرص الشمس وقرص القمر، وجاءنا صوت «بوب فورنارد» من مكتبه في أتلانتا مفعماً بالحيوية: «هيا يا شباب، العالم كله يرى ويشهد»، في الساعة الثالثة صباحاً انتهت الغارة الجوية الأولى، وتوقف القصف، وأظلمت السماء من جديد، وفي الطريق المظلل بالأشجار من تحتنا كانت سيارات الإسعاف وحدها تتحرك مسرعة مطلقة صفاراتها وضوءها الأزرق الدوار، وبدأت أصوت إطلاق قذائف صادرة من قصر الرئاسة في غير اتجاه محدد نحو السماء إلى جهة الشرق، في ذلك الوقت كانت «كريز مانيتش» زميلتنا في فريق العمل قد أصابتها نوبة سعال وبدا على وجهها الهلع، وغادرتنا متوجهة إلى المخبأ في الطابق قبل الأرضي لتنضم إلى وينر».

القصف يتوالى

ويعود القصف فوق المركز التجارى للمدينة الذى يقع في اتجاه الغرب من مقرنا بالفندق الذى ارتج له المكان، وتبادلت أنا وهوليمان التحدث مع أتلانتا.

وفجأة قاطعنا دافيد فرنش من هناك، قائلاً لنا إن قيادة القوات الأميركية في المملكة العربية السعودية قد أعلنت عن بدء الحرب ذلك الإعلان الذى جاء متأخراً، وجعلنا أنا وهوليمان نصافح بعضنا البعض، ونشعر بالفخر بأننا حققنا سبقاً صحفياً على المكتب الصحفي لوزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» بنحو ٢٧ دقيقة.

وسط أصوات القصف وتحت سماء بغداد المشتعلة بقذائف الصواريخ، والقنابل، كان اهتمامي ألا أبدو أمام الملايين من مشاهدى شبكة تليفزيون (CNN) انفعالياً أو عاطفياً أو متردداً. لكن اللحظة كانت أكبر من كل محاولة للتحدث بعقلانية وبغير انفعال، فقد كان زئير المقاتلات وقصف المباني الحكومية، التي كانت تتصاعد منها أعمدة من الدخان الكثيف على بعد ميل من موقعنا أو أقل. من الأمور التي جعلت هوليمان لا يستبعد أن يلقى فندق الرشيد المصير نفسه تحت وابل القصف بصواريخ «كروز» وبغيرها من أدوات الدمار.

وأثناء دورة جديدة من دورات قصف طائرات الحلفاء لأهداف عراقية استراتيجية بالصواريخ والقنابل على مصافي النفط على نهر دجلة، والتي أتت عليها في أقل من ثانية، أخبرت هوليمان بألا يقلق، فالطائرات المقاتلة تشن هجماتها على أهداف محددة مسبقاً، وإن فندق الرشيد من الممكن أن يكون أحد هذه الأهداف في حالة واحدة فقط، وهي أن تكون وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» قد قررت أن يكون ضمن قائمة الأهداف المتعين قصفها.

وانضم إلينا بيرنارد شو الذى كان في مخبأ الفندق لبعض الوقت خلال انقطاع التيار الكهربائي، وبعد لحظات من قدومه دق جرس الهاتف، وكان على الطرف الآخر موظف بدالة الفندق الذى حثنا على مغادرة حجراتنا والنزول إلى مخبأ الفندق في الطابق قبل الأرضي، وعند هذه اللحظة استشعرت خطراً على استمرار قيامنا بالتغطية الإخبارية، خاصة وأن بيرنارد شو أخبرني بأن جميع زملائنا من الصحفيين والإعلاميين قد تم إخلاؤهم من حجراتهم، واقتادوهم إلى المخبأ الذى يحرسه جنود مسلحون يحملون معهم أجهزة راديو ترانزيستور صغيرة، وقد أداروا مؤشرها إلى محطة الإذاعة البريطانية «بي. بي.

سى» التى كانت تذيع تغطيتنا الصوتية على الهواء.

كان شغلى الشاغل فى الساعات الأولى من الحرب هو التفكير فى كيفية أن يظل اتصالنا مع أتلانتا مستمراً ودون انقطاع، وكنت أشك كثيراً فى أن الحكومة العراقية يمكن أن تسمح لثلاثتنا من المراسلين أن نواصل بث رسائلنا إلى العالم كله دون مراقبة من السلطات. خاصة وأن هناك العديد من الدول كانت تبث إرسالنا الذى نبثه إلى أتلانتا مثل إسرائيل وغيرها.

الغارات تدك بغداد

كانت الغارات الجوية تتوالى كل خمس عشرة دقيقة، وكان علينا أن ننقل أحداث هذه الغارات، ونصفها للملايين من مشاهدى شبكة (CNN) فى العالم، ونقارن بينها وبين الألعاب النارية التى تملأ سماء الاحتفالات الأميركية فى ذكرى الرابع من يوليو كل عام، وبين الأعاصير المصحوبة برعد وبرق، وبين ما يصحب إطلاق مركبة فضاء من تفجيرات واحتراق ونيران هائلة، وقد شبه بيرنارد شو ما يجرى فى سماء بغداد من مشاهد بأنها من قلب الجحيم. وعندما وصف «جون هوليمان» فى حديثه إحدى غارات القصف الجوية بأنها «جميلة»، قاطعه بيرنارد شو قائلاً له: «جون: لم تكن تلك الغارة جملية بالنسبة لى»، كنا ننتقل من نافذة إلى نافذة من نوافذ الطابق التاسع بفندق الرشيد لنستطلع مشاهد القصف الذى كانت صواريخه وقنابله تتجه مباشرة صوب بطاريات الدفاع الجوى المضادة للطائرات، وصوب مواقع الرادار، ومبانى الوزارات، والمنشآت الصناعية، وموقع أجهزة الاتصالات التى تربط بغداد بالجيش العراقى الموجود فى الكويت، لكن بالرغم من ذلك فقد كانت كبارى نهر دجلة الست قائمة فى أماكنها.

مطاردة من الأمن العراقى

وعندما استمعنا إلى طرق شديد على باب الجناح الذى نقيم فيه بفندق الرشيد

نظرت إلى كل من بيرنارد، وجون واقترحت عليهما أن يسرعا بالاختباء، وأسرع هوليمان بالاختباء تحت أحد الأسرة، و«شو» اختبأ تحت طاولة بالغرفة المجاورة، بعد ذلك أغلقت المفتاح الذى يوصل تيار البطارية للهاتف المتصل بالقمر الصناعى، ثم قمت بفتح الباب لأجد أمامي ثلاثة من رجال الأمن، قام أحدهم بدفعى فى اتجاه الحائط، وأسرع الاثنان الآخران بتفتيش محتويات الغرف، ثم أمرونى بالنزول إلى مخبأ الفندق.

لم يكن هناك مفر سوى طاعة أوامرهم بالتوجه إلى المخبأ، لكننى وبصوة فجائية جلست على الأرض وأخبرتهم أننى مريض بمرض الخوف من الأماكن المغلقة، وأننى قضيت عشرة أعوام فى فيتنام دون أن أهتم بالقنابل التى كانت تتناثر من حولى، وأتذكر أننى قد استدعيت دموعى وانفجرت فى البكاء، فلم يملك رجال الأمن أمام بكائى ومصارعتى لهم وهم يقومون بسحبى وجرى من على الأرض إلا الاستسلام وتركى فى الغرفة.

مكتبنا الرئيسى فى أتلانتا اعتقد أنه فقد اتصاله بنا، وقام دافيد فرنش بإخبارمشاهدى شبكة (CNN) بافتقاد اتصالهم بنا فى بغداد، وبعد ذلك صرح «وولف بلتزر» من وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» بأن زحام الإشارات الألكترونية فى الفضاء والتشويش الناتج عنه قد عرقل الاتصال بين أتلانتا وبغداد، لكن بعد مغادرة رجال الأمن باب جناحنا فى فندق الرشيد قمت بإعادة توصيل التيار الكهربائى فى أسلاك الهاتف الأربعة، وعبر القمر الاصطناعى تم الاتصال بيننا وبين أتلانتا مرة أخرى.

واقترح علينا بيرنارد شو أن يعود مرة أخرى إلى مخبئه أسفل المنضدة حتى إذا هوجمنا مرة أخرى من قبل رجال الأمن واقتادونى أنا وجون هوليمان، يظل هو لكى يستمر فى بث التغطية الإخبارية لشبكة (CNN).

وبينما كان بيرنارد يتحدث على الهواء إلى أتلانتا، سمعنا طرقًا للمرة الثانية على الباب، جعل بيرنارد يتوقف عن الحديث وهو فى منتصف الجملة، ثم همس فى الميكروفون قائلاً: «علينا أن نختبئ الآن» وعندما ذهبت لأتحقق ممن بالباب وجدته «وينر» الذى نجح فى الإفلات من المخبأ بالطابق قبل الأرضى، بعد ذلك استمعنا نحن الأربعة إلى

خطاب الرئيس «بوش» الذى أعلن فيه عن مطالبه لكى يوافق على وقف الحرب، والتى تركزت فى انسحاب قوات صدام حسين من الكويت، وفى قبوله لكل قرارات الأمم المتحدة.

حديث بوش

وقد غطت أصوات القصف والتفجير على حديث الرئيس «بوش» الذى كان يضيف مؤكداً: «إن هذه الحرب لن تكون فيتنام أخرى».

وانغريد فورمانيك التى نجحت أيضاً فى التسلل من المخبأ وصعدت إلينا فى الطابق التاسع، أخبرتنا بأن هناك مظاهرة فى المخبأ تهتف ضد بوش. بينما كان رجال الأمن يتجولون بين المتظاهرين وهم حاملين أسلحتهم الآلية والأقنعة الواقية من الغازات.

وشاهدنا على شبكة تليفزيون (CNN) مؤتمراً صحفياً عقده وزير الدفاع الأميركى «ديك تشينى»، وحول سؤال وجه إليه عما إذا كان يشعر بالقلق من أن القصف الجوى ضد بغداد قد يتسبب عنه إصابة مدنيين، أجاب تشينى قائلاً: إن أفضل تغطية صحفية لما حدث فى بغداد شاهدتها كانت على شبكة (CNN). وقد بدا واضحاً طبقاً لتعليقات مراسلى (CNN) الموجودين بفندق الرشيد فى بغداد أن الغارات الجوية كانت ناجحة فيما يتصل بضرب أهداف استراتيجية فى دقة متناهية.

هدوء يسبق العاصفة

وعند الفجر هدأ القصف، وأصبح فى استطاعتنا الجلوس على المقاعد بعد وقت طويل قضيناه إما منبطحين أرضاً أو زاحفين بسواعدنا منتقلين من مكان إلى آخر، وقد قمت بتذكرة مشاهدينا أن تلك الهدنة لم تكن تعنى نهاية لشئ ما، فما حدث من قصف لا يعدو كونه الطلقات النارية الأولى فى حرب شاملة لا تبقى ولا تذر.

وحتى ذلك الوقت لم يظهر أى رد فعل من قبل صدام حسين، الذى كان قد أعلنها صريحة فى الأسبوع السابق لبدء اشتعال الحرب بأنه يرحب بالحرب، وأنه مستعد

لخوض القتال رافعاً شعاراً هو أشبه بالصيحة التى تلهب حماس جنده خلال القتال: «الله أكبر.. الله أعظم».

فى الطريق السريع ذى الثمانى حارات أمام الفندق بدأت مع أول نسمات الصباح حركة الحافلات كما عبرت أمامنا عربة إطفاء، لكن الأفق الممتد أمامنا كان يحجبه عنا ضباب كثيف ودخان أسود، وداهمنا إحساس بالإرهاق، فقد بقينا ثلاثتنا متيقظين لأكثر من ثلاثين ساعة متصلة، ولما أحسست بالتعب فى عظام جسدى وفى عينى أخبرت «وينر» بأننى ذاهب إلى غرفتى لكى أنال قسطاً من الراحة.

وعندما تيقظت فى وقت الظهر، اكتشفت عدم وجود مياه بحمام حجرتى بالفندق، فغسلت وجهى من زجاجات المياه المعدنية، كذلك انقطع التيار الكهربائى الذى تسبب فى تعطل جهاز الكمبيوتر النقال الذى جلبته معى إلى بغداد، وجعل جون هوليمان يستخدم آلة كاتبة لكتابة أحد تقاريره الصحفية.

نظرت من نافذة الفندق، فوجدت على البعد خلف جامعة بغداد دخاناً أسود كثيفاً يتصاعد من مصفاة نفط «دورا» الواقعة على نهر «دجلة» وفى اتجاه الجنوب كان الدخان الأسود الكثيف فوق المنطقة التى تضم الصناعات الكيميائية والنووية، وسحابات من التراب وذرات الرمل الأصفر كانت تغطى الجزء القديم من مدينة بغداد. حيث تكلفت صواريخ «كروز» بتدمير قطاع كبير من مبانى وزارة الدفاع، ومع ذلك فقد ظلت بعض مبانى الوزارت الحكومية الأخرى كما هى لم يلحق بها ضرر، كذلك كانت حركة المواصلات على عهدها دون أى تغيير يذكر.

كان من الواضح أن الغارات الأولى التى شنتها قوات التحالف ضد «بغداد» لم تنل من عزيمته شيئاً، فقد شاهد «نك وبرتسون» الرئيس العراقى «صدام حسين» فى وقت مبكر، بالقرب من مركز الاتصالات السلكية واللاسلكية، وهو فى طريقه لإلقاء خطاب إلى الشعب يقول له فيها إن «أم المعارك» قد بدأت، وقد ارتدى صدام الزى العسكرى وعلى وجهه – على حد قول «نك» سيمات التصميم والتحدى، وفى خطواته ما يوحى بأنه لن يسقط على أرضية الحلبة مهزوماً بالضربة القاضية فى الجولات الأولى على الأقل أمام قوات التحالف الدولى.

الفصل
الخامس عشر
مقاتلات التحالف تدك بغداد

* صفارات الإنذار تدوى ومقاتلات التحالف تدك المواقع الاستراتيجية ببغداد.
* الأمن يطردنا من فندق الرشيد فنقرر الرحيل إلى الحدود العراقية الإيرانية.
* العراقيون يطلبون من جميع وكالات الأنباء الرحيل باستثناء بعثة (CNN).
* شاهدت صاروخى توما هوك يمران أمام عينى وأنا فى الطابق التاسع بالفندق.
* تخوفت من قيام تل أبيب بضرب فندق الرشيد ردًا على قصفها بصواريخ سكود.
* لم أستطع الالتزام بالنص المراقب لرسالتى رغم ملازمة المسؤول الإعلامى عني.
* بعد رحيل زملائى خشيت أن تجبرنى الوكالة على مغادرة العاصمة العراقية.

بعد استيقاظي ذهب بيرنارد شو لكي ينال قسطاً من النوم والراحة، وظللت أنا وجون هوليمان نتبادل الحديث إلى أتلانتا عبر ميكروفون الهاتف المتصل بالقمر الصناعي لوصف الغارات الجوية المتتالية التي شنتها قوات التحالف ضد بغداد، ونتحدث عن متاجر بغداد التي أغلقت أبوابها، وعن المنشآت الحكومية المحظور الاقتراب منها. سواء للتصوير أو لأي سبب آخر، ولقد علمت أننا كفريق عمل لشبكة (CNN) لم نكن وحدنا الذين نقوم بالتغطية الإخبارية لأحداث الحرب، وإنما هناك صحف ووكالات أنباء وشبكات تليفزيون عالمية أخرى قامت بتجهيز هواتفها المتصلة بالأقمار الصناعية ومعداتها الألكترونية الأخرى، وبدأت بالفعل في أعمال التغطية الإخبارية، ولكن تحت إشراف المسؤولين العراقيين.

وجاء إلى مقرنا في الطابق التاسع «علاء» من رجال الأمن ليأمرنا بأن نغلق اتصالنا بمركز شبكة (CNN) في أتلانتا، وذلك طبقاً لأوامر صدرت له من وزارة الاتصالات السلكية واللاسلكية، وكان رد فعل كل من جون هوليمان ووينر هو الرفض. لكنني لم أوافقهما الرأي، فقد استدعت ذاكرتي على الفور ما حدث لزملاء لنا كانوا يقومون بتغطية إخبارية لأحداث مذبحة ميدان تيانان الصينية، ولم ينفذوا ما أرادوه المسؤولون الصينيون من إغلاق جهاز الإرسال.

قطع الإرسال

وبعد أن قمنا بقطع إرسالنا بناء على الأمر الصادر لنا، اتخذنا طريقنا إلى مخبأ الفندق، وذلك بعد الشائعة التي تقول بأن فندق «الرشيد» على قائمة الأهداف المتعين قصفها تلك الليلة، وكنت أرى أنه ليس هناك ما يدعو لأن يقوم التحالف الدولي بقصف فندق الرشيد. خاصة أنه من مصلحتهم أن يبقوا على استمرار قيام المراسلين الصحفيين في مختلف الصحف ووكالات الأنباء وشبكات التليفزيون العالمية بأعمال التغطية

الإخبارية التى تبرز صورة ودور دول التحالف أمام الرأى العام العالمى، كما كان اعتقادى أيضاً أنه حتى لو تعرض فندق الرشيد للقصف الجوى، فإن مخبأه من القوة والمتانة بحيث يكفل لنا النجاة.

وفى المخبأ الكائن بالطابق قبل الأرضى بفندق الرشيد كان إلى جوارى (جليل الشيخ) المسؤول بوزارة الإعلام العراقية الذى اصطحب معه إلى المخبأ عائلته المكونة من ابنتيه الشابتين «رند» و«ريم» و زوجته «إشراق»، ووالدتها صفية، وقد تجاذبت معهم أطراف الحديث، وتحدثوا معى عن فترة وجودهم ببغداد تحت تهديد القصف خلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية التى انتهت منذ فترة قصيرة، قد بدأت أشعر بالألفة مع تلك العائلة العراقية التى كانت تقدم لنا المياه المعدنية وثمار البرتقال وتبذل ما فى وسعها لطمأنتنا.

اليوم الثانى

قام كل أفراد العمل بشكبة (CNN) الموجودين بفندق الرشيد ما عداى أنا ونك وروبرت بمغادرتنا فى ضحى ذلك اليوم مستقلين سيارات أجرة تتجه بهم صوب الحدود العراقية الإيرانية، ومتخذين طريقاً آخر أكثر طولاً ومشقة عن الطريق السريع الذى تعرض للقصف الجوى، وقد تكلفت الرحلة خمسة آلاف دولار أميركى لكل سيارة أجرة.

وبعد نجاحنا فى عمل تغطية حية لشبكة (CNN) طوال ١٧ ساعة دون رقابة من أى نوع على ما قمنا ببثه، وفى تحقيق سبق صحفى على منافسينا فى الليلة التى شهدت بداية الحرب، وبعد مصادرة كاميراتنا التليفزيونية ورحيل المصور التليفزيونى، كان على ثلاثتنا منذ ذلك الوقت أن نتابع بثنا الصوتى فقط عبر هاتفنا المتصل بالقمر الصناعى، فى حين أن شبكتى تليفزيون «إن. بى. سى» و «بى. بى. سى» ظلتا بكامل فريق العمل الخاص بهما تبثان رسائلهما بالصوت والصورة.

وقد اقترح وينر نقل مكان عملنا من الطابق التاسع إلى ركن ببار «شهر زاد» الموجود فى بهو الفندق وذلك لتعطل المصعد، وقام «نك» بإعادة تجهيز هاتفنا ذى الأربعة

أسلاك المتصل بالقمر الصناعى للعمل، وإذا كنا قد خسرنا بنقل مكان عملنا الموقع البانورامى بالطابق التاسع، الذى وفر لنا مجالاً أوسع لرؤية سماء بغداد ومشاهد الحر، فقد كان بهو الفندق أقرب إلى مصادر الأخبار، وإلى المخبأ الذى كنا نتجه إليه مع كل الموجودين بالفندق كل نصف ساعة تقريباً.

وبينما كانت صفارات الإنذات تدوى فى الخارج والثريا الضخمة فى بهو الفندق تهتز، جاءنا «ناجى الحديثى» المدير العام بوزارة الإعلام العراقية، وقرأ علينا أول بيان من القائد العام بوزارة الإعلام العراقية حول الغارات الجوية التى شنتها قوات التحالف، جاء فيه قدر كبير من الإشادة بصلابة قوات الدفاع الجوى العراقى، وشئ من السخرية بالرئيس الأميركى «بوش».. وفى وقت لاحق توجهنا إلى مبنى وزارة الإعلام على بعد عدة مجمعات من المبانى لنسمع من «لطيف جاسم» وزير الإعلام تكراراً للتشدد العراقى، والتصميم على خوض الحرب حتى النهاية، وفى طريق عودتنا بسيارة الأجرة بدأ القصف الجوى.

وقام لطيف جاسم وزير الإعلام العراقى بالترحيب بوجود وينر تماماً، مثل الترحيب الذى لقيه وينر من قبل مسؤولين إعلاميين كبار آخرين، وكان لعلاقة وينر الطيبة بالمسؤولين العراقيين نتائجها الطيبة علينا، وقد ذكرتنى تلك العلاقة بعلاقات الثقة التى ربطت بين تيد تيرنر رئيس مجلس إدارة شبكة «سى. إن. إن» وبين المسؤولين الحكوميين فى موسكو، والتى سهلت لى كثيراً قيامى بعملى الصحفى، بالرغم من القيود الكثيرة والمعقدة التى كانت تتعرض لها الصحافة فى موسكو.

وبدأت فى بث رسائلى الصوتية إلى أتلانتا. وكان مسؤول الأمن علاء الذى أمرنا بالكف عن استمرار بث رسائلنا المرئية الصوتية بعد مصادرة كاميراتنا، هو المكلف بمراقبة تقاريرى وقصصى الإخبارية، وبالرغم من أن زميلىّ فى فريق العمل بشبكة (CNN) كانا قد جمعت بينهما وبين علاء جلسات أليفة ضاحكة حول مطاردته فتيات الاستقبال بالفندق. إلا أنه ظل بالنسبة لى الرقيب على كل ما أريد بثه للعالم الخارجى.

كان علاء يجلس إلى جوارى فى بار «شهرزاد» بفندق «الرشيد» وأنا أبث رسالتى

إلى أتلانتا على الهواء عبر الهاتف المتصل بالقمر الصناعى، وبعد أن أنهيت رسالتى طلب منى المذيع بوب كلين فى أتلانتا أن أجيب عن بعض الأسئلة، لكن عندما أجبته بأن الإجابة عن تلك الأسئلة تدخل ضمن المحظورات التى حددتها لنا الإدارة الحكومية العراقية، سمعته وهو يتحدث إلى مشاهدى الشبكة قائلاً: «ما جاء فى تقرير «آرنيت» هو ما سمح به مسؤولو الرقابة فى بغداد. وآرنيت غير قادر على أن يجيب عن أسئلتنا إلا بعد عرض إجاباته على مسؤولى الرقابة، والسماح له ببثها إليكم».

اليوم الثالث

حتى ذلك الوقت لم يكن مسموحاً لنا بمغادرة الفندق، وباستكشاف ما يجرى فى الخارج، ولم يكن أمامنا إلا النظر عبر النوافذ إلى التغير الحادث فى سماء بغداد، ومن بين التغييرات التى لاحظناها على سماء بغداد هو اختفاء مركز الاتصالات السلكية واللاسلكية أحد أكبر المنشآت فى بغداد الذى كان يقع فى الجهة الجنوبية على مدى البصر، وقد فقدنا أحد خطوط الاتصال الذى يصل ما بيننا وبين أتلانتا مع الدمار الذى لحق بمركز الاتصالات.

وفجأة صدرت الأوامر برحيل كل أفراد المجموعة الصحفية الموجودة فى بغداد من مراسلى صحف ووكالات أنباء وشبكات تليفزيونية، وقد تحدثت إلى وينر بأن علينا أن نراجع الإدارة العراقية فى قرارها، لكنه كان قد بدأ فى اجراءات تدبير سيارة أجرة لنا، وفى حزم حقيبته وفى الاستعداد للرحيل وكانت المفاجأة الكبيرة لنا، هى علمنا بقرار العراقيين الذى يقضى بالسماح لفريق العمل بشبكة «سى. إن. إن» فقط بالبقاء فى بغداد، وبرحيل بقية أفراد المجموعة الصحفية من مراسلى صحف ووكالات أنباء وشبكات تليفزيونية.

اليوم الرابع

حاول بعض منافسينا المجبرين على الرحيل مقاومة قرار ترحيلهم، لكنهم لم يجنوا

من مقاومتهم تلك إلا إخراجهم من الفندق، والتعامل معهم بنفاد صبر، كما عبرت «جانا شنيدر» المصورة الصحفية الحرة عن غضبها الشديد لى لبقائنا نحن فى حين أنها، وهى الأميركية لن يسمح لها بالبقاء، ولم أستطع أن ألومها على ثورتها ضدى، فقد كنت دائم التعرض لمثل تلك المواقف - بالرغم من الوضع المتميز الذى وجدت نفسى فيه - والذى نادراً ما أحصل عليه طوال عملى سنوات طويلة فى مجال الأخبار والصحافة.

وفى وقت لاحق وجدت روبرت وينر بصحبة سعدون المسؤول الإعلامى الكبير بوزراة الإعلام العراقية فى بهو الفندق، وقد أخبرنى روبرت من قبل بأن سعدون يتميز بروح مرحة، ويحظى بثقة النظام الحاكم، حتى إنه من المسموح له مشاركة الصحفيين الأجانب الشراب والسهر، ومن بين ما حدثنى به روبرت عن سعدون هو أنه اصطحبه معه فى شهر اكتوبر منذ ثلاثة أشهر فى زيارة إلى الكويت المحتلة.

وفى حديث جمعنى وسعدون المسؤول الإعلامى الكبير أخبرنى أنه بعد رحيل الصحفيين أصبح فى إمكانه أن يلبى احتياجاتنا بشكل شخصى، ولما استفسرت منه عن غير المسموح به فى مضمون الرسائل التى نبعث بها إلى مكتبنا الرئيسى فى أتلانتا، حدد على أصابع يده اليمنى ثلاثة لاءات هى: «لا معلومة عسكرية، لا معلومة تتعلق بنقل أو إيواء أو تموين الجند، ولا سفر دون إذن» وعلى الفور سألته عما بقى لى من المسموح به بعد كل تلك المحظورات، ابتسم قائلاً: «لا تعليق».

وبينما كنت نائماً فى فترة بعد الظهر بجناحنا فى الطابق التاسع بالفندق، أيقظنى صوت انفجار شديد ارتجت له جدران الفندق وأبوابه ونوافذه، وألقيت نظرة إلى خارج النافذة فشاهدت صاروخين يتحركان فوق مركز المؤتمرات على الجانب الآخر من الشارع فى حركة دائرية صوب الفندق فوقى تماماً، وفى اتجاه مركز المدينة التجارى، وأكثر الظن أن الصاروخين الذين شاهدتهما من النافذة، وهما يمران باستقامة طوليهما، وعلى بعد قريب جداً، هما من نوع صواريخ «توما هوك» التى كنت قد شاهدت صوراً لها من قبل.

وعندما هبطت سلالم الدرج إلى بهو الفندق، وجدت أن المرايا الزجاجية قد تساقطت من حوائط بار شهر زاد، وأعمال الهدم والردم قد غطت الأرضيات، وقطع

الأثاث انقلبت رأساً على عقب، والتراب والدخان الأسود المتصاعد من الحديقة، وبالقرب من حمام سباحة الفندق كونا سحاباً أسود ورمادياً حجب الرؤية.

واطمأننت على سلامة زملائي في شبكة «سي. إن. إن» داخل المخبأ - وكانا شديدي الاقتناع بأنهما قد نجوا بمعجزة من الموت، وصاح في وجهي وينر قائلاً: كنت أعلم أن الفندق سيكون على قائمة أهداف الضرب إن عاجلاً أو آجلاً، وبعد تفقد آثار الضرب و جدت أن جزءاً من صاروخ تم إسقاطه من قبل بطارية دفاع جوي موجودة بأعلى بناية خلف الفندق، قد اتخذ طريقه صوب الملحق السكني لموظفي الفندق الذي كان خالياً في ذلك الوقت.

بعد الانفجار الذي أصاب الملحق السكني لموظفي الفندق، أخبرنا العراقيون بأننا علينا مغادرة الفندق إلى مكان آخر أكثر أماناً خارج بغداد، وقد تملكني الفضول بأن مغادرتنا للفندق ستمكنني من التجول في أرجاء العراق بالسيارة ومعي الهاتف المتصل بالقمر الصناعي، لكن وينر رأى أن مغادرتنا الفندق ستجعلنا في غير مأمن، وتحت رحمة الظروف المحيطة والمعادية.

توصل كل من «نك» و«وينر» إلى قراربمغادرة بغداد في الصباح التالي متوجهين إلى الأردن، وعندئذ خشيت من أن يقرر المسؤولون بالمكتب الرئيسي لشبكة (سي. إن. إن) في أتلانتا، مغادرتي أنا أيضاً بغداد، لذلك تحدثت إلى توم جونسون، مؤكداً له أنه في استطاعتي مواصلة بث رسائلي تحت أصعب الظروف وأعقدها، وشعرت بالراحة عندما تأكدت من أن شبكة «سي. إن. إن» تؤيدني في الاستمرار في البقاء، وتشجعني عليه

في ذلك المساء أذاع التليفزيون العراقي مقابلات مع طيارين أسرى أميركيين ومن دول التحالف، وقد صفق أفراد العائلات العراقية والأردنية الموجودين بمخبأ الفندق بحماس شديد عندما تحدث الطيارون الأسرى على شاشة التليفزيون العراقي منددين بحكوماتهم الغربية، التي دفعت بهم إلى حرب لم يريدوها، وذلك أمام محققين عراقيين غير ظاهرين على الشاشة.

وبدأت في كتابة ملاحظاتي حول كل ما أراه من حولي على الورق، بعد أن

اختفت آلتى الكاتبة أثناء التدمير الذى حل ببار «شهر زاد» بالفندق،وكان على أن أقرأ ما كتبت للمسؤول العراقى «سعدون» قبل أن أبثه عبر أسلاك الهاتف المتصل بالقمر الصناعي، وذلك بسبب خطى الذى يصعب قراءته كما قال لى سعدون.

ورافقني سعدون أيضاً أثناء قيامي ببث ما كتبته على الورق الذى ضمنته أسماء الطيارين الأسرى، وانتقاداتهم لسياسة الحرب التى أقدمت عليها دول التحالف، كما تضمنت رسالتى الصوتية إلى أتلانتا، الوعد الذى قطعه صدام حسين على نفسه بمعاملة الأسرى معاملة إنسانية، عندما تنتهى الحرب بتحقيقه الانتصار على دول التحالف.

وأثناء حديثى إلى الهاتف لكى أبث رسالتى التى سبق أن وافق على محتوياتها المسؤول الإعلامى سعدون، لم ألتزم حرفياً بما كتبت، وتجاوزت مضمون ما كتبت على الورق، كما قمت بالإجابة على بعض تساؤلات وجهها إليْ ريد كولينز من أتلانتا. وقد تحدثت إلى أتلانتا أيضاً أثناء تبادل سعدون أطراف الحديث مع روبرت عن أحد الطيارين - وقد لفت يده ضمادة - وعن رضوض وكدمات كانت فى وجهى طيارين آخرين، كما قمت أيضاً بعمل مقارنة بين اعترافات الطيارين على شاشة التليفزيون العراقى، وبين ما قام به الشيوعيون من أشياء مماثلة أثناء الحرب الفيتنامية عندما أجبروا الطيارين الأميركيين بالتجول فى أرجاء هانوى عاصمة فيتنام الشمالية، وتوجيه انتقاداتهم ضد الحرب فى فيتنام.

كان وجود سعدون إلى جوارى أثناء بث ما سبق أن قرأته عليه يقلل من حريتى بعض الشئ، لكن مع استمرار توجيه المذيع فى أتلانتا أسئلة إلى. استطعت أن أخفى فى حديثى معلومات عن الوضع داخل بغداد لم يكن يسمح لى بكتابتها على الورق الذى يتم مراقبته، ومع الوقت تزايدت إمكانات تسريب بعض ما أريد قوله دون علم سعدون المسؤول الإعلامى العراقى.

فى وقت لاحق من ذلك المساء زودنا العراقيون بشريط مسجل للمقابلة التى أجراها التليفزيون العراقى مع الطيارين الأسرى. وقام «نك» ببث الشريط الصوتى إلى أتلانتا عبر التليفون المتصل بالقمر الصناعى. كما عرض على المدير العام بوزارة الإعلام

العراقية «ناجى الحديثى» إمكان قيامى بعمل مقابلة مع الطيارين الأسرى، وعلى الفور أجريت اتصالاً هاتفياً مع تيد تيرنر، رئيس مجلس إدارة شبكة تليفزيون (CNN) لكى أخبره بعرض المسؤول العراقى، وذكرته بأعمال الاستنكار والشجب التى تعرض لها صحفيون قاموا بإجراء مقابلات مع طيارين أميركيين أسرى فى فيتنام، وقلت له إننى أفهم حساسية وضع شبكة «سى. إن. إن» فى بغداد وأتفهم قراره برفض فرصة إجراء هذه المقابلة، لكن تيد تيرنر أجابنى قائلاً: «عليك اللعنة.. آرنيت.. اجر المقابلة».

اليوم الخامس

مع أول شعاع فى الصباح الباكر غادر كل من نك وروبرت بغداد مستقلين سيارة أجرة إلى الحدود مع الأردن، وقد ترك روبرت معى قبل ذهابه أربعين ألف دولار أميركى، فقد كان علينا أن ندفع حساب فواتير الفندق نقداً، وقد قمت بحشو الجاكت الذى أرتديه بأوراق النقد التى أعطاها لى روبرت إضافة إلى ما كان بحوزتى من أوراق نقد قيمتها ستون ألف دولار أميركى، وذلك لعدم ثقتى فى توفر الأمان لخزينة الفندق لحفظ الأمانات.

وعندما التقيت المسؤول الإعلامى سعدون فى بهو الفندق هنأنى لقرارى بالبقاء بعد مغادرة زميلى وأمطرنى بالقبلات التى كانت من نصيب روبرت من قبل، لكننى لم أقابل قبلاته من جانبى. لأننى كنت أريد أن أحافظ على وجود مسافة بينى وبينه، فلم أكن من ذلك الطراز الذى يجد سعادة فى التقرب من المسؤولين، كما أننى كنت على يقين بأن روبرت قد اصطحب معه كل علاقاته الوثيقة بالمسؤولين العراقيين، وبأن لكل من سعدون وأنا قواعد اللعب الخاصة، بعد ذلك تغير سلوك سعدون تجاهى بأسرع مما كنت أتصور، وكان أن طلب منى أن أحزم أمتعتى لكى أنتقل إلى مكان آخر.

لم أتمالك نفسى من الغضب والإصرار على بقائى فى فندق الرشيد، وطلبت من سعدون سبباً لذلك القرار المفاجئ، وأجابنى بأن الحكومة تشعر بالقلق على سلامة وأمن فندق الرشيد ومركز المؤتمرات القريب باعتبارهما واجهة النظام.

كنت أريد البقاء فى فندق الرشيد لأنه المكان الوحيد الذى يوفر القليل من أسباب

الراحة دون غيره، أخبرت سعدون بأن السبب الوحيد الذى من أجله لم يتعرض فندق الرشيد للدمار هو تواجد رجال الصحافة والتليفزيون الغربيين به، كما أخبرته أيضاً بحقيقة معرفتى بالجنرال نورمان شوارزكوف منذ السنوات الأولى لحرب فيتنام، وأضفت من مخيلتى أن شوارزكوف لن يبعث بطائراته لكى يقصف مكاناً به أحد أصدقائه.

كما قلت أيضاً للمسؤول الإعلامى العراقى سعدون بأن قرار بقائى فى بغداد متوقف على تواجدى بفندق الرشيد. فى تلك الأثناء كان نقاشنا وحوارنا قد أثار انتباه الموجودين ببهو الفندق، وتصادف أن وصل المدير العام لوزارة الإعلام العراقية ناجى الحديثى، والذى يرأس سعدون، واضطر كل منا أن يعيد ما قاله من قبل وبصوت أكثر حدة، وانتهى النقاش فى تأجيل النظر فى شأن الانتقال من الفندق. وقد تحدثت إلىّ فى وقت لاحق السيدة نهاد مدير الاستقبال بالفندق وشكرتنى لكونى قد كفلت الأمن والسلامة للفندق، لكن ما كنت أعلمه جيداً هو أننى لو كنت على خطأ فإنهم لن يسمحوا لأحد بمناقشة أى قرار لهم، كما كنت أيضاً على يقين بأنه إذا قامت إسرائيل بعمل انتقامى ضد العراق بسبب إطلاقها صواريخ سكود فوق تل أبيب فلن تهتم من قليل أو كثير بإخراج فندق الرشيد من قائمة الأهداف التى تضربها.

الفصل
السادس عشر
الأتفاق السرى
بين C.N.N.
والبنتاجون

* اتفاق سرى بين (CNN) والبنتاغون حول استخدام الهاتف المتصل بالأقمار الصناعية.
* تدمير إحدى المنشآت يثير جدلاً بسبب ادعاءات العراقيين بأنه مصنع لحليب الأطفال.
* مسؤولو (CNN) أكدوا للمشاهدين أن حريتى مقيدة فى بث المعلومات الصحيحة.
* شاهدت بنفسى كيف دمرت قوات التحالف الأهداف العسكرية بدقة متناهية.
* الصحفى البريطانى بروس يتعرض لتعذيب وحشى فى السجون العراقية ويفقد جواز سفره ونقوده.

بعد أن ألغي قرار الانتقال من فندق الرشيد، اكتشفت أنني لم أكن الصحفي الوحيد الذي سمح له بالوجود والبقاء في بغداد، فقد كان هناك ثلاثة صحفيين روس فرغت جيوبهم من النقود التي تكفل لهم العودة إلى موسكو، وعدد من الصحفيين الأردنيين وصحفي إسباني، ولكن كنت ما أزال متفوقاً عليهم بكوني الصحفي الوحيد الذي في حوزته خط اتصال هاتفي مباشر مع العالم الخارجي، وهو الخط الذي أكد عليّ توم جونسون من أتلانتا بألا أسمح لأي أحد غير أفراد شبكة (CNN) باستخدامه، وألا أستعمله في الاتصال بأي مكان في العالم سوى الاتصال بالمركز الرئيسي لشبكة (CNN) في أتلانتا، كما قال لي توم جونسون بأنه أعطى ضمانات لوزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» بأن تكون شبكتنا التليفزيونية (CNN) هي المستخدم الوحيد لذلك الخط الاتصالي الوحيد من العراق.

أدركت بوضوح أن أحد الأهداف الجوهرية للغارات الجوية التي قامت دول التحالف بشنها في اليومين الأوليين هو تدمير كل أجهزة الاتصالات التي تصل العراق بالعالم الخارجي، ومن ثم فإنني لم تكن لدي أدنى رغبة في إعطاء البنتاغون سبباً يجعلهم يحرموننا من ذلك الامتياز.

جاءني سعدون، وبرفقته الصحفي الإسباني ألفونسو روجو طالباً مني إذا ما كان في إمكان روجو الاتصال بمكتب صحيفته في مدريد، لكنني ذكرت سعدون بتشديدات أتلانتا عليّ بأن يقتصر استخدام الهاتف المتصل بالقمر الاصطناعي على فريق العمل بشبكة (CNN) فقط، وقد عرضت على الصحفي الأسباني روجو أن تصل رسالته إلى مدريد عن طريق مكتبنا في أتلانتا لكنه رفض ذلك العرض.

وفي وقت لاحق جاءني صحفيون آخرون يطلبون استخدام هاتفي في الاتصال بمكاتبهم الصحفية، من بينهم ليلى ديب الصحفية الأردنية، التي بدأت طلبها استخدام الهاتف بذكر قائمة بأسماء المنظمات ووكالات الأنباء العالمية التي عملت لديها، وأيضاً

الصحفيون الروس، وكان أن أجريت اتصالاً برئيس شبكة (CNN) فى أتلانتا «إيد تيرنر» لكى أطلعه على الموقف الخاص بالمطالب الملحة لاستخدام الهاتف، فكان رده صريحاً وحازماً: «لا أحد على الإطلاق يستخدم الهاتف غير شبكة (CNN). وأنت المسؤول عن أى تجاوزات فى هذا الشأن».

ولما كان انطباعى عن إجابة تيرنر أنه كان أكثر اهتماماً بإحراز شبكة (CNN) السبق الصحفى فى مجال الصحافة والتليفزيون على كل صحف وتليفزيونات العالم من استشعاره القلق على ما قد أتعرض له من مشكلات، فقد حرصت على إخراج إحدى الرقائق الألكترونية فى جهاز الـ «مودم» الذى يكفل توصيل الهاتف بالقمر الصناعى، والاحتفاظ بها فى جيبى ضماناً لعدم استطاعة «سعدون» مقاومة إغراء استخدامه للهاتف فى غيبة منى.

بعد ذلك لاحظت إصراراً من سعدون على أن أقضى كل ليلة فى المخبأ من أجل سلامتى على حد قوله، وداخلنى الشك فى أنه كان يريد مراقبتى، وبالفعل احتفظت لى عائلة جليل بمكان بالقرب منهم على أرضية المخبأ الصلبة، وقمت بإحضار أغطية من الجناح الخاص بشبكة (CNN) فى مستقرها بالمخبأ المزدحم باللاجئين إليه، والذى كان النوم لا يجلب النعاس، إلا على عيون الأطفال الصغار، أما الكبار فيظلون متيقظين معظم الوقت نهباً للقلق والتوتر.

وغالبية الموجودين بالمخبأ أصبحت وجوههم أليفة، فإلى جوارى كانت عائلة «توفيق» المكونة من الأم وابنتيها اللتين كانتا توزعان على المحيطين بهن أكواب الشاى العراقى من «الترمس» الذى يحفظ درجة حرارة ما بداخله من الشاى الساخن، وكانتا دائماً تقدمان لى شرائح البسكويت و ساندوتشات الكباب، ومن حين لآخر ومع كل انطلاقة لصفارات الإنذار كانت الدموع الغزيرة تنهمر من عينى الأم، وعند كل اهتزازة لبناية الفندق بتأثير قصف قريب بالصواريخ كانت الأم تخفى رأسها فى هلع تحت الغطاء وابنتها «لهيب» كانت تبذل ما فى وسعها لتهدئتها.

اشتمل مخبأ الفندق على أكثر من عشرة أفراد من الأوروبيين الذين جاءوا ضمن

وفد عالمى من أجل منع الحرب وإقرار السلام، وكانت بقية الوفد موجودة فى مخيم بالقرب من الحدود العراقية السعودية. وقد أخبرنى مسؤول الإعلام العراقى «سعدون» أن حكومته كانت تتحمل كل تكاليف إقامتهم وأن أعضاء الوفد يستعدون للسفر إلى بلادهم بعد فشل مهمتهم.

اليوم السادس

حضر إلى الفندق خلال الليل بروس تشيزمان الصحفى البريطانى الشاب، وفى الصباح ونحن نتناول طعام الإفطار قدمنى سعدون إليه، وكنت قد سبق أن سألت سعدون عنه بعد الأنباء التى تحدثت عن اختفائه. قال لى سعدون إنه اكتشف وجود بروس د اخل أحد السجون بعد أن ألقى القبض عليه خطأ فى الليلة التى بدأت فيها الحرب خلال تجواله فى بغداد، على اعتبار أنه أحد الطيارين الأميركيين، وقد وصفه سعدون بأنه أحد ضحايا عدم الفهم.

أطلعنى بروس على ما قاساه فى السجن، وعلمت منه بفقد جواز سفره وبأنه خالى الوفاض تماماً ولا يملك نقوداً، لذلك فقد خرقت اتفاقى مع مسؤولى شبكة (CNN) وجعلته يستخدم هاتفى للاتصال بأهله فى بريطانيا، كما أعطيته مفتاح الحجرة التى تحتوى على المواد التموينية الخاصة بشبكة (CNN) وطلبت منه أن يأخذ كفايته من الطعام حتى يسترد عافيته.

وجاء ناجى الحديثى المدير العام بوزارة الإعلام العراقية، ومعه أخبار تبعث على الابتهاج، فقد قررت حكومته أن تسمح لشبكة تليفزيون (CNN) بأن تبث رسائلها الصوتية والمرئية الحية من بغداد على الهواء مباشرة عبر القمر الاصطناعى، ويبدو أن إلحاحى المستمر على المسؤولين الإعلاميين لكى أستطلع المزيد من مشاهد الحرب قد وجد قبولاً، فقد اصطحبنى علاء معه فى سيارته فى جولة فى الجانب الغربى من بغداد، وكان يحدثنى عن قصف طائرات الحلفاء لأهداف مدنية وليست عسكرية، لكن خلال مرورنا بحى «المنصور» الراقى لم أر أى آثار تذكر لدمار، وبالرغم من أن المحال التجارية كانت

مغلقة، فقد مررنا بعدد من أكشاك بيع الخضروات والفاكهة المزدحمة بالراغبين فى الشراء.. و بسيارات مصطفة أمام محطات بيع الوقود، وبدا لى أن الصدمة الأولى لبدء الحرب قد ضاع أثرها.

وبمرورنا فى الأحياء الفقيرة ببغداد وجدت أنها لم تصب بأذى، لكن عندما اقتربت السيارة من المنطقة الصناعية فى أبو غريب شاهدت على البعد بقايا منشأة أصابها الدمار، وعندما وصلنا إليها وجدت صورة جدارية قد لحق بها التراب والدخان للرئيس العراقى صدام حسين وهو يواسى طفلاً مكروبا، ولافتة مكتوب عليها باللغتين العربية والإنجليزية : «مصنع حليب الأطفال».

كانت رقائق الألومنيوم المكونة لحوائط وسقف البناية قد تناثرت قطعاً صغيرة على الأرض وعكست شمس منتصف النهار، وعوارض السقف الحديدية التوت وعلاها سواد الحريق، والآلات اتخذت شكل كتلة متشابكة بعد أن صهرتها حرارة التفجير.

أشار علاء إلى الدمار أمامنا مؤكداً أن قصف ذلك المصنع الوحيد بالعراق لإنتاج الحليب للأطفال يعد مثالاً لعدم تمييز القصف الجوى الذى شنته غارات دول التحالف بين الأهداف المدنية والعسكرية. وأضاف قائلا: «لقد صرح رئيسك بوش بأنه لن يضرب أيه أهداف مدنية، والآن انظر بنفسك إلى تدمير ذلك المصنع».

محمد، ومايكل حاج، مصور ومخرج برنامج «أخبار العالم» بالتليفزيون العراقى الذى كانا يتجولان بحرية بكاميراتهما التليفزيونية، قالا لى إن المصنع كان ينتج ما قيمته عشرون طناً من مسحوق حليب الأطفال كل يوم قبل تدميره خلال غارات يومى الأحد والإثنين السابقين، وإنه لحسن الحظ لم يصب أحد من العاملين بالمصنع البالغ عددهم ثلاثمائة عامل وذلك لأن القصف حدث بعد انتهائهم من دوامهم الليلى. كما أشاروا إلى أعداد كبيرة متناثرة على الأرض من الملاعق البلاستيكية وإلى الشاحنات المحملة بصناديق مسحوق الحليب المحترق والمتفحم.

وقمت بالتقاط بعض الوثائق التى كانت ملقاة وسط الحطام ووضعتها فى حقيبتى دون أن يلحظ مرافقى علاء، وكان من بين هذه الوثائق رسم هندسى للمصنع الذى

أقامته مؤسسة صناعات «سودتيج» الفرنسية، ووثيقة أخرى تبين طريقة إنتاج مسحوق الحليب.

حاجز من الأسلاك الشائكة كان يحيط بالمكان، وبرج خشبى للمراقبة موجود بأحد أركانه. كان كل شئ أمامى يدلنى على أنه مصنع لإنتاج مسحوق حليب الأطفال، وقد جمعت عبوات من مسحوق الحليب معى لكى أقوم بتوزيعه على الأطفال الموجودين بفندق الرشيد الذين كانوا يشكون من نقص الحليب.

وفى الساعة الثامنة والنصف من تلك الليلة قمت ببث رسالة حول تدمير مصنع حليب الأطفال، قدمت فيها وصفاً بالتفصيل لمشاهداتى ومقابلاتى مع بعض المسؤولين، الذين أكدوا على أن ذلك المصنع هو المصدر الوحيد الذى يزود أطفال العراق بالحليب، ولم يكن لدى فى ذلك الوقت أى دليل يشير إلى أن المصنع كان يستخدم فى أى غرض آخر. وبعد أن أنهيت بث رسالتى لاحظت أن باتريك آمورى المذيع فى شبكة (CNN) فى أتلانتا لم يوجه أى سؤال يتعلق بقصة المصنع، وكان مهتماً اهتماماً غير عادى بقذائف صواريخ «سكود» التى قام العراقيون بإطلاقها لضرب «تل أبيب».

اليوم السابع

أيقظنى برد الصباح الباكر من نوم أول ليلة فى غرفتى بالطابق التاسع للفندق منذ بداية الحرب، بعد أن سمح لى سعدون بالصعود إلى غرفتى مع ابتعاد القصف الجوى إلى مناطق أخرى بعيدة عن الفندق، وقد استمتعت بالاستلقاء على سريرى اللين بعد أيام من النوم على أرضية المخبأ الصلبة، وعلى مائدة الإفطار بمطعم الفندق تجاذبت أطراف الحديث مع «سيد» رجل أعمال فلسطيى من الأردن لم يغادر بغداد مع المغادرين لكى يرعى شؤون مصنع السماد الذى يملكه فى إحدى ضواحى بغداد، ولأنه يعرف بغداد جيداً، وله علاقات وثيقة بشركة زلال للمياه، فقد باعنى أربعين صندوقاً من صناديق زجاجات مياه الشرب المعدنية.

كان قد مضى على بداية الحرب سبعة أيام عندما أخبرنى المكتب الرئيسى لشبكة

(CNN) فى أتلانتا بأن وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» قد صرحت بما يفيد بأن الحرب لن تنتهى سريعاً، وبأن الغارات الجوية على بغداد ستستمر إلى أجل غير مسمى، وفى جولة فى بغداد بصحبة علاء قام بترجمة ما جاء فى النشرة اليومية التى يصدرها الجيش العراقى، والتى تضمنت استنكاراً لمزيد من الغارات الجوية التى شنتها طائرات التحالف على المنشآت الصناعية، ومن بينها مصنع حليب الأطفال.

واعتدت من الرقيب سعدون حذفه لأجزاء كثيرة من القصص الإخبارية التى كنت أكتبها حول الغارات الجوية التى يشنها التحالف الدولى بين الحين والآخر، وحول تعود البغداديين سماع صفارات الإنذار، دون أن يبدو عليهم الهلع والفزع، وحول سريان الحياة العادية فى أسواق المدينة، واستمرار حركة البيع والشراء، لكن الفرصة كانت متاحة أمامى للحديث بحرية أكثر عندما كنت أنهى قراءة القصة الإخبارية التى تمت قراءتها من قبل الرقيب سعدون، وأبدأ فى الإجابة على الأسئلة التى كان يوجهها الىّ المذيع فى أتلانتا، والتى كنت أمرر فيها الكثير من المعلومات التى ما كان سعدون يسمح لى ببثها عبر الهاتف المتصل بالقمر الاصطناعى.

اليوم الثامن

فى وقت كفت فيه أعمال القصف الجوى خلال النهار، حركت مؤشر الراديو فى اتجاه محطة الإذاعة البريطانية (BBC) ، وخلال سماعى لنشرة أخبارها، فوجئت بالمتحدثة الرسمية للبيت الأبيض الأميركى «مارلين فيتزووتر» وهى تنعتنى بالكذب، وتقول إن الرئيس الأميركى «بوش» كان قد شاهد تقريرى الإخبارى الذى قمت ببثه لشبكة تليفزيون (CNN) عن قصف مصنع حليب الأطفال، وشعر بالاستياء، وصرح بأن المصنع لم يكن سوى منشأة لإنتاج الأسلحة البيولوجية.

وأضافت مارلين فيتزووتر فى حديثها إلى الإذاعة البريطانية (BBC) بأن إنتاج المصنع لحليب الأطفال كان الواجهة التى يتخفى وراءها النظام العراقى لكى يستمر فى إنتاج أسلحته البيولوجية المحرمة دولياً، كما أضافت مارلين فيتزووتر بأن شبكة تليفزيون

(CNN) أصبحت بوقاً يستعمله العراقيون في بث معلوماتهم المضللة.

منذ بداية الحرب والتقارير الإخبارية الأولى التي بثتها شبكة (CNN) حول عمليات القصف الجوى ضد بغداد كانت تحظى بقبول ومباركة من حكومة الولايات المتحدة الأميركية، وذلك بسبب ما جاء في تلك التقارير من تأكيدات على أن الغارات الجوية التي قامت بها دول التحالف قد أصابت أهدافها بدقة كبيرة،الشئ الذى كان له التأثير الإيجابي على السياسة الأميركية، لكن بعد التقرير الإخبارى الخاص بقصف مصنع حليب الأطفال بدأت الحكومة الأميركية في تغيير نظرتها إلى شبكة تليفزيون (CNN) بشكل واضح.

خلال تناول طعام الإفطار كنت قد التقيت بالمسؤول الإعلامي العراقي سعدون الذى صافحني ضاحكاً وقال لي في سرور بالغ: «لقد غضب الأميركيون منك، أليس كذلك»، وقد أجبته على الفور بأن شبكة تليفزيون (CNN) تعتمد عليّ اعتماداً كبيراً في أن أقدم الدليل الدامغ على أن ما قد تحدثت به عن مصنع حليب الأطفال هو الحق الصدق، وأضاف مؤكداً قولي: «الجميع هنا في بغداد يعلمون أن ذلك المصنع لا يعمل إلا في إنتاج الحليب للأطفال، وأن الفرنسيون هم الذين قاموا على إنشائه وعلى إدارته لسنوات».

وتدخل في الحديث الدائر بيني وبين سعدون، رجل الأعمال الفلسطيني «سيد» الذى شاركني إفطار يوم سابق قائلاً: بيتر، لقد زرت ذلك المصنع مرات عديدة ولم ينتج سوى الحليب للأطفال العراقيين»، وقبل أن ينهي سيد قوله، تذكرت ليلة أمس عندما أعطيت سيد عبوة من عبوات مسحوق الحليب التي كنت قد جلبتها معي من المصنع، وعندما قام بفتحها على الفور وصب منها في فنجان قهوته وراح يحتسى منه رشفه بعد رشفة.

أخبرت سعدون بأن الصور التي قمت ببثها لشبكة (CNN) ربما لم تكن كافية لأن تؤكد صدق كلماتي أمام تكذيب البيت الأبيض الأميركي لها، وأضفت قائلاً له بأن مصداقيتي كمراسل حربي قمت بتغطية أخبار الحرب في كل أرجاء العالم، وإني لذلك

في حاجة شديدة إلى وثائق تتعلق بتاريخ المصنع، وتكون قادرة على إقناع المتشككين في صحة أقوالي الخاصة بإنتاج المصنيع لحليب الأطفال.

ولقد كانت الفرصة متاحة أمامي لكي أطلب من سعدون توفير مزيد من المرونة لي حتى يمكنني العمل بصورة أفضل، والمزيد من الحرية لي وأنا أقوم بالرد والإجابة على الأسئلة الموجهة لي على الهواء من المذيع الموجود بمركز شبكة (CNN) الرئيسى في أتلانتا، وألا أتقيد بوقت محدد في الإجابة على تلك الأسئلة حتى أتمكن من إيصال ما أريد إيصاله حول قصة المصنع، كما أخبرت سعدون بأنه من الضرورى أن تتاح لي مشاهدة الكثير مما يجرى في مدينة بغداد وضواحيها بعد استمرار القصف الجوى لسبعة أيام متصلة.

ابتسم سعدون إلى في ود ظاهر، وعندئذ تذكر القول العربى المأثور بأن عدو عدوى هو صديقي، وذلك لأن سعدون كان يبغض البيت الأبيض، في الوقت الذى عبر فيه البيض الأبيض عن كراهيته لي، وبالتالى أكون أنا صديقاً مقبولاً لدى سعدون وحكومته، وقال لي« بيتر.. إن الأميركيين يزعمون بأنهم خبراء في القصف الجوى لأهدافهم بدقة عالية، أليس كذلك؟ كما يزعمون أيضا بأنهم دمروا فقط أهدافا عسكرية، حسنا اليوم سنصحبك في جولة ببغداد لكي تشاهد بعينيك ما يدحض مزاعمهم

انطلقت بنا حافلة صغيرة تضمني وبعض الصحفيين الآخرين، ويصحبه علاء إلى منطقة «العوضى» في شمال غرب بغداد، وعند مجمع يضم عدة منشآت صناعية صغيرة أصابهم الدمار، توقفت الحافلة، وأشار لنا «علاء» في اتجاه حفرة بعمق ١٥ قدما في أحد الحوائط الجانبية، أحدثها انفجار قنبلة، وفي اتجاه النوافذ الزجاجية المتساقطة بالقرب من مسجد، وعندما استفسرت من بعض المواطنين عما إذا كان القصف قد تسبب في خسائر بشرية أجابوا بالنفي.

وقمت بزيارة منطقة «سماوا» في الشمال حيث يقع المبنى الرئيسى لمديرية الدفاع المدني، الذى تعرض لقصفين جويين، ثم في طريق عودتنا إلى فندق الرشيد، وعلى بعد نصف ميل منه شاهدنا ثلاثة منازل و قد أصابها دمار شديد، وطبقا لأقوال بعض المواطنين

الموجودين بالشارع فإن العديد من المقيمين قد أصيبوا في ذلك القصف بجراح.

وبمرورنا إلى جوار عدد من مباني الوزارات الحكومية، ومركز الاتصالات التي تعرضت لقصف شديد بالقنابل والصواريخ في الأيام الأولى للحرب، والتي سبق بث رسائل صحفية حولها، فقد بدا لي طوال ساعتين قضيناهما في الحافلة لم نشهد خلالهما غير ثلاثة أمثلة لضرب دول التحالف لأهداف مدنية، إن الغارات الجوية التي شنها التحالف الدولي فوق بغداد كانت قد أصابت أهدافها بدقة أكثر مما أراد لنا سعدون أن نعتقد.

وعندما بدأت في وقت الظهر ببث أول تقاريري الإخبارية لشبكة (CNN) لذلك اليوم، أخبرني «ريك مود» المذيع في أتلانتا باستمرار ترديد البيت الأبيض الأميركي لاستيائه من قصة مصنع حليب الأطفال التي قامت شبكة (CNN) ببثها، ثم سألني بقوله: «ربما تكون قد تعرضت لخداع وتضليل؟» وأجبته على الفور إنني أبث في رسائلي الصحفية ما أراه بعيني. وفيما يتصل بمصنع حليب الأطفال فقد سمحوا لي بالتجول بين بقايا الدمار، وأضفت قائلاً بأنه من المقلق لي جداً أن يكون ذلك المصنع بالفعل قد أنتج مواداً تستخدم في الأسلحة البيولوجية والكيميائية وأن يكون قد أصابتي تلوث بتلك المواد. وعندما سألني ريك مور مذيع شبكة تليفزيون (CNN) عن قدر الثقة التي أوليها للمعلومات التي في حوزتي عن مصنع حليب الأطفال، أجبته بأنني قمت بتوجيه أسئلة إلى كل شخص قابلته، ولكنني لا أضمن قدر صدق ودقة إجاباتهم لي، وأضفت إليه قائلاً: «لقد تعلمت من وجودي سنوات في فيتنام ألا أصدق إلا ما أراه بعيني، فقد ولدت شكاكاً، وباعتباري صحفياً فإن ما أستطيع أن أؤكد عليه فقط هو الشيء الذي يمكن أن أراه بعيني».

وفي سؤال له وجهه «ريك» إليّ عما إذا كنت أبث ما يخبرني به العراقيون. أم أن هناك هامش حرية أمامي يمكنني من بث ما أراه، وذلك لأن هناك في أميركا انطباعاً قد يكون لدى البعض بأن التعليمات قد صدرت إليّ لكي أعبر عن وجهة نظر الجانب العراقي، وقد أجبت ريك بقولي: إن الشيء الذي يحظى باهتمام العراقيين البالغ هو ألا أبث

لشبكة (CNN) بأية معلومات قد يستفيد منها التحالف الدولي.

وقد ختم ريك حديثه لمشاهدى شبكة (CNN) بعد أن أنهى حواره معي قائلاً: «نحن نذكر مشاهدينا بأن يضعوا فى أذهانهم أن تقارير بيتر أرنيت من بغداد تعتمد اعتماداً كبيراً على تصريحات وبيانات تصدر عن الحكومة العراقية، مهما جاء فى حديثه من وجهة نظر شخصية يكون فى إمكانه أن يضمنها تقاريره، وذلك لأن تحركاته مقيدة من قبل الحكومة العراقية، وليست أمامه فرصة للوصول إلى مصادر مستقلة للمعلومات».

لقد داخلنى شعور بأنه حتى شبكة (CNN) التى أعمل بها تشك بقدراتى فى التوصل إلى الحقائق، كما ساورنى قلق عميق بأن الضغوط السياسية التى تمارسها الولايات المتحدة الأميركية قد تتسبب فى تقويض المهمة التى أقوم بها فى بغداد، خاصة وأننى قد تعرضت لمثل هذه الأوضاع فى فيتنام وأميركا الجنوبية.

كان سعدون المسؤول الإعلامى العراقى يستمع إلى حوارى مع ريك مور المذيع بشبكة (CNN) فى أتلانتا، وقد بدت على وجهه أمارات الحيرة، وقال: «هل يريدون الدليل؟ فى الغد سأرتب جولة لك .. نذهب فيها إلى بعض الأماكن لكى نريك صوراً للتدمير الوحشى، وسوف يكون فى حوزتك الدليل».

الفصل السابع عشر
شعب العراق يعبر عن غضبه

* الحرب تزداد اشتعالاً والعراقيون يدعون أن القصف لم يطل سوى الأهداف المدنية.
* شاهدت منصة متحركة لصواريخ سكود تتجه إلى الحدود لضرب تل أبيب.
* شعب العراق يعبر عن غضبه علانية ويحمل الطاغية المسؤلية الكاملة بسبب احتلاله الكويت.
* العراقيون رتبوا لى زيارات لرؤية الأهداف المدنية المدمرة،
* ورفضوا رغبتى فى تصوير المواقع العسكرية المهدمة.
* صاروخ سكود يمر أمام فندق الرشيد. فخشيت أن تقوم قوات التحالف بضربة.
* توجهت لشمال العراق، وطوال الطريق لم أر أهدافًا مدنية تعرضت للقصف الجوي.

بدأ المسؤول العراقى علاء فى الإعداد للرحلة الطويلة التى سنقوم بها إلى الشمال متجاوزين منطقة آثار «سامراء» التى كانت مركز الحضارة ما بين النهرين فى العالم القديم، والتى عرفت عنها بأنها المركز الرئيسى للصناعات الكيمائية العراقية، وفى تلك الأثناء كانت العلاقة التى تربطنى بـ «علاء» تزداد وثوقا، وخاصة بعد أن قمت بدور الوسيط بينه وبين فتاة الاستقبال الجميلة بفندق «الرشيد» التى أحبها بالرغم من عدم موافقة عائلتها الثرية على علاقتهما الغرامية، وأيضاً بعد الجلسات الطويلة بيننا، والتى كان علاء يهتم خلالها باكتساب جمل وعبارات جديدة باللغة الإنجليزية، وهى اللغة التى حصل على درجة البكالريوس فى أدبها من إحدى جامعات اسكتلندا.

كان من حسن حظنا أن الطقس لم يكن ملائماً لقيام طائرات دول التحالف بشن هجمات جوية فوق بغداد، ونحن فى السيارة التى تحملنا، وتتجه بنا إلى «الموصل» فى الشمال بمحاذاة نهر «دجلة» فقد كان الجو ملبداً بالغيوم ومطر خفيف يتساقط على مناطق مختلفة فى الأراضى العراقية.

اليوم التاسع

فى الساعة الأولى من رحلتنا مررنا بالعديد من المجتمعات السكنية الصغيرة على جانبى الطريق الذى تسلكه السيارة التى تقلنا إلى الشمال، ولم تكن هناك أية دلائل على حدوث قصف جوى، وكانت أكشاك بيع الفاكهة والخبز تموج بحركة البيع والشراء، كما كانت صور الرئيس العراقى صدام حسين فى زية العسكرى مطبوعة على صدر الأثواب العربية والقمصان العربية، ومعلقة فى الشوارع والميادين.

وأثناء مرورنا بالسيارة وسط الحقول المتناثرة، وبعض مناطق مزروعة بالنخيل، وعند أحد التقاطعات شاهدت قافلة من الشاحنات تحمل صواريخ «سكود» وقواذفها

مصحوبة بقوة دبابات تحميها تتجه مسرعة نحو الغرب إلى المناطق القريبة من إسرائيل، ولاحظت علاء وهو يضع أصبعه على شفتيه علامة تحذير صامت لى، وكانت هناك أيضاً شاحنات عسكرية ودبابات تتجه صوب بغداد، وقد استنتجت أن بغداد العاصمة يتم تعزيز قوتها الدفاعية، وللمرة الثانية كانت إشارة علاء الصامتة، التى تعنى أن ما شاهدته يعد من المعلومات السرية غير المصرح لى بالتحدث بأمرها.

وبعد انقضاء ساعتين، ونحن داخل السيارة التى كانت تنهب بنا أرض الطريق المتجه صوب الشمال، بدأت تتغير طبيعة الأرض التى على الجانبين من حقول متفرقة ونخيل، إلى أراضى رملية وتلال على مدى البصر، وعندما اقتربت من «سامراء» بدأت أشاهد مواقع التنقيب عن الآثار وأعمال الحفر والحوائط المتهدمة التى يرجع تاريخها إلى عصور قديمة فى الزمان، ثم شاهدت موجات من الدخان الأسود الكثيف على مدى البصر فى اتجاه الغرب تتصاعد من المعهد التكنولوجى، وعندما اقتربت من مدينة «الدور» التى يقع فيها المعهد التكنولوجى والمجمعات السكنية المحيطة به فى وسط المدينة، وجدنا عدداً من المجمعات، وكأن زلزالاً قلبها رأسها على عقب، والشوارع.. وأقد أصبح من المتعذر السير عليها.

وتجولت على قدمى بالقرب من المنازل التى أصاب القصف الجوى أسطحها، وأحدث فجوات فى جدرانها، وشاهت الأشجار، وقد اقتلعت من جذورها، وأحصيت أثناء سيرى ثلاثة وعشرين منزلاً من المنازل التى لحق بها الدمار الكامل عدا المنازل الأخرى المدمرة، التى لم تمكننى أعمال الهدم والحرق من الوصول إليها والاقتراب منها، وكذلك الحفرة الكبيرة التى خلفتها انفجارات القنابل والمواد المتفجرة بالقرب من كل منزل متهدم.

وأمام مسجد دمره القصف تماماً كانت هناك فجوة بعمق ثلاثين قدماً فى باطن الأرض، وباتساع يبلغ طوله ستين قدماً، وعند مفترق طرق كانت هناك أربع فجوات قريبة جداً من بعضها، وبعمق كبير جداً داخل الأرض تشبه إلى حد كبير أعمال حفر بالغة العمق من أجل أساسات ناطحة سحاب عملاقة..

وأثناء تجوالى بصحبة علاء بين العراقيين من سكان المدينة استمعت إليهم وهم يتحدثون عن مصرع أربعة وعشرين من المدنيين قتلوا أثناء القصف الجوى، وعن أسماء الأسر العراقية التى قتلت بكاملها، وكان المتحدثون تبدو مشاعر الغضب والعدوانية على وجوههم.

وذكر المسؤولون المحليون بالمدينة أن القصف الجوى الذى استهدف مدينتهم بدأ فى الساعات الأولى من صباح يوم ٢١ يناير الموافق اليوم الخامس للحرب، دون أن تكون هناك مخابئ يهرع إليها سكان المدينة، اتقاء للغارات الجوية، لأنه لم يكن فى حسبان أحد توقع أن يحدث أى اعتداء على مدينتهم فى أى وقت من الأوقات.

وأثناء قيام المسؤولين المحليين بمدينة «الدور» بمرافقتنا داخل مدافن المدينة. حيث شاهدنا مقابر تم حفرها حديثًا لدفن أربعة وعشرين قتيلاً، أكدوا لنا خلو مدينتهم «الدور» من أية أهداف عسكرية، وقد تحدث إلىّ أحد هؤلاء المسؤولين قائلا: «انظر حولك فلن ترى أى شئ يمكن أن يعد هدفًا عسكريًا».

وعندما تلفت حولى شاهدت أعمدة الدخان تتصاعد على بعد عدة أميال فى اتجاه الجنوب، فوق المعهد التكنولوجى.

وعند اقترابى من حطام أحد المنازل وجدت نسخة ممزقة من رواية «معرض الخيلاء» للروائى الإنجليزى «ثاكيرى» وعليه إهداء إلى «رضا عبد العزيز» الذى لقى مصرعه أثناء الغارة الجوية، والذى قال عنه أقاربه إنه كان فى التاسعة عشرة من عمره، ويدرس الأدب الإنجليزى فى جامعة بغداد.

وبتصفحى للرواية لاحظت أن «رضا عبدالعزيز» طالب الآداب الإنجليزى قد كتب ملاحظات عديدة فى هوامش الصفحات، ووجدت بداخل الرواية ورقة منفصة كتب ليها: «ريكا شارب» لم تكن متسامحة وعطوفة، ربما لأن العالم يعامل الناس بالكيفية التى يستحقون أن يتم التعامل معهم بها، والعالم مرآة إذا أنت نظرت إليها فى غضب فسوف يرتد الغضب إليك، وإذا أنت ضحكت إلى المرآة ومعها فسوف تكون لك الصحبة العطوفة والودود»،

وقد اصطحبت معى الرواية كتذكار، لكننى لم أكن أنوى التحدث عنها عندما أقوم ببث قصتى الإخبارية إلى شبكة تليفزيون (CNN) وذلك لأننى كنت أعلم جيداً إننى إذا ضمنت قصتى الإخبارية وصفاً للغارة الجوية التى أصابت المدنيين العراقيين فسوف أعرض نفسى لمزيد من كراهية البيت الأبيض. الذى ما زال لا ينسى لى قصة مصنع حليب الأطفال.

كان هوليمان يذيع تقرير المساء بشبكة تليفزيون (CNN) عندما قمت ببث تقريرى الإخبارى عن كل ما شاهدته من آثار دمار تعرض له المدنيون فى مدينة «الدور العراقية». وقد علق هوليمان على قصتى قائلاً: «إن الكثيرين من الأميركيين قد استقر فى تفكيرهم أننى عميل مزدوج» لكننى أجبته قائلاً: «بأن المشاهدين يجب أن يعتادوا مشاهدة تقارير إخبارية مثل تقريرى الإخبارى الذى قدمته لشبكة (CNN) عن مدينة «الدور» فمن غير المعقول أن تفرغ طائرات التحالف آلاف الأطنان من القنابل لتقصف أهدافاً فى العراق التى عدد سكانها سبعة عشر مليون نسمة دون توقع إنزال خسائر بالمدنيين.

وأخبرت هوليمان بأن الانتقادات التى أتعرض لها نتيجة قصصى الإخبارية تعرض لمثلها «هارسون ساليزبورى» مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» فى عام ١٩٦٦ عندما اصطحبه المسؤولون فى فيتنام الشمالية لمشاهدة آثار الدمار الشامل الذى حل بالمناطق التى يسكنها الفيتناميون، والأعداد الكبيرة من المدنيين التى أصيبت بجراح من جراء الغارات الجوية التى شنتها الطائرات الأميركية.. وأضفت قائلاً: بأننى أتمنى أن نكون جميعاً على إدراك تام بطبيعة الحرب.

اليوم العاشر

أخبرتنى «أتلانتا» بغياب «بوب سيمون» المراسل الصحفى لشبكة (C.B.S) الأميركية وفريق العمل المصاحب له دون أن يعثر لهم على أى أثر وذلك بعد توجههم إلى منطقة الحرب فى الخليج، ومن المرجح أن السلطات العراقية قد ألقت القبض عليهم،

وعلى الفور تحدثت فى أمر غياب بوب سيمون ورفقائه مع المدير العام بوزارة الإعلام العراقية «ناجى الحديثى» وطلبت منه معلومات حول مصيرهم، كما أخبرت أتلانتا عبر الهاتف أن يلحوا فى السؤال عن بوب سيمون أثناء قيامهم بالإذاعة على الهواء.

كذلك طلبت من ناجى الحديثى أن يسارع بإنقاذ الشاحنة الخاصة بشبكة (CNN) والتى تحمل جهاز إرسال تليفزيونى متصل بالقمر الصناعى والموجودة عند الحدود الأردنية، دون أن يستطيع فريق العمل المصاحب لها قيادتها بسبب تراكم كميات كبيرة من الثلج فى الطريق، وكان أن بعث ناجى بعض المسؤولين للبحث عن مكان شاحنة (CNN) دون جدوى، ولكنى طلبت من المسؤولين العراقيين أن يبذلوا محاولة أخرى لإنقاذ الشاحنة، وفريق العمل الذين يتهددهم الثلج والخوف، وبدوا مترددن فى تكرار المحاولة، لكنهم بعد أن زودتهم بكميات كبيرة من المواد الغذائية الموجودة لدى فى جناح (CNN) بالطابق التاسع بالفندق، ومن الشيكات السياحية، وافقوا على تكرار عملية البحث والإنقاذ

بدا «ناجى الحديتى» اليوم مرهقاً، ولم يكن حليق الذقن كالمعتاد، وعندما التقينا فى بهوالفندق قال لى: «يبدو أنك مستمتع بالحرب»، وفى الحقيقة أن ملاحظته كانت صائبة، فقد كنت أقوم كل يوم بكتابة تقرير إخبارى أو قصةإخبارية، وقبل أن أبث ما كتبت إلى شبكة (CNN) كنت أشعر برضا عن عملى الذى أحببته دائماً.

وأخبرت ناجى الحديتى بأن المسؤولين فى شبكة (CNN) فى أتلانتا يريدون منى عمل مقابلات مع كبار المسؤولين فى الحكومة العراقية، وعلى الفور بادرنى ناجى ضاحكاً: «من تريد أن تجرى معه مقابلة لشبكتك، صدام حسين؟».. وقاطعت ضحكاته قائلاً له: «لماذا لا أجرى مقابلة مع صدام حسين».. وبعد فترة صمت قال ناجى: «الرئيس مشغول جداً بأشياء على جانب كبير من الأهمية».

عرض ناجى علىّ القيام بجولة فى الجنوب إلى مدينة «النجف» ثالث أهم مدينة إسلامية بعد «مكة والمدينة» والتى كانت قد تعرضت لقصف جوى وحشى على حد قوله، ولم أرفض قبول هذا العرض الذى يعد رابع زيارة لمناطق سكنية أصابها دمار القصف

الجوى لطائرات دول التحالف منذ بداية الحرب، وذلك لأن كل مكان كنت أذهب إليه يعد قصة درامية من القصص الدراميةالتى تحفل بها أى حرب، وبالإضافة إلى زيارة مدينة «النجف» طلبت أيضاً من ناجي الحديثي زيارة مواقع عسكرية تعرضت للقصف الجوى، ولكنه لم يجبنى على طلبى هذا لاعتبارات أمنية.

لم أشعر بالقلق لأن تقاريرى الإخبارية لم تكن تغطى غير الجانب المدنى من رواية الحرب، فكل يوم كانت القيادة العامة لقوات جيش الحلفاء فى المملكة العربية السعودية تعلن عن قائمة بأهداف عسكرية عراقية تم تدميرها، بل إنها كانت تقوم بتوزيع أشرطة فيديو مصورة لغاراتها الجوية الناجحة فوق بغداد على كل وسائل الإعلام، ومن جانب آخر كنت أعلم أن المسؤولين العراقيين قد استقر فى أذهانهم أن التأكيد على ضحايا الحرب الأبرياء من المدنيين وإبرازهم أمام الرأى العام العالمى يخدم مصالحهم، كما أننى شعرت بأن تقاريرى الإخبارية التى أبثها إلى شبكة (CNN) ترجح كفة العراقيين فى كسب الرأى العام العالمى إلى جانبهم.

وبتنامى الانتقادات الموجهة إلى شبكة تليفزيون (CNN) وإلى بيتر آرنيت خفف المسؤولون العراقيون على إحكام قبضتهم الرقابية على ما أقوم ببثه من تقارير وقصص إخبارية بعض الشئ، لكننى كنت على بينة تماماً بموقفى الحرج والمحفوف بالمخاطر.وأنا جالس فى المقعد الخلفى للسيارة، ونحن فى طريق عودتنا فى المساء إلى فندق الرشيد ببغداد، قمت بكتابة تقريرى الإخبارى على ضوء الكشاف الكهربائى الذى كنت قد ثبته بين ذقنى وصدرى. وعند اقترابنا من المناطق الجنوبية للعاصمة العراقية بغداد بدأ قصف جوى عنيف فوق مجمع صناعى إلى جهة اليسار من الطريق السريع الذى كانت تقطعه سيارتنا، وكان القصف بالقنابل قريباً منا، حتى أن قائد السيارة قام بإطفاء الأنوار ومضى متحسساً طريقه بالوهج الصادر من نيران بطاريات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات.

وبالرغم من أن علاء مرافقى فى جولاتى الميدانية كان شديد القلق على حياتى من خطر القصف الجوى الشديد، وكان يحث سائق السيارة على أن يسلك طرقا تبعد عن مناطق القصف، إلا أنه ومع قرب وصولنا إلى مدينة بغداد كانت طائرات دول

التحالف تقوم بإلقاء أطنان من القنابل والمواد المتفجرة على مصفاة نفط «دورا» وفوق مطار حكومى بالقرب من فندق «الرشيد» فى ثانى هجوم يستهدف المصفاة والمطار.

وبوصولنا إلى بهو الفندق الذى كان مظلماً ومهجوراً، علمنا بأن النزلاء ومعهم «سعدون» توجهوا إلى المخبأ وهناك قام بقراءة تقريرى الإخبارى ووقع عليه دون أن يقوم بحذف، أو يطلب أى تعديل فيما جاء فيه، ثم طلب من زميل له من وزارة الإعلام أن يصحبنى وأنا أقوم ببث التقرير عبر الهاتف إلى أتلانتا. معللاً «سعدون» سبب ذلك بأنه يشعر بإرهاق شديد.

وبعد أن أنهيت بث تقريرى لشبكة (CNN)، بدأت «بوبى باتيستا» المذيعة فى أتلانتا فى إلقاء أسئلة لكى أجيب عنها استغرقت أكثر من ربع الساعة. كان خلالها بديل سعدون يتميز غيظاً، فقد كان يريد العودة إلى المخبأ، وكان فى تلك الأثناء يرهف السمع إلى قصف القنابل فى الخارج دون اهتمام يذكر بسماع أجوبتى التى كنت أبثها إلى أتلانتا، ومن ثم كان فى إمكانى أن أتحدث بحرية أكثر من المعتاد.

وحول سؤال وجهته إلىّ المذيعة «بوبى باتيستا» عما إذا كنت قد استمعت إلى حديث يشتم منه دعوة إلى سلام من الأفراد الذين قمت بإجراء مقابلات معهم، أجبتها بأن هناك دلائل وإشارات عدم سعادة بالحرب استخلصتها من سماعى لأحاديث مدنيين عراقيين فى فندق «الرشيد» وفى شوارع بغداد وبعض المدن العراقية الصغيرة الأخرى.

أخبرت «بوبى باتيستا» المذيعة بشبكة (CNN) فى أتلانتا عن تاجر السجاد العراقى الذى كا ن يقف خارج متجره الكائن فى سوق أحد أحياء بغداد القديمة، بعد أن أغلق باب المتجر، وراح فى هدوء وحذر يلعن ويسب اليوم الذى أقدم فيه «صدام» على غزو الكويت، فقد تسبب ذلك الغزو فى كساد سوق العمل فى بغداد، ووقف حال الناس جميعاً، كما أخبرت «بوبى» عن العديد من العراقيين الذين كانوا يحرصون على سماع وجهة نظر دول التحالف الغربى عبر موجات الراديو القصيرة من إذاعتى هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) ومحطة إذاعة صوت أميركا.

فى تلك الليلة أخبرنى سعدون بأنه تلقى لأول مرة رسالة اطمأن منها على سلامة

زوجته الحامل ووالدتها منذ أن غادرا بغداد مع بداية الحرب إلى منزل قريب لهما فى قرية بأحد أقاليم العراق البعيدة، وناجى الحديثى أيضاً كان قد أرسل عائلته إلى إحدى القرى البعيدة، ولم تصله أى رسالة تطمئنه عليهم، أما عائلة «جليل» فقد كانت مطمئنة لوجود «ناجى الحديثى» معها فى المخبأ، وكانت توزع الطعام على الموجودين بالمخبأ، وتغنى بعض الأغنيات، وتشيع فى المكان جواً من المرح، خاصة فى الأوقات التى يتوقف فيها القصف الجوى، أو التى كانت طائرات دول التحالف تقصف فيها أهدافا على مسافات بعيدة من فندق الرشيد.

فى حديث سعدون معى قال لى إن الشئ الذى أدهشه وحيره كثيراً هو الموقف الأميركى من غزو العراق للكويت. وأضاف: «لأكثر من عشر سنوات كنا ننظر إلى أميركا على أنها صديقة لنا، والآن انظر إلى ما تفعله أميركا بنا.. سوف لن يثق العراق بأميركا مرة ثانية».. وقلت له إن أميركا والعالم كله يستشعر غضباً من صدام حسين الذى يقع عليه اللوم أولاً وأخيراً، بسبب قيامه بغزو الكويت، والنتيجة هى أن كل العراق يدفع الثمن.

كان سعدون يستمع إلى ما أقول دون أن يظهر على ملامحه علامات سخط، لكن أحد مساعدى سعدوى صاح قائلاً: «إن سعدون لن يسمح لك بهذا القول إذا أنت حاولت قوله فى رسالتك التى تبثها إلى شبكة (CNN) فى أتلانتا.

وفى رد فعل سريع حرك «سعدون» إصبعه نحوى وقال ضاحكاً: «لا تحاول ذلك يا سيد بيتر».

وعندما سألت سعدون ومساعده عن رأيهم فى صدام حسين تحدثا عنه فى حماس لأنه وببساطة شديدة .. الحاكم، وصاحب أعلى سلطة فى البلاد، ومن خلال حديثهم علمت أن البعض قد شاهده فى المهرجانات والمناسبات الوطنية، ولا أحد من موظفى وزارة الإعلام العراقية المكلفين بمرافقتنا حظى بلقائه، والأكثر من ذلك أن عدداً قليلاً جداً من أعضاء حزب البعث الاشتراكى وهو الحزب السياسى الذى يتزعمه صدام ويحكم به البلاد قد سنحت له فرصة اللقاء الشخصى بالرئيس العراقى.

أخبرنى ناصر أحد موظفى وزارة الإعلام بأنه كان قد اشترك فى الحرب ضد إيران

التى استغرقت زهاء عقد كامل هو عقد الثمانينات وأنه فخور باشتراكه فى تلك الحرب العادلة، لكننى قلت له إن الحرب العراقية - الإيرانية، تختلف كثيراً عن الحرب التى يخوضها صدام حسين ضد التحالف الدولى، والتى لن يكون النصر فيها من نصيب صدام. وخلال تلك المحادثة لم يرغب العراقيون فى مواصلة الحديث وانصرفوا إلى النوم.

وقبل أن أصعد إلى غرفتى بالطابق التاسع تجولت قليلاً فى بهو الفندق، ومن خلال إحدى النوافذ التى تساقط زجاجها تطلعت إلى السماء فى الخارج فوجدتها صافية، وعندما توجهت صوب المدخل الرئيسى للفندق وجذبت الباب شاهدت صاروخاً من نوع «سكود» فوق قاذفة على بعد ياردات قليلة من الفناء الأمامى للفندق.. وللحظة خطر على ذهنى أن وزارة الدفاع الأميريكية «البنتاغون» لو علمت بذلك الأمر فسوف يكون فندق الرشيد من المواقع المعرضة للقصف، أغلقت باب الفندق، وعلى أطراف أصابعى صعدت على الدرج إلى غرفتى بالطابق التاسع.

الفصل

الثامن عشر

لقاء بيتر أرنيت مع صدام حسين

* في اليوم الحادى عشر التقيت طاغية العراق في مقره السرى بحى القاهرة.
* رجال الأمن فتشوا ملابسى الداخلية وجسدى العارى.
* ووضعوا مطهرًا فى يدى قبل الذهاب لمقابلة صدام.
* أرسلت لقائى مع حاكم العراق من بهو الفندق على ضوء نيران القصف والمدفعية.
* إجابات الطاغية اتسمت بالمبالغة اللفظية والإنشائية فتعمدت استفزازه.
* حاولت منع مجنون العراق من المراوغة أثناء الحوار فحاول أن يبدوا متماسكًا.. لكن حركات عينيه فضحت حالته النفسية.

بعد ظهر اليوم الحادى عشر من أيام الحرب، جاءنى سعدون فى بهو الفندق وعلى وجهه أمارات الجدية، وقال لى أن أستعد لمقابلة مع شخصية مهمة جداً، وقد خمنت أن المقابلة سأجريها مع «جاسم» وزير الإعلام العراقى الذى كان قد وعدنى من قبل بلقاء معه.

وبعد وقت قصير قدم إلى فى بهو الفندق أربعة مسؤولين فى ثيابهم السوداء الداكنة طالبين منى اصطحابهم إلى غرفتى بالطابق التاسع، وعندما تلفت يميناً ويساراً بحثاً عن «علاء» لكى أستفسر منه عما يحدث من حولى من تصرفات غامضة طمأننى بأن لا شئ يدعو إلى القلق.

داخل غرفتى بالفندق طلب منى الرجال الأربعة أن أقوم بخلع ملابسى حتى يمكنهم تفتيشها بدقة، عندئذ ساورنى شك بأن إجراءات تفتيش تصل إلى ملابسى الداخلية وإلى جسدى العارى لا يمكن أن تتبع إلا عند اللقاء بالرئيس العراقى «صدام حسين» لا أحد غيره.. وبعد أن ارتديت ملابسى من جديد أصر الرجال الأربعة على أن أقوم بغسل يدى بمادة مطهرة فقلت فى سرى إن سبب ذلك هو المصافحة المحتملة بينى وبين الرئيس العراقى الذى يخشون عليه من الإصابة بمرض معد، ولما لم يطلبوا منى غسل أسنانى تأكدت أن المقابلة لن يكون مسموحاً فيها تبادل القبلات.

أمام مدخل الفندق كانت سيارة «بى. إم. دبليو» سوداء آخر موديل فى الانتظار، وكان أن اتخذت مجلسى فى المقعد الخلفى، ثم حييت السائق لكنه لم يرد تحيتى، وأدار محرك السيارة التى أسرعت بالسير فى شارع ١٤ يوليو.

عبرت السيارة كوبرى الجمهورية لتسير فى طريق القادسية السريع المتجه شمالاً ثم فى شارع فلسطين، وعندئذ شاهدت السائق وهو ينظر فى المرآة الخلفية حتى يطمئن ألا أحد يتعقبنا، وبعد وقت قصير وجدنا أنفسنا داخل منطقة سكنية فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة الذى لم يسبق لى زيارته، ومن العلامات المثبتة على الطريق

عرفت أننا فى حى القاهرة.

قبل أن يحل الظلام شاهدت شوارع حى القاهرة، وقد اصطفت على جانبيه بيوت خشبية أنيقة من طابقين تزينها أفنية مزروعة بالنباتات والزهور، وأمام أحد هذه البيوت، توقفت السيارة، ونزل السائق ليفتح لى الباب الخلفى، وعندما وضعت قدمى على الأرض اقترب منى أحد الأشخاص ليقودنى إلى داخل البيت دون أن تصدر عنه كلمة واحدة، وبعد أن اجتزت ممراً خافت الضوء، وجدت نفسى فى حجرة واسعة بها كشافات إضاءة ضخمة وثلاث كاميرات فيديو عدساتها موجهة صوب خلفية تزينها ديكورات فاخرة، وأوانٍ للزهور فى الأركان، وعلى الأرض سجاد نادر، فوقه مقاعد مريحة مغطاة بنسيج من الحرير الدمشقى الأبيض.

رجال كثيرون كانوا فى الحجرة الغارقة فى الضوء يروحون ويجيئون فى خطوات متعجلة، وهم مرتدون الثياب العسكرية، بينهم جاسم وزير الإعلام وآخر قدم نفسه باعتباره السكرتير الخاص للرئيس صدام، وثالث ابن عمه، وتعرفت على المترجم العراقى الذى كثيراً ما شاهدته فى المقابلات التى كان يجريها التليفزيون العراقى مع ضيوف أجانب، وفى المحادثة العابرة التى جرت بيننا ذكروا أنهم كانوا يشاهدوننى على شاشة تليفزيون (CNN).

كان من المتوقع وصول صدام حسين فى أية لحظة، وحتى أقلل من حدة الصمت المخيم فى أرجاء الغرفة سألت جاسم ، وزير الإعلام عن مصير بوب سيمون الذى انقطعت أخباره ولم يعثر له على أثر حتى ذلك الوقت، لكنه انفجر فى وجهى غاضباً ومتهماً إياى بأننى أكثر اهتماماً بمصير حفنة من الأميركيين من مصير العراق كله، ثم رفض الإجابة عن سؤالى.

كنت قد استمعت إلى من يصف صدام حسين بأنه لا يمكن التنبؤ بما يصدر عنه من تصرفات وسلوكيات، لكننى لم أعر ذلك الأمر اهتمامى، فقد كنت على يقين بأنه تم استدعائى لإجراء مقابلة معه لسبب ما، هو الشئ الذى يجعلنى فى موقف غير ضعيف خلال مواجهتى له، من الناحية النفسية أيضاً أكون فى وضع أكثر تميزاً، فهو فى وضع

المطارد والمستهدف من قبل طائرات دول التحالف ولست أنا.

وبينما أنا فى حديث منفرد مع نفسى شاهدت الباب المغلق يفتح ليدخل منه صدام حسين الذى كان يرتدى حلة زرقاء قاتمة ومعطفاً خفيفاً فاتح اللون، وغطاء رأس رمادى من الصوف، وبدا أطول قامة من كل الذين تجمعوا حوله، واستأذن على الفور لكى يخرج ليعد نفسه للمقابلة، وغادر معه المترجم لكى يرتدى ثياباً مدنية بدلاً من زيه العسكرى.

وعند عودة صدام سار فى اتجاهى ومد يده إلىّ ليصافحنى، وكانت الطمأنينة والراحة تبدو على وجهه وشعره الأسود الكثيف قد صفف فى عناية.

ومن خلال المترجم سألنى صدام عن السبب الذى من أجله فضلت البقاء فى بغداد. وبعد أن أجبته بأن عملى الذى أعيش منه فرض على البقاء، ابتسم ابتسامة عريضة وأضاف قائلاً: بأنه نوع خطر من العمل، وربما يكون عملى الصحفى ببغداد يمثل آخر عهد لى بممارسة ذلك العمل. وبعد أن أنهى كلامه تذكرت أن قائل هذه الكلمات هو نفسه الذى وصف حربة ضد التحالف الدولى بأنها «أم المعارك».

أخبرته بأن العالم مشوق لأن يسمع منه، فسألنى قائلاً: «هل أحضرت معك قائمة طويلة بالأسئلة؟» فأجبته بأننى سأوجه إليه الأسئلة التى يريد العالم أن يسمع إجابات عنها، كانت ملاحظتى تتسم بالمبالغة والغرور، لذلك فقد شعرت بالاستياء من قولها، لكن لم يبد عليه اهتمام كبير، وهو يمسك بذراعى ليقودنى نحو موقع التصوير، ويقول: «اسألنى كيفما تحب».

كنت أعلم جيداً أن إجراء مقابلة مع صدام حسين فى منتصف الحرب الدائرة سيثير الكثير من النقاش والجدل، كما كنت على علم أيضاً بأن الذين قاموا بتوجيه انتقادات لقرار شبكة تليفزيون (CNN) البقاء فى بغداد، وغضبوا لاختيارنا عرض آثار القصف الجوى الذى شنته طائرات التحالف سوف يشعل غضبهم أكثر وأكثر.

لذلك فقد أخذت عهداً على نفسى بأن أكون أكثر تشدداً مع صدام خلال المقابلة ما وسعنى التشدد، فمن المؤكد أن شبكة تليفزيون (CNN) ستبث كل المقابلة على

شاشتها، وأن كل كلمة سأتفوه بها سأتعرض لإمعان النظر فيها، وبدأت المقابلة دون أن أحفل بذكر ما سبق اسمه من ألقاب فخمة واكتفيت بمخاطبته بـــ (SIR) لكنني فيما بعد علمت أن المترجم كان يسبق توجيه أسئلتي له باللغة العربية بذكر اللقب «فخامتكم» أو «عظمتكم».

في حواري معه قلت إن عمليات القصف الجوي قد تسببت في إظلام بغداد، وإن القائد العام لقوات الولايات المتحدة الأميركية كان قد أعلن أنه بصدد كسبه الحرب، وأجاب صدام بأن الضوء الأكثر إشراقًا ما يزال متوهجًا في نفوس الشعب العراقي، وبأن الحلفاء لن يحصدوا النصر بذلك القصف الجوي الذي تشنه طائراتهم ضد العراق.

كانت إجابة صدام تتسم بالمبالغة اللفظية والإنشائية، لذلك كان عليّ أن أحصل منه على إجابات ذات قيمة صحفية وذات أثر في مجال المنافسة على الأخبار، ومن ثم فقد قلت له إنه من الملاحظ أنه في غضون أيام قليلة نجحت قوات التحالف في إلحاق دمار بالعراق أكبر مما سببته الحرب العراقية الإيرانية التي استغرقت ثماني سنوات.. كذلك أردت منه معرفة مصير قواته الجوية بعد لجوء بعض طياريه بطائراتهم إلى إيران، كما سألته عن استعماله للنفط كسلاح في الكويت، ولكنه كان يجيب في غير مبالاة، وفي شئ من التظاهر وإخفاء لبعض الحقائق، بالإضافة إلى أن الوقت الذي كان يفقد خلال الترجمة جعل الحوار يفتقد إلى عنصري المفاجأة والسرعة اللذين يمكنهما دفع دفة الحوار نحو مزيد من التلقائية والسخونة.

حاولت أن أثير صدام و أستفزه وأحرضه على الحديث عندما وجهت إليه سؤالاً حول قراره الذي اتخذه باستخدامه طياري الحلفاء الأسرى كدروع بشرية في المواقع والمنشآت الاستراتيجية، لكن صدام لم يجب إجابة مباشرة عن السؤال ووجه اتهامه لدول الغرب بالكيل بمكيالين، ففي الوقت الذي فرضوا فيها قيودًا مشددة على المواطنين العراقيين الموجودين داخل بلادهم عند بداية الحرب، يجأرون اليوم بالشكوى من طريقة معاملتنا لسجنائهم.

ولقد داخلني شعور بأن محاولتي إثارته وتحريضه على التحدث قد أحدثت أثرها،

فقد أبدى صدام تذمراً من أن الرئس الأميركي بوش كان قد دعا إلى حوار للبحث عن حل للأزمة النفطية فقط، لكي يوفر غطاء دعائياً للحرب التى كان يعد لها، كما أكد صدام فى لهجة تتسم بالمرارة أنه تعرض لخداع من قبل الغرب عندما قام بإطلاق سراح خمسة آلاف من المواطنين الغربيين واليابانيين كانوا محتجزين فى بغداد لعدة أسابيع عند بداية الأزمة.

وأضاف صدام قائلاً: «ماذا قال النفاق السياسى فى الغرب فى ذلك الوقت؟ قالوا إن احتفاظنا بالضيوف الأجانب سيؤدى إلى إشعال الحرب، وإن إطلاقنا لسراحهم سيمنع قيام الحرب، نحن لا نشعر بالندم بسبب قيامنا بإطلاق سراح هؤلاء المحتجزين، ولكن السؤال هو «لو أننا احتفظنا بهؤلاء الأجانب الغربيين واليابانيين الذى يقدر عددهم بخمسة آلاف فرد، فهل كان بوش يصدر قراره بشن الهجوم على بغداد؟».

عند هذه اللحظة من الحوار استشعرت أننى أحرز تقدماً فى هده المقابلة، فقد كان صدام شديد الهياج والغضب. الأمر الذى ابتعد به من التخفى خلف الكلمات المنمقة، التى تتسم بالمغالاة وعدم الصدق، وبدأ فى الكشف عن أشياء تتعلق بما فى داخل نفسه.

وتابعت محاولتى استثارته واستفزازه، فبدأت حديثاً حول نقطة حيوية وحاسمة فى لقائى معه عندما أخبرته بأن هناك تخمينات كثيرة تتناول الحرب البرية الوشيكة الحدوث والخوف من أسلحته الأسطورية ذات القدرة العالية على التدمير، ثم قمت بتوجيه سؤالى إليه: «فى اعتقادك كم من الوقت سوق تستغرقه الحرب البرية، وكم يتوقع من خسائر ينزلها بأعدائه إذا نشبت هذه الحرب؟».

بدا صدام سعيداً بالسؤال، لكن الإجابة عليه تضمنت ما يقدم لمنتقديه مزيداً من النقاط التى تضعه عرضة لمزيد من الاستهجان والانتقاد. فقد بدا مزهواً وهو يقول: «إن العراقيين سوف يقاتلون حربهم بطريقة تجعلهم يفوزون بإعجاب وتقدير الجانب الإنسانى داخل المقاتل الأميركى نفسه».

وتابع صدام حديثه مهدداً بما سيحدث فى حربه الفاصلة والكبيرة، فقال وهو يحرك ذراعيه فى انفعال مهدداً: «دماء كثيرة سوف تسكب فى هذه الحرب، دماء كثيرة

من كل جانب، الأميركى والبريطانى والفرنسى والسعودى، وبالطبع من الجانب العراقى، فلا تدع السياسيين من ذوى الأمزجة والمواقف المتقلبة يخدعونك بأن هناك حرباً برية وأخرى جوية، فالحرب هى الحرب»، وابتسم صدام حسين وأضاف.. «ألم يقولوا إن الحرب لن تستغرق سوى أيام فقط؟ لقد أخطأوا التقدير وسوف يكونون على خطأ مرة أخرى.

وكان علىّ أن أضمن حوارى مع الرئيس العراقى صدام حسين الحديث حول أكثر النقاط إثارة للجدل والخوف، وهى أسلحة الدمار الشامل التى هدد صدام فى العام السابق باستخدامها لتدمير نصف دولة إسرائيل، والتى لم يكن قد استخدمها بعد عندما قام بشن هجمات بصواريخ سكود فوق تل أبيب.

قلت للرئيس العراقى: إن قوات دول التحالف الموجودة بمنطقة الخليج قد أعدت نفسها لهجوم بيولوجى محتمل، فهل ستطلق العنان أخيراً لمثل هذه الأسلحة الفاتكة؟

صمت صدام للحظات وأجاب: «سوف نستخدم من الأسلحة ما يتناسب والأسلحة المستخدمة ضدنا، وقد أوضحنا لكم كم نحن ملتزمون بكل كلمة نقولها، وقد قمتم باختبارنا، وكانت ردود أفعالنا مثلما قلنا تماماً.

كان صدام حسين فى تلك الأثناء يستخدم أسلوب المراوغة والمواربة فى حدثه، لذلك قمت بمحاولة لمنعه من الاستمرار فى المراوغة، وسألته: «لقد صدر عن قوات دول التحالف المتعددة الجنسيات ما يفيد بأنها لن تستخدم الأسلحة الكيميائية ضدكم، فهل يعنى هذا أنكم لن تستخدموا تلك الأسلحة ضدهم؟»

أجاب صدام حسين قائلاً: «ما قلته هو أننا سنستخدم من الأسلحة ما يتناسب ويتكافأ مع الأسلحة المستخدمة ضدنا».

بدا لى من تهديدات صدام أنه يتراجع خطوة عن تهديداته، لذلك أشرت إلى ما صدرعنه من أن صواريخ «سكود» العراقية المسماة باسم «الحسين» والتى زاد العراقيون من دقتها وفعاليتها، والتى يمكنها حمل رؤوس نووية وبيولوجية وكيميائية، وسألته: «حتى الآن كل الذى استخدمته فى الحرب أسلحة تقليدية؟»

ظهر التردد للحظة على وجه صدام حسين قال:

«نحن أناس نتبع قيماً تقليدية، وكل ذلك التفوق الجوى الذى تراه الآن قد فشل فى أن يجعلنا ننحرف عن الطريق المتوازن فى القتال،وسوف نحافظ على أن يظل ذلك التوازن موجوداً، لذلك فإنه عندما استخدمنا سلاح الصواريخ استخدمناه برؤوسه التقليدية»

وحول سؤالى عما إذا كان صدام قد شعر بشئ من خيبة الأمل بسبب عدم صدرور رد فعل مباشر من إسرائيل حول هجومه عليها بالصورايخ متفادية بذلك فتح جوانب أخرى للصراع فى العالم العربى، أجاب صدام حسين مستخدماً عباراته التى يكررها منذ سنوات، وعلى نحو متصل: «إن الصهيونية المسيطرة على صانعى القرار فى الإدارة الأميركية هى سبب هذه الحرب التى تشن علينا».

وعندما سألت صدام عما إذا كانت مواقع إنتاج الأسلحة النووية قد تم تدميرها - كما أعلنت وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون»، بدت على وجهه علامات السخط، وراح يلقى محاضرة موجزة عن الأمن، وقال: «أنت تريدنى أن أتحدث عن ذلك الشئ فى الوقت الذى تفرض فيه السلطات الأميركية قيوداً مشددة حول أبسط الأمور التى تتعلق بالجندى الأميركى؟ إنهم يفرضون القيود على أبسط التفاصيل التى تتصل بعملياتهم العسكرية. فى الوقت الذى يقولون فيه إنهم ديموقراطيون.. أنتم تصفون العراق بالديكتاتورية، فكيف تتوقعون منا أن نزودكم بتفاصيل عن أمور كهذه على جانب كبير من الخطورة؟»

كنت أشعر بقبضة يدى ممسكة دفة الحديث، وكان صدام بالرغم من الهدوء البادى عليه، وبالرغم من تظاهره بامتلاك زمام نفسه، قد خانته عيناه اللتان كانتا تطرفان على نحو متكرر وسريع، وفى هذا الصدد، وطبقاً لما جاء فى مقال لصحفى بمجلة «تايم» فإن عينيه كانتا تطرفان ٤٠ مرة فى الدقيقة خلال المقابلة، مقارنة بالعدد ٢٥ مرة فى حالته العادية.

قلت للرئيس العراقى صدام إن كل مسار المعارك فى ميدان القتال، فهل لديك مثل

هذه الشكوك فيما يتصل باحتمالات الكسب والخسارة؟

وأجاب صدام: «ليس لدى أى شك ولو بنسبة واحد فى المليون».

وشعرت عندئذ بمساعدى صدام، وأمارات التململ والعصبية على وجوههم وحركاتهم، فنظرت فى ساعتى، ثم قمت بتوجيه آخر سؤال للرئيس العراقى حول الأثر الذى يمكن أن تحدثه هذه المقابلة التى أجرتها معه شبكة (CNN) على الولايات المتحدة الأمريكية والعالم، وصمت صدام حسين للحظة مفكرا، ثم تحدث بطريقة ربما أراد منها أن يؤثر فى نفوس مشاهديه شاكرا «هؤلاء الذين خرجوا إلى الشوارع فى تظاهرات احتجاج ضد هذه الحرب التى يشنوها دون وجه حق ضد شعبنا».

استغرقت المقابلة التى أجريتها مع الرئيس العراقى «تسعين دقيقة» وكان من الممكن أن تستمر لوقت أطول، لولا أننى حرصت على أن أقوم أنا بإنهاء المقابلة، ونهض صدام وابتسم ابتسامة عريضة، وصافحنى وشد على يدى، وكان يبدو عليه السرور من أدائه خلال المقابلة، وانصرف بعد أن تحدث بكلمات قليلة إلى مساعديه.

وعندما عدت إلى الفندق وجدت البهو غارقا فى الظلام، فتوجهت إلى المخبأ، وهناك تقابلت مع «سعدون» الذى صافحنى وشد على يدى بقوة، وغمرنى بالقبلات، وصاح فى الزحام من حوله باللغة العربية بأننى قابلت الرئيس، وكان أن تجمهر حولى مساعدى سعدون، وأقبل إلى أفراد من العائلات العراقية المقيمة بالمخبأ مبتسمين. عبر الهاتف تحدثت إلى توم جونسن فى أتلانتا، وأخبرته عن المقابلة التى أجريتها مع الرئيس العراقى صدام حسين، فطلب منى أن أبث رسالتى على الفور، وفى خلال عدة ثوان كنت على الهواء.

خلال بث المقابلة مع الرئيس العراقى عبر الأقمار الاصطناعية فى حديقة فندق الرشيد فى الرابعة صباحا بتوقيت بغداد، والتى كانت تذاع على شبكة (CNN) فى نشرة أخبار المساء، كانت طائرات دول التحالف تقصف بغداد الغارقة فى الظلمة، ولم تكن هناك بقعة تعمرها الأضواء فى كل بغداد سوى المكان الذى نبث فيه على الهواء مباشرة إلى شبكة تليفزيون (CNN) فى أتلانتا، حيث كشافات الضوء الموجهة إلى وجهى، وأنا

أجيب على تساؤلات بيرنارد شو المذيع بأتلانتا.

وخلال البث أسرع إلينا المسؤول الإعلامي علاء محذراً من القصف، ويريد أن نكف عن البث، وإطفاء كشافات الضوء المتصلة بالمولد الكهربائي الخاص بالفندق، حتى لا نتسبب في أن تقوم طائرات دول التحالف بقصف فندق الرشيد بمن فيه.

وبالفعل أطفأنا الأنوار واستمر قيامنا بالبث على بصيص الضوء الناتج من نيران بطاريات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات الموجودة خلف الفندق. وسألني بيرناردشو عن شعوري في تلك اللحظات وأنا أبث رسائلي التليفزيونية على الهواء مباشرة من عاصمة العدو وتحت القصف الجوي، وأجبته بأنني أتذكر نفسي وأنا أبعث برسائلي الصحفية إلى وكالة أنباء أسوشيتد برس في نيويورك من جاكرتا على مفاتيح جهاز «مورس» وعلق على الفور بيرنارد شو قائلاً: «هل تصدق أنك في خلال ثلاثين سنة انتقلت من الضغط على مفاتيح جهاز «مورس» إلى التحدث على الهواء مباشرة من بغداد لكي يشاهدك العالم كله في ذات اللحظة.

الفصل التاسع عشر
نهاية عاصفة الصحراء وهزيمة النظام العراقى

* وانتهت عاصفة الصحراء بهزيمة فادحة للنظام العراقى.
* استيقظت على صوت القذف صباح ١٣ فبراير يهز أرجاء بغداد.
* الدمار يغطى العراق وإذاعته تؤكد الانتصار فى أم المعارك.
* تدمير المنشآت العسكرية بالبصرة فاق معدل الضربات الموجهة لبغداد.
* ٣٤ من أعضاء الكونغرس يستنكرون تغطية (CNN) لعاصفة الصحراء.
* المراقب الإعلامى حال دون بث رأى لمواطن عراقى خشية تعرضه للاغتيال.

وانتهت عاصفة الصحراء بهزيمة فادحة للنظام العراقي

في نهاية يناير سمح العراقيون بدخول عشرين صحفياً من غير الأميركيين لتغطية أخبار الحرب، وعندما أخبرت سعدون بضرورة السماح بدخول صحفيين من المؤسسات الصحفية والإعلامية الأميركية الكبيرة حتى تزداد مصداقية ما تبثه شبكة (CNN) رفض، مؤكداً عدم رغبتهم في وجود صحف وشبكات أميركية أخرى، وأنهم مكتفون بشبكة تليفزيون (CNN).

وفي الوقت الذى كنت فيه أحاول إقناع المسؤولين بوزارة الإعلام العراقية بالسماح لمؤسسات صحفية وتليفزيونية أميركية بدخول العراق وتغطية أخبار الحرب، كانت بعض الصحف والشبكات التليفزيونية الأميركية تشك في الامتياز الممنوح لشبكة تليفزيون (CNN) بأنها عقدت صفقة مع النظام العراقي تمكنها من الانفراد بوجودها في بغداد في مقابل أن تشاركها الحكومة العراقية في استخدام تسهيلات البث عن طريق القمر الاصطناعي.

وحاولت أن أسهل على سعدون أمر استدعاء الصحفيين إلى بغداد ، فسمحت له أن يستخدم هاتفي المتصل بالقمر الاصطناعي للاتصال بالسفارات العراقية في الدول الأجنبية وحثهم على استصدار تصاريح زيارة للصحفيين والتليفزيونيين لدخول بغداد.

وبوصول عدد من الزملاء بشبكة (CNN) إلى بغداد أمكننا القيام بمزيد من أعمال التغطية الإخبارية للمواقع المدنية التي أصابها قصف قنابل طائرات دول التحالف. كما أمكننا إنشاء ستوديو خاص بشبكة (CNN) في أحد أركان بار «شهرزاد» بفندق الرشيد، كما اشتركت مع المصور ديف راست في التجول داخل شوارع وأزقة بغداد، وفي نقل مظاهر الحياة اليومية في الشارع العراقي،ونجحنا في عمل تحقيقات مصورة داخل كنيسة ومسجد. وفي سوق النحاسين، وعلى شواطئ نهر دجلة كان الأطفال العراقيون يسبحون ويلعبون، والأمهات كن يغسلن الملابس في المياه الجارية للنهر.

وكنت دائم الطلب من ناجى الحديثى أن يسمح لى بزيارة الكويت، لكنه كان يرفض بإصرار، وفى ٦ فبراير سمح لى ناجى بزيارة «الناصرية» التى تبعد أربعين ميلاً من مدينة «البصرة»، فى الجنوب العراقى، وعلى طول الطريق السريع الذى كانت تقطعه سيارتنا المتجهة إلى الجنوب. لم تكف طائرات دول الحلفاء عن أعمال القصف، وقد شاهدنا، ونحن فى طريقنا سيارة خاصة، وقد أصابها صاروخ من أعلى تسبب فى إصابة ركابها المسافرين بإصابات بالغة، ولم يسمح لنا مرافقنا فى السيارة بالتوقف، وفى الناصرية سمح لنا مرافقنا بتصوير جسرين تعرضا لقصف شديد بالقنابل.

وبعد عودتنا إلى بغداد، وفى منتصف الليل عندما كنت أبث تقريرى الإخبارى إلى شبكة (CNN) فى أتلانتا تحت كشافات الضوء بحديقة الرشيد، بدأت طائرات دول التحالف حلقة جديدة من سلسلة القصف الجوى بالقنابل والصواريخ، وأسرع المسؤول الإعلامى الجديد «محمود» بالوقوف أمام الكاميرا فى محاولة لمنعنا من مواصلة البث مخافة أن تجتذب كشافات الضوء الطائرات المهاجمة، وأطفأنا الأنوار. لكننى واصلت البث تحت وهج نيران القصف الجوى من أعلى إلى أسفل ونيران بطاريات المدفعية والصواريخ التى كانت تطلق قذائفها إلى أعلى.

وفى اليوم التالى تم السماح لنا بالتوجه إلى مدينة البصرة التى بدأ منها شن الغزو العراقى لمدينة الكويت لقربها الشديد من الحدود العراقية الكويتية، وقد سلكنا طرقاً خلفية و مسارات غير مطروقة حتى نتفادى الغارات الجوية، ومررنا بالعديد من ناقلات النفط المحترقة والشاحنات المحطمة.

وعندما عبرنا إلى مدينة البصرة فوق جسر صغير متداع هو الوحيد الذى نجا من القصف، وجدنا أنفسنا داخل مدينة تعيش حالة الحرب بكل مظاهرها، فقد كانت الطائرات المغيرة ظاهرة للعيان وهى تلقى بقنابلها وصواريخها، ثم محاولات إفلاتها من بطاريات الصواريخ المضادة الموجودة على الأرض، وكان كل منا يعدو باحثاً له عن ملجأ وملاذ يحميه.

هدف جوهرى

كانت البصرة هدفا جوهريا لطائرات دول التحالف لوجود ميناء ومنشآت عسكرية كثيرة بها، ونتيجة للقصف الشديد الذى تعرضت له تهدمت مواقع مدنية، ولحقت خسائر كبيرة بالمدنيين أكثر من مثيلتها فى بغداد، ومن بين المواقع المدنية التى لحق بها ضرر شديد وقمنا بزيارتها مستشفى ومسجد دمرا تماماً وسويا بالأرض، وأقمنا فى فندق شيراتون البصرة الذى كان فى السابق مثالاً للفخامة و الأناقة وتحول خلال الأيام السابقة إلى مخبأ تمتلئ ردهاته وأبهاؤه بأكياس الرمل، وقد تحطمت نوافذه وبعض جدرانه، وقطع أثاثه أصبحت رأساً على عقب.

المجموعة الأولى من الصحفيين الذين سمح لهم بدخول بغداد غادروها فى ٨ فبراير بعد انتهاء أسبوع ، هى كل الفترة التى صرح لهم بها لزيارة بغداد، وقد وفدت مجموعة أخرى من الصحفيين تشتمل على أميركيين لأول مرة منذ بداية الحرب، من بينهم فريق عمل من شبكة تليفزيون (ABC) الأميركية على رأسه المراسل «بل بلاكمورا» أما فريق عمل شبكة (CNN) فقد تم إعفاؤه من متطلبات استصدار تصاريح إقامة.

ومع و صول الأميركيين وصلت معهم الرسائل الخاصة والبريدية التى عن طريقها وعن طريق المكالمات الهاتفية مع ابنتى إلزا، التى تعمل صحفية فى صحيفة «بوسطن جلوب» بعد تخرجها من جامعة هارفارد، أدركت تماماً ردود الفعل السلبية تجاه تقاريرى الإخبارية، التى كنت أبثها من بغداد، فإلى جانب ما تعرضت له من استنكار واستهجان داخل قاعات الكونغرس الأميركى، قام لورانس كولفن النائب بولاية بنسلفانيا بتوجيه اتهام ضدى قائلاً فيه «بيتر آرنيت». وهو «جوزيف غوبلز» النظام العراقى، وصدام حسين لا يختلف نظام حكمه كثيراً عن نظام حكم الفوهرر هتلر.

كما وصل «توم جونسون» رئيس شبكة (CNN) فى أتلانتا رسالة موقعة من أربعة وثلاثين من أعضاء مجلس النواب الأميركى تستنكر التغطية الإخبارية لأخبار حرب الخليج التى يبثها بيتر آرنيت من بغداد، والتى تزود ديكتاتور العراق المخبول بوسيلة دعائية

تغطى أكثر من مائة دولة».

وفى لندن قام أعضاء حزب المحافظين بالبرلمان بعقد مقارنة بينى وبين بعض المرتدين الذين تخلوا عن عقائدهم وأحزابهم فى الحرب العالمية الثانية، أما رسامو الكاريكاتير الساخر فقد كانوا يستمتعون بعمل رسومات تجمعنى مع صدام حسين فى سلة واحدة، ومتطرفون تابعون لمنظمات يمينية متطرفة أطلقوا علىّ اسم عميل بغداد، وطلبوا من مجلس إدارة شبكة تليفزيون (CNN) إصدار قرار يمنع ظهورى على الشاشة.

١٣ فبراير ١٩٩١

فى الساعات الأولى من صباح يوم ١٣ فبراير استيقظت على صوت قصف عنيف بالصواريخ والقنابل، وبينما أنا جالس أتناول طعام الإفطار مع «ديف» أقبل سعدون ناحيتنا والدموع تنهمر من عينيه، وأخبرنا عن قصة قصف الطائرات لمخبأ عام يستعمله المدنيون للاحتماء به من الغارات الجوية، ومن بين الضحايا الكثيرين بعض من أصدقائه وسكرتيره، وعلمنا منه أن هناك حافلة ستتوجه بالصحفيين إلى مكان الحادث المروع.

توجهت بنا الحافلة إلى شارع (يافا) الموصل لحى «الأميرية» الذى يقطنه أفراد الطبقة المتوسطة، والذى لم يسبق لى أن زرته، وبمرورنا فى شارع الأردن شاهدنا سيارات جيب عسكرية، وسيارات إسعاف وإطفاء، وضباط عسكريين يصدرون أوامرهم، ورجال إطفاء يحملون محفات فوقها قتلى وجرحى ولافتة سقطت على الأرض كتب عليها باللغتين العربية والإنجليزية «مخبأ عام – إدارة الدفاع المدنى»، وجثث ملقاة وسط الدمار والحريق.

وشاهدت وسط الزحام المخيم عليه أجواء المأساة و زير الإعلام العراقى جاسم وهو يتحدث إلى محافظ بغداد، فتوجهت نحوهما وسألت جاسم عما حدث. فأجابنى بأن قنبلتين قد اخترقتا المخبأ ودمرتاه تماماً فى الساعة الرابعة وخمسين دقيقة من صباح اليوم، وأكد أن الموقع هو مخبأ عام للمدنيين، وعندما طلبت منه الإذن بالتجول أمر بأن يصحبنى أحد رجال الإطفاء.

وعن طريق علاء المسؤول الإعلامي الذي قام بالترجمة، علمت من أحد المسؤولين العراقيين بأن عدد القتلى يزيد عن أربعمائة قتيل من الذين أتوا إلى المخبأ بثياب النوم، كما علمت من المسؤول المحلي أيضاً أن ملجأ الأميرية هو واحد من عشرين ملجأ تم بناؤهم في أحياء بغداد المختلفة في عام ١٩٨٤، وكان علاء يبكي وينشج، ويقول: «كيف لأميركا أن تفعل هذا؟».

واتخذت طريقي مسرعاً إلى فندق الرشيد، وإلى بار شهرزاد حيث قمت بالاتصال الهاتفي بأطلانتا، وطلبت منها أن تضعني على الهواء لكي أبثها تقريري الإخباري. وأثناء ذلك جاءني سعدون ليقول لي: «لا رقابة اليوم، قل ما تريد وما تحب قوله حول ما حدث في الأميرية، فلا شئ لدينا نخبئه أو نخفيه».

وخلال قيامي بالبث، ذكرت في تقريري الإخباري ما قاله المسؤول المحلي بأنه تم اكتشاف جثث مائتين من النساء والأطفال، وعلى الفور وجدت ريد كولينز مذيع شبكة تليفزيونن (CNN) الموجود باستديو أطلانتا يقاطعني قائلا: «بيتر. قائد القوات الأميركية في الرياض يقول إن الهدف الذي قصفته طائرات التحالف في الأميرية لم يكن في حقيقة أمره مخبأ يؤمه أفراد مدنيين، وإنما كان مخبأ أعد ليكون أحد المواقع العسكرية للقيادة والسيطرة، كما صرحت وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» بأن المخبأ قد تمت تقويته وتدعيمه لكي يستعمل لأغراض عسكرية»

وفي وقت لاحق من ذلك المساء، استمعت إلى تصريح للمتحدث الرسمي للبيت الأبيض جاء فيه أن المخبأ كان يستعمل من قبل قيادات عسكرية عراقية في توجيه تعليمات لماكينة الحرب العراقية بعد عمل إجراءات تمويه على المخبأ تمنع كشف نشاطه، أما فيما يتصل بوجود نساء وأطفال ومدنيين في المخبأ. فقد صرح المتحدث الرسمي للبيت الأبيض جهله بسبب وجودهم بالمخبأ.

وقد تكررت زياراتي لموقع المخبأ المحطم أكثر من مرة، وفي كل مرة لا أرى أثراً لعمليات تمويه، فضلاً عن المدنيين الذين التقيت بهم هناك. والذين كانوا يستخدمون المخبأ للاحتماء من القصف الجوي منذ بداية الحرب، خاصة وأن المخبأ يقع في قلب إحدى

ضواحي بغداد ومن حوله مسجد ومدرسة وأسواق تجارية.

وباستمرار القصف الجوى لطائرات دول التحالف أصبح لا أحد فى بغداد يستشعر الأمن و السلامة، وأصبح واضحاً أن ثمن الغزو العراقى لدولة الكويت هو تعريض حياة كل العراقيين للخطر.

وفي اليوم التالي تجمع مئات من أقرباء وأصدقاء ضحايا مخبأ الأميرية ليسيروا فى تظاهرة احتجاج.. وهم يحملون لافتات تهاجم أميركا. ويتحدثون إلى الصحفيين الأجانب، وكانت تلك المرة الأولى التى أرى فيها جمعاً من العراقيين منذ بدأت الحرب، وكان لا يبدو عليهم أى اهتمام بكونهم هدفاً سهلاً لطائرات دول التحالف.

كان زملائى الصحفيون قد أخبرونى أنهم التقوا ببعض أفراد عراقيين فى شوراع بغداد، وعلى غير المتوقع منهم كانوا غير راضيين عن صدام حسين، وفي وقت لاحق كنت مع فريق العمل بشبكة تليفزيون (CNN) نقوم بعمل مقابلات مع بعض التجار - اقترب منا شاب عراقى، و قال لنا صائحاً وبأعلى صوته إنه يكره الحكومة ويبغضها ثم ابتعد مسرعاً، وفي الفندق قال لى علاء، المسؤول الإعلامى أنه إذا قمت ببث شريط الفيديو الذى صورناه وبه لقطة الشاب العراقى فسوف يضطر اضطراراً إلى التحقيق معه، لذلك قمت بحذف اللقطة الخاصة به من شريط الفيديو.

وعندما نشرت صحيفة نيويورك تايمز تصريحاً لمصادر عسكرية تقول فيه :إن فندق الرشيد ببغداد يحتوى على مركز اتصالات حربى على درجة عالية من التقنية، أصاب الذعر كل الموجودين فى الفندق وعددهم ١٥٠ فرداً من المدنيين والصحفيين والدبلوماسيين، واستقر فى أذهانهم جميعاً مخبأ الأميرية الذى دمر تماماً على أنه مركز للقيادة العسكرية العراقية، ومن ثم فإن فندق الرشيد ربما يكون الهدف التالى للقصف.

وللتحقق من صحة ما جاء فى صحيفة «نيويورك تايمز» أسرعت إلى مدير فندق الرشيد «غازى على إسماعيل» و طلبت منه القيام بجولة تفتيشية فى كل أرجاء الفندق، وعندما انضم إلينا المسؤول الإعلامى علاء، أضفت إلى طلبى أن يتم السماح لى وللمصور بفتح كل باب مغلق من أبواب الفندق، وبعد ساعة من البحث فى أنفاق

وأبواب سرية فى الفندق، قمت ببث تقريرى الذى أكدت فيه عدم وجود أى دليل يعزز المزاعم التى قالت بوجود مركز اتصالات أو مركز قيادة عسكرية فى فندق الرشيد.

تسبب النقاش والجدل الذى أثير حول مخبأ الأميرية أن انتقلت بؤرة الاهتمام بى والشك فى مصداقيتى كمراسل حربى إلى أن أصبحت وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» موضع شك فى مصداقية ما يصدر عنها من تصريحات ومن قرارات، وقد بدأ الرأى العام الأميركى و العالمى يستنكر ما أحدثته الغارات الجوية من قتل المئات من المدنيين فى ملجأ الأميرية، فى الوقت الذى يؤكد فيه قادة «البنتاغون» الدقة المطلقة والكفاءة العالية لآليات الحرب عالية التكنولوجية، والتى كان من المتوقع ألا ينتج عنها مثل تلك الأخطاء.

وتغير مضمون الرسائل البريدية والهاتفية التى كانت تصل المركز الرئيسى لشبكة تليفزيون (CNN) فى أتلانتا من تشكيك فى عدم مصداقيتى كمراسل حربى، وفى كونى أتبنى وجهة نظر الجانب العراقى، وأمثل صوت صدام حسين، إلى مضمون مغاير يحمل كلمات فى صالحى وفى صالح تقاريرى الإخبارية التى أبثها، كما يحمل احتياج الرأى العام إلى حقه فى معرفة ما يجرى دون احتكار وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» وحدها لحق المعرفة والإعلام.

وفى منتصف شهر فبراير، أى بعد حوالى شهر من بداية القصف الجوى، كان العراقيون يتحدثون عن تسوية محتملة، فقد تسبب القصف الجوى المتصل لطائرات دول التحالف فى تدمير أهداف عسكرية وصناعية لا تحصى، كما كان يفغينى بريماكوف مبعوث الرئيس الروسى «ميخائيل جورباتشوف» فى بغداد يسعى لإقناع صدام حسين بالإنسحاب من الكويت قبل بداية اشتعال الحرب البرية. كانت دلائل كثيرة تشير إلى سلام محتمل. ففى حديث شبكة (CNN) مع بريماكوف مبعوث الرئيس الروسى فى فندق الرشيد ببغداد أكد على إنهاء الحرب، وعلى اقتناعه بعملية السلام، كما أعلنت الحكومة العراقية من جانبها أنها مستعدة للانسحاب من الكويت، ولكن رغبة الحكومة العراقية فى السلام والانسحاب من الكويت كانت محملة بشروط لم يقبلها الرئيس بوش.

إن عرض حكومة صدام الانسحاب من الكويت الذى أعلنه راديو بغداد كشف كثيراً من مزاج ورغبة العراقيين الذين كانوا يريدون وضع حد للحرب، وقد قام فريق شبكة (CNN) فى بغداد بتصوير أفراد عراقيين فى قلب العاصمة العراقية وهم يقومون بإطلاق الأعيرة النارية فى الفضاء فرحة بما أذاعه راديو بغداد، وبقرب انتهاء الحرب، وقد تحدث أحد هؤلاء العراقيين إلى شبكة (CNN) قائلاً: «لم يترك العالم لنا أى خيار، وعلينا أن ننسحب من الكويت».

وقال عراقى آخر: «لن يمكننا الاستمرار فى المقاومة، فماذا يمكننا أن نفعل، ونحن بلا غذاء ولا علاج ولا كهرباء».

وفى الجولات التى قمت بها فى «ساماوا» و«كيبالا» فى الجنوب العراقى وفى «كركوك» فى الشمال لاحظت أن طائرات التحالف لم تكثف قصفها الجوى فى تلك المناطق، وإنما القصف الكثيف لطائرات دول التحلف كان يستهدف تدمير القوات العراقية فى الكويت.

وبدأت تغطية شبكة تليفزيون (CNN) الإخبارية تتركز حول جهود السلام، وحول سعى «الكرملين» التوسط فى تسوية معقولة، وخبر زيارة «طارق عزيز» إلى موسكوا التى تلتها فى ٢١ فبراير تصريحات للروسيين تفيد برغبة العراق فى بدء عملية «انسحاب كامل، وغير مشروط من الكويت».

وعندما وجه الرئيس «بوش» انذاراً إلى «صدام حسين» بضرورة انسحاب كامل قواته من مدينة الكويت فى خلال ٤٨ ساعة على أن يتم انسحابه من دولة الكويت فى غضون أسبوع، لم يقبل صدام حسين انذار بوش، وفى يوم الجمعة ٢٣ فبراير أعلن بوش بدء الحرب البرية.

الإنهيار

فى ذهول استمع العراقيون عبر إذاعات العالم إلى أخبار الانهيار الذى أصاب

جيشهم في الحرب البرية القصيرة والشرسة، وفي صباح يوم ٢٦ فبراير عندما أعلنت الحكومة العراقية أن صدام حسين قد طالب قواته بالإنسحاب من الكويت ظهر الابتهاج على وجوه المسؤولين الإعلاميين في بغداد، وعانقوا بعضهم البعض، دون أى أثر لحزن أو لندم على فقدان الكويت، فقط كان الشعور بالارتياح يغمرهم لانتهاء المحنة.

وعلى أطراف بغداد شاهدت الجنود العراقيين القادمين من أرض المعركة في الجنوب ينتشرون بغير نظام مثبطى الهمة، تعلو وجوههم الكآبة والإحباط، ولم يكن مسموحاً لنا بتصوير هؤلاء الجنود أو إجراء مقابلات معهم، وفي تلك الأثناء بدت بغداد مفتوحة على مصراعيها لأى هجوم.

كنت أستيقظ كل صباح خلال الحرب البرية، وأتطلع إلى النافذة، وأنا أتوقع أن تظهر في الأفق طائرات مروحية على متنها الجنود والسلاح، أوأن يدفع الجنرال «شوارزكوف» بدباباته في الطريق المؤدى إلى العاصمة العراقية، فقد كان لا شئ هناك يوقفه على التقدم إلى بغداد. من مواقعه على نهر الفرات إذا ما أصدر له «بوش» أمراً، لكن الأوامر لم تصدر إلى شوارزكوف، فقد اتضح أن بوش أيضاً كان في توق شديد لأن ينأى بنفسه عن الحرب.

وأخر قصف جوى قامت به طائرات دول التحالف لبغداد حدث في الساعات الأولى من صباح يوم ٢٨ فبراير ضد أهداف من ضواحي بغداد الجنوبية، وذلك قبل أقل من ساعة من إعلان بوش انتهاء الحرب – التي أعلن راديو بغداد بأن العراق قد كسبها.

وتجولت بعد ظهر ذلك اليوم في مركز بغداد التجاري، فوجدت الشوارع مزدحمة باللذين كانوا مختبئين لعدة أسابيع، والشباب يلعب كرة القدم في الأرض الفضاء، والمعوقين من فوق عرباتهم ذات العجلات يستمتعون بأشعة الشمس، ولم أعثر على أى أحد يبدو عليه الأسف على الانسحاب من الكويت، وبالرغم من انتهاء القصف الجوى فقد استمرت المنشآت الصناعية في جنوب بغداد مشتعلة فيها النيران لعدة أيام – مرسلة الدخان الأسود الكثيف إلى السماء.

من فيتنام إلي بغداد

هو بلا جدال، أشهر مراسل عسكرى عرفه التاريخ. لم يلق بنفسه فى النيران فقط. بل عاش فى أتون أشهر معارك القرن العشرين، لينقل للعالم عبر وكالات الأنباء ومحطات التلفزة اللقطات الحية للمعارك.

عرفته فيتنام مثلما عرفته الكويت.

فى سايجون حاولوا إسكات قلمه، وتكسير عدسات كاميراته.

فى حرب التحرير نقل للعالم بأسره - ولأول مرة - الحرب على الهواء مباشرة من خلال وكالته C.N.N.

استطاع اقتناص أشهر اللقطات.

تآلبت عليه قوى الشر كثيراً لكنه صمد مستنداً على شعبيته.

إنه بيتر أرنيت فى كتاب يحكى فيه تفاصيل حياته منذ ولادته حتى حرب تحرير الكويت من واقع مشاهدات حية فى تلك الحروب الساخنة.

فى تفاصيله أسرار كثيرة جُلها يدور حول المؤامرات السياسية ودهاء القيادات وكوارث الحروب والصراعات، ويحكى خلاله تفاصيل لقاءاته مع كبار القيادات فى العالم، لا سيما هؤلاء الذين صنعوا الحروب والكوارث.

الناشر